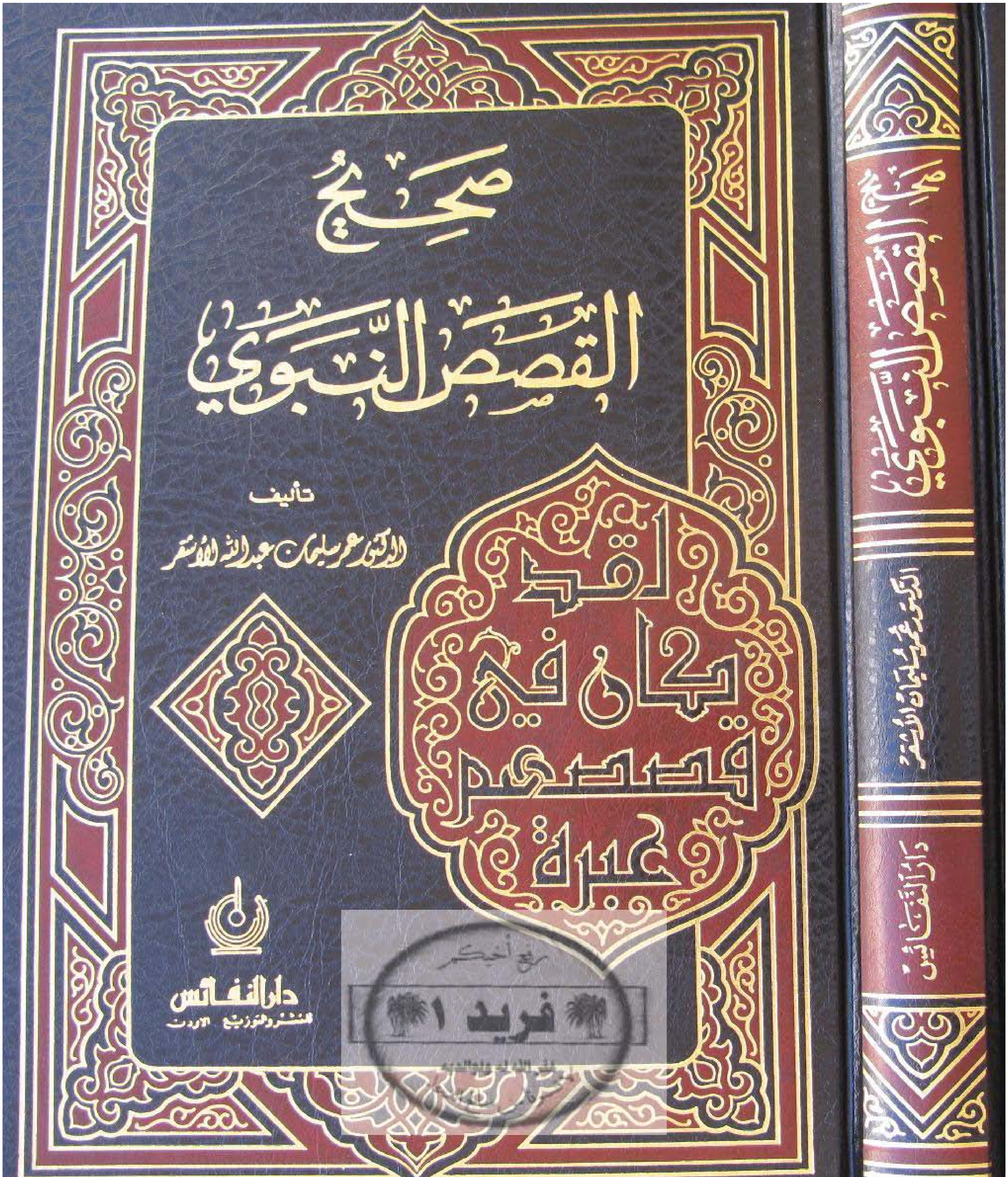


صحيح
القصص النبوي
تأليف
الدكتور عمر سليمان عبد الله الأشقر
لقد كان في قصصهم عبرة
دار النفائس
للنشر والتوزيع الأردن

صحيح
القصص النبوي

جَمِيعُ الحُقوقِ مَحْفُوظَة

الطَّبعَة السَّابعَة
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رفع أخيكم
فريد ١
غفر الله له ولوالديه..
لا تنسونا من صالح الدعاء

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي/ مقابل مركز جوهرة القدس
ص.ب ٩٢٧٥١١ عمان ١١١٩٠ الأردن
هاتف: ٠٠٩٦٢ ٦ ٥٦٩٣٩٤٠
فاكس: ٠٠٩٦٢ ٦ ٥٦٩٣٩٤١
Email: ALNAFAES@HOTMAIL.COM
www.al-nafaes.com

صحيح القصص النبوي

تأليف

الدكتور عمر سليمان عبد الله الأشقر

فريد ١

دار النفائس
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله الذي أحاط بكل شيء علماً، وقهر كل مخلوق عزة وحكماً، وألان قلوب عباده ونور بصائرهم بما حواه كتابه وسنة رسوله ﷺ من أنوار الهدى، والصلاة والسلام على أشرف خلقه وخاتم رسله: محمد ﷺ ، الذي دل الناس على ربهم، ورقق قلوبهم بما جاءهم به من طرق الهداية، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه، واتبع سنته إلى يوم الدين، وبعد:

فهذا كتاب جامع لأكثر قصص الحديث النبوي، ومرتبة القصص النبوي في الفضل تأتي بعد مرتبة القصص القرآني، وإذا كان القرآن كلام الله، فإن القصص النبوي أكثره وحي من عند الله، ولذا فقد اشتركا في المصدر والغاية، فإن مقاصد القصص في الحديث النبوي كمقاصد القرآن في قصصه، كلاهما يراد به تقديم الزاد للدعاة والصالحين، الزاد الروحي الذي تحمله القصة، وتسقيه أرواح المؤمنين وقلوبهم وعقولهم، فالقصة القرآنية والحديثية تسري في كيان الإنسان تياراً رقيقاً صافياً، تحمل في أحداثها وكلماتها المواعظ والفوائد، وتوجه للتي هي أقوم، وتردع المؤمن عن الآثام والمفاسد .

والكتاب كما ينبيك عنه عنوانه يقتصر على الأحاديث التي صح إسنادها عن الرسول ﷺ، و لم أخالف هذا إلا في قصص قليلة موقوفة على الصحابة، صح إسنادها عنهم، ويحتمل أنهم سمعوها من الرسول ﷺ، ويحتمل أنهم علموها من غيره .

وأما قصر الكتاب على صحيح الحديث دون سقيمه وضعيفه وباطله وموضوعه، فلأن نسبة الأحاديث إلى الرسول ﷺ التي لم يصح إسنادها إليه كذب على رسول الله ﷺ، والكذب على الله وعلى رسوله من أعظم الجرائم، ولا يجوز التساهل في نسبة الأحاديث إلى الرسول ﷺ إذا كان الحديث قصة، فالقصص

أخبار ووقائع غيبية.

ونحن نؤمن بالغيب الصادق، أما الإيمان بما لم يثبت عن الله ولا عن رسوله من الغيب مما لا يعرف إلا عن طريق الوحي، فإنه انحراف في المسار، وضلال في الوجهة، أضف إلى هذا أن القصص المكذوب المنسوب إلى الرسول ﷺ قد يحمل في طياته كثيرا من العقائد والأخلاق والقيم الباطلة التي تسري في كيان الإنسان من غير كد ولا عناء .

وهذا القصص مركب سهل للذين يريدون إضلال المسلمين، ولذا حذر كثير من العلماء من مفاسد القصص المكذوب، كما حذروا من القصّاص الذين لا يعرفون صحيح الحديث من سقيمه، وألّفوا في التحذير منهم المؤلفات، وذلك لعظم خطر هؤلاء الذين جعلوا الدين أقاصيص شبيهة بالأساطير، ومن هؤلاء ما فعله بعض المعاصرين عندما أفسدوا السيرة النبوية بتناولهم لها على طريقة الأسطورة، وبذلك أفسدوا على المسلمين شيئا كثيرا من دينهم .

وقد دللت على مواضع الحديث في كتب السنة، وبخاصة إذا كان في الصحيحين أو أحدهما، ولكنني لم استقص في تخريج الأحاديث وذكر رواياتها وألفاظها، وإنما ذكرت أشمل هذه القصص، فإن كان في الروايات الأخرى من العلوم والفوائد ما لا يوجد في الرواية التي سقتها، فإنني أذكرها كلها.

وقد اعتمدت في تخريج الحديث على تخريج بعض أهل العلم الذين يعتمد على علمهم في هذا الشأن .

ولم أذكر من أحاديث أخبار السابقين ما ليس بقصة، فهناك أخبار كثيرة في الحديث النبوي تتحدث عن خلق السموات والأرض، وخلق الملائكة والجن والإنس، وعن الرسل والصالحين والطالحين، ولكنها لا تشكل قصة، ولذا لم أوردها، لأنها لا تدخل في الإطار الذي حددته لهذا الكتاب .

وسيرى القارئ أنني سلكت في تأليف هذا الكتاب مسلكاً موحدا في كل

الأحاديث، فقد مهد لكل حديث بمقدمة، هي بمثابة التمهيد للقصة، ثم سقت الحديث بنصه، وأتبعت ذلك بذكر مواضعه في المصادر التي أخذته منها، وتناولت المفردات الغريبة بالشرح والبيان، ثم شرحت الحديث شرحاً وافياً، وختمت الكلام على كل حديث بذكر عبره وفوائده .

وسيرى القارىء الكريم أنني لم أترك العنان للفكر كي يحلق بعيداً عن النص الحديثي، فيتخيل المواقف كما يريد، ويضيف إلى المشاهد التي تضمنها الحديث مشاهد أخرى، بدعوى أننا نريد أن نصنع من الحديث رواية أو قصة مطولة، توجد فيها الحبكة القصصية والمؤثرات المختلفة .

إن هذا النهج الذي سلكه بعض الكتاب المعاصرين خطأ كبير، فالقصة الحديثية أكثرها وحي إلهي، وليس هناك مجال للتزيد فيها، ثم هي تحكي الواقع كما حصل، وليست حديثاً مفترى، والتزيد فيها على النحو الذي سلكه هؤلاء الكتاب يجعلها حديثا مفترى، كل ما يملكه الباحث أن يستخلص من النص ما يمكنه استخلاصه منه، وفق المنهج الذي حدده أهل العلم في استخلاص الفوائد والعبر والأحكام من النصوص .

قد يأخذ القارىء على الباحث أنه أهمل جملة كبيرة من القصص الحديثي تزيد في عددها على ما تضمنه هذا الكتاب، وهي القصص التي جرت مع الرسول ﷺ وأصحابه، والصواب من القول أن هذا النوع من القصص لا يدخل في القصص الذي هدفت إلى التأليف فيه، فإن مرادي بقصص الحديث، القصص التي تستفاد من أحاديث الرسول ﷺ القولية، وهو ما حدَّث به عن الأمم الغابرة، ولعلي أتناول النوع الآخر من قصص الحديث النبوي في مؤلف مستقل .

سيجد القارىء الكريم في هذه القصص عدداً ليس بالقليل من قصص الأنبياء والمرسلين، وإنما أوردتها في هذا الكتاب مع أن القرآن الكريم تناول قصص الأنبياء وأخبارهم مع أقوامهم بتوسع وتفصيل، لأن بعض هذا النوع من القصص لم يرد في القرآن مطلقاً كقصة يوشع، وقصة النبي الذي أحرق قرية النمل، وبعضه

ورد في القرآن، وجاءت الأحاديث شارحة وموضحة ومفصلة لما جاء في القرآن، كما هو الحال بالنسبة لقصة موسى مع الخضر المذكورة في سورة الكهف .

ولما كان بعض قصص الأنبياء المذكورة في الأحاديث التي أوردتها مذكورة في التوراة، فقد أوردت ما ذكر منها في التوراة، لا بقصد الاستفادة منها، ففي القرآن والحديث غنية عن ذلك، وإنما بقصد تصويب التحريف والتغيير الذي أصاب القصص النبوي في التوراة، ومن ينظر إلى أخبار التوراة وتعاليمها بهذه الطريقة التي اتبعتها يظهر له أن أحد مقاصد القصص في الحديث النبوي، تصويب ما وقع في التوراة من تحريف وتبديل .

لقد أخطأ الذين رجعوا للتوراة ليأخذوا منها العلم، وزاحموا بما أخذوه منها العلم الذي جاء به القرآن والحديث، وأصبحنا بحاجة إلى أن ننقي كتبنا التي دونها جمع من أهل العلم قديماً من الإسرائيليات، ونحن لسنا بحاجة إلى علوم بني إسرائيل، فديننا كامل لا يحتاج إلى شرائع السابقين، وكان الواجب أن نجعل ما جاءنا به قرآننا وأحاديث رسولنا حاكمة ومصححة ومقومة لما في كتب اليهود والنصارى، وقد صرح القرآن بهذا المقصد في قوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل : ٧٦].

آمل أن يكون هذا العمل الذي قدمته في هذا المؤلف نافعاً لعباد الله، وأن يسدَّ فراغاً في المكتبة الإسلامية، فيستغنى به عن القصص المكذوب والموضوع الذي يلجأ إليه الناس، ويدل بعض أهل العلم عليه، وأسأله تعالى أن يرزقني النية الخالصة فيه، وأن يأجرني فيه بمنه وكرمه ورحمته، وأن يوفق القراء الكرام لدعوة صالحة لكاتبه . والحمد لله رب العالمين .

د. عمر سليمان عبدالله الأشقر
كلية الشريعة . الجامعة الأردنية
عمان

المقدمة

تعريف القصص

وبيان أهمية القصص عامة

والقصص القرآني والحديثي خاصة

مُقَـدِمَة

سأتناول في هذه المقدمة تعريف القصص، ثم أبين أهميـة القصـص، وبخاصـة القصص القرآني وقصص الحديث النبوي .

تعريف القصص:

القصص بكسر القاف جمع، واحده قصــة، والقصـة في لغـة العرب الأخبـار المروية، والأنباء المحكية، وقد سمى القرآن ما حدثنا به مـن أنبـاء الغـابرين قصصـاً، ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه :٩٩]، ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠]، ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هـود:١٢٠] ، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، وسمى الله إخبار موسى والد الفتاتين اللتين سقا لهما بمـا كان من أخباره بالقصص ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ [القصص :٢٥] .

وأصل القصص عند العرب تتبع الأثر، فـالعليم بالآثـار يسير وراء مـن يريـد معرفة خبره، ويتتبع أثره، حتى ينتهي إلى موضعه الـذي حـلّ فيـه. سميـت حكايـة الأخبار قصصاً لأن القـاص يتتبـع أحـداث القصـة كمـا وقعـت، ويتتبـع ألفاظهـا ومعانيها، ولذا لا يكون المرء قاصاً حقاً إلا إذا جاء بأحداث ما يرويه على وجهـه الذي وقع عليه، وقد سمى القرآن تتبع الأثر قصصاً في قوله تعالى: ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [سورة الكهف :٦٤] والمتحدث عنهما في الآية موسى وفتاه، عندما علما بمجاوزتهما المكان الذي حدده الله لهما لمقابلة العبـد الصـالح، فرجعـا يتتبعان آثارهما، ليعودا من الطريق نفسه الذي قدما منه ليصلا إليه .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصـص :١١]، والآمـرة هنـا أم موسى عليه السلام، أمرت أخته أن تتبع أثر أخيها موسى بعـد أن قذفتـه في التـابوت في النهر .

ومنه سمي قتل القاتل قصاصاً، لأن أولياء القتيل يتتبعون فعل القاتل، فيفعلون به مثل ما فعل بصاحبهم.[1]

والعرب تجعل حكاية كل خبر قصة، إلا أن المتأمل فيما تعارف عليه أهل العلم والأدب أن القصة لون خاص من الأخبار ذو طبيعة خاصة، وعلى ذلك فكل قصة خبر، وليس كل خبر قصة، فما حدثنا الله به عن خلق السموات والأرض وخلق الملائكة والجن أخبار، ولكنها ليست بقصص، وما حدثنا به عن أسماء رسله وأنبيائه وأسماء آبائهم أخبار، وليست بقصص، أما أخبار الرسل مع أقوامهم، والصراع بين الأخيار والفجار فهو قصص كما أنه أخبار.

وتعرف القصة بأنها « فن حكاية الحوادث والأعمال بأسلوب لغوي ينتهي إلى غرض مقصود.

والقصة فن أدبي قديم صاحب الأمم من عهد البداوة وإلى عهد ذروة الحضارة، ومكانتها ممتازة بين الفنون الأدبية لمرونته، واتساعه للأغراض المختلفة، ولجمال أسلوبه، وخفته على النفوس، وقد بلغ به القرآن ذروة السمو والكمال»[2].

أسلوب القصة:

استخلص الباحثون في مجال القصة الأسلوب الذي يميز القصة عما سواها من الألوان الأدبية، وقد حدد بعض الباحثين هذه الخصائص في النقاط التالية:

١ ـ الصفة العامة لخطة الرواية، هي الاطراد والتسلسل بحيث يشعر القارىء أنه مسوق دائما إلى غاية، فهو في ترقب وشوق إلى النهاية.

٢ـ تكون القصة منسقة تنسيقاً منطقيا وتوجز، وتحذف منها التفاصيل التافهة.

---

(١) راجع في المعنى اللغوي للقصص: المفردات في غريب القرآن: ص ٤٠٤. النهاية لابن الأثير: ٧٠/٤. لسان العرب: ١٠٦/٣ الكليات: ص٧٣٤.

(٢) معجم علوم اللغة العربية. د. محمد سليمان الأشقر: ص ٣٢٠.

٣ ـ تكون القصة ذات مغزى رئيس يفهم من السياق بطريق غير مباشر .

٤ـ يجب أن تكون العبارات سهلة واضحة، لأن القارىء معني بمجرى حوادث القصة .

٥ـ تنوع العبارة بين الرقة والقوة حسب المواقف والشخصيات .

٦ ـ تنوع الأسلوب بين القصص والوصف والحوار .

٧ـ من مظاهر الأسلوب القصصي المبالغة أحياناً للتنبيه إلى النقاط الهامة، وكذلك المفاجآت، والرمز، ليفتح المجال للخيال .

٨ ـ قد يدخل الحب كعنصر ثانوي في القصص لقوته، ولأنه عاطفة مشتركة بين البشر . (١)

أهمية القصص:

القصص لون من ألوان الأدب، يقبل الناس عليه ما لا يقبلون على غيره، فهو حبيب إلى نفوسهم، أثير عندهم، تهواه النفوس وتطرب له القلوب، وتصغي إليه الأسماع .

ولأهميته فقد تعددت أنواعه في هذا العصر، فمنه الرواية، وهي القصة الطويلة الكثيرة الأشخاص المتشابكة المواقف والحوادث، ومنه القصة القصيرة، وتسمى الأقصوصة، ومنه القصص الخيالية، والقصص الواقعية، والقصص الرمزية، ومن القصص الخيالي القصص الحيواني، الذي يجعل المؤلف أبطال قصته حيوانات تتكلم وتفكر، وتدبر، وتنطق بالحكمة .

وقد كثر في أيامنا كتابة القصص، وحولت كثير منها إلى مسرحيات وأفلام، تمثل القصة كما وقعت أو كما تخيلها صاحبها، وأصبحت تعرض في قاعات السينما وعلى شاشات التلفاز، وهذه الروايات الممثلة تحمل عقائد كاتبيها

---

(١) معجم علوم اللغة: د. محمد سليمان عبدالله الأشقر: ص٣٢٠.

وأفكارهم وأخلاقهم وقيمهم، وتحرص كثير من الدول على بث ثقافتها وقيمها من خلال هذه الروايات عبر الأفلام المختلفة وعبر الكتب والمجلات، لأسر عقول البشر وقلوبهم، ليصبحوا تبعاً لها، دائرين في فلكها .

أهمية القصص القرآني والحديثي:

وأحسن القصص، القصص القرآني المنزل من العليم الخبير ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣]، ويأتي قصص الحديث النبوي في المرتبة التالية للقرآن .

لقد اعتاد كثير من الناس أن يقرؤوا القصة للمتعة والتسلية، لأنه استقر عندهم أن أكثر القصص لا يمثل الحقيقة، وإنما هو تأليف وتلفيق، يدلك على هذا أن كثيراً من القصص يستحيل وقوعها، فهي قصة متخيلة الوقائع والأحداث، وكثير من القصص الشعبية المروية عن الأوائل وخاصة الفرس والروم هي من هذا النوع، وكانت تدعى بالأسطورة، ومنها قصص ألف ليلة وليلة، ومن هذا القصص عند العرب قصة عنترة، وقصة أبي زيد الهلالي، وهذا النوع لا يزال له وجود قوي في أيامنا، وقد ابتكر الكتاب اليوم نوعاً يسمى بالخيال العلمي، يتخيل الكاتب فيه ما يمكن أن يصل إليه البشر مستقبلاً، ويصور حال الناس في ذلك الوقت.

إن القصص في القرآن وصحيح الحديث صدق كله، وحق كله، فهو يحكي أخباراً وقعت، ليس فيها نقص ولا زيادة، ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ [الكهف : ١٣]. ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ [آل عمران :٦٢]. ولا يكون القصص حقاً إلا إذا قصه القاص كما وقع من غير تزيد فيه، والله تبارك وتعالى منزه عن الكذب، فلا يمكن أن يقص قصصا لم يقع ولم يحدث، والله تعالى عليم سميع بصير، شاهد حاضر، ولذا فإنه عندما يقص علينا يقص بعلم المشاهد الحاضر ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ . [الأعراف :٧].

ومتى أيقن العباد أن ما يتلى عليهم من قصص القرآن وما بلغهم من حديث الرسول ﷺ كله حق وصدق، فإنه سيكون له أثر عظيم في تقويم نفوسهم،

وتهذيب طباعهم، وأخذهم العبر والعظات من هذه القصص.

وقد أمر الله رسوله ﷺ بأن يقص على الناس ما يعلمه من القصص، لعل الناس يتفكرون في أحوال الغابرين، ويقيسون أنفسهم بهم، فيأخذوا العبرة لأنفسهم، فيبتعدوا عن مسارهم إن كانوا ظالمين، ويتأسوا بهم إن كانوا صالحين ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٦]. ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ [يوسف:١١١].

لقد كان الرسل والدعاة يأخذون العظة من قصص السابقين، وقد كان قصص القرآن وقصص الحديث النبوي ولا تزال زاداً تروي النفوس، وتثبت القلوب، كما قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود:١٢٠]. إن الحياة الإنسانية فوق ظهر هذه الأرض متشابهة في استقامتها وانحرافها، والنماذج البشرية المنحرف منها والمستقيم نماذج مكرورة، ولذا فإن القرآن الكريم والحديث النبوي يحدثنا كل منهما أحاديث نجد فيها أنفسنا، أو نجد فيها رجالاً من حولنا، فكأنما النصوص وهي تروي قصة فلان تحدثنا عما نعانيه من البلاء، أو ننعم به من الرخاء، أو كأنما هي تحدثنا عن الحاكم العادل الذي يعيش بيننا، أو الجبار الطاغية الذي يصول ويجول مفسداً في الأرض، وقد تحدثنا عن نماذج إنسانية عادية، فقد يكون المتحدث عنه مزارعا صالحا، أو تاجراً أميناً صادقاً، أو إنساناً رحيماً، وقد نرى هذا النموذج في فلاح نعرفه، أو تاجر نعامله، أو رجل أصابنا نفحات من رحمته.

إن القصص القرآنية والحديثية تمثل الصورة الواقعية والعملية التي ترسم التعاليم القرآنية في مشاهد نابضة بالحياة، وكثير من الناس يرون الحق من خلال الواقع العملي أكثر مما يعرفونه من خلال التعاليم المجردة، ولذا فإن المستقيم من البشر قد يؤثر مسلكه في الناس أكثر مما تؤثر أقواله فيهم.

القسم الأول

قصص الأنبياء والمرسلين

القصة الأولى

جحود آدم ونسيانه

تمهيد

يبحث علماء الآثار في هذا العصر في الديار البائدة، وبقايا الأمم الغابرة، ليتعرفوا منها على حياة الآباء والأجداد، ويعرفوا أخبارهم وأحوالهم، وعلى الرغم من قلة ما وصلوا إليه من علم، فإنه علم مشوب، لا يجلي الحقيقة، ولا يزيل الغبش الذي علق بها، ولا يستطيع أن يضرب بصدق في أعماق الماضي السحيق، أما الوحي الإلهي الذي يأتي بأخبار الماضين فإنه كنز لا يقدر بثمن، لأنه يعرف بالحقيقة صافية ناصعة، فهو علم منزل من العليم الخبير، الذي لا يخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض .

وبعض هذا العلم لا يمكن الوصول إليه من غير طريق الوحي، ومن ذلك ما حدثنا به الرسول ﷺ عنه في هذا الحديث، فقد أخبرنا بطرف من أخبار أبينا آدم عليه السلام، وشيء من طباعه وخصائصه التي ورثناها منه، كما أخبرنا ببعض الشرائع التي شرعها له ولذريته من بعده .

نص الحديث

روى الترمذي في سننه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَؤُلاءِ ؟ قَالَ: هَؤُلاءِ ذُرِّيَّتُكَ.

فَرَأَى رَجُلاً مِنْهُمْ، فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا ؟

فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ، فَقَالَ: رَبِّ، كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَيْ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ ؟ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِّيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ) .

قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ .

وروى الترمذي أيضا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ، وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَحَمِدَ اللَّهَ بِإِذْنِهِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا آدَمُ، اذْهَبْ إِلَى أُولَئِكَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَى مَلَأٍ مِنْهُمْ جُلُوسٍ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، قَالُوا: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ بَنِيكَ بَيْنَهُمْ.

فَقَالَ اللَّهُ لَهُ وَيَدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ: اخْتَرْ أَيَّهُمَا شِئْتَ، قَالَ: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي، وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ، ثُمَّ بَسَطَهَا، فَإِذَا فِيهَا آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَا هَؤُلَاءِ ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَإِذَا كُلُّ إِنْسَانٍ مَكْتُوبٌ عُمْرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَإِذَا فِيهِمْ رَجُلٌ أَضْوَؤُهُمْ، أَوْ مِنْ أَضْوَئِهِمْ، قَالَ يَا رَبِّ، مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا ابْنُكَ دَاوُدُ، قَدْ كَتَبْتُ لَهُ عُمْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً. قَالَ يَا رَبِّ، زِدْهُ فِي عُمْرِهِ، قَالَ: ذَاكَ الَّذِي كَتَبْتُ لَهُ، قَالَ: أَيْ رَبِّ، فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُ لَهُ مِنْ عُمْرِي سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ.

قَالَ: ثُمَّ أُسْكِنَ الْجَنَّةَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أُهْبِطَ مِنْهَا، فَكَانَ آدَمُ يَعُدُّ لِنَفْسِهِ. قَالَ: فَأَتَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: قَدْ عَجَّلْتَ، قَدْ كُتِبَ لِي أَلْفُ سَنَةٍ، قَالَ: بَلَى، وَلَكِنَّكَ جَعَلْتَ لِابْنِكَ دَاوُدَ سِتِّينَ سَنَةً، فَجَحَدَ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، قَالَ: فَمِنْ يَوْمِئِذٍ أُمِرَ بِالْكِتَابِ وَالشُّهُودِ).

قَالَ الترمذي « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ

وَجْهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، مِنْ رِوَايَةِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ».

تخريج الحديث

رواه الترمذي في سننه، في كتاب التفسير، باب من سورة الأعراف . ٢٦٧/٤ . وانظره في صحيح سنن الترمذي: ٥٢/٣. ورقمه: ٣٢٨٢.

والحديث الثاني رواه الترمذي في كتاب التفسير أيضا، باب من سورة المعوذتين، ٤٥٣/٤. وانظره في صحيح سنن الترمذي: ١٣٧/٣ . ورقمه: ٣٦٠٧.

غريب الحديث

نسمة: النسمة: النفس، وكل دابة فيها روح فيه نسمة .

وبيصا: الوبيص: البريق، والبصيص .

شرح الحديث

خلق الله آدم خلقا سويا كاملاً، لا كما يزعم من لا علم عنده أن الإنسان تطور من الحيوان أو النبات، لقد خلقه الله من اللحظة الأولى عاقلاً متكلماً، يفقه ما يقال له، ويجيب بالقول المناسب .

فبعد أن نفخ فيه الروح عطس، فحمد الله عز وجل، فقال الله له: رحمك الله يا آدم، وطلب منه أن يذهب إلى جمع من الملائكة جلوس فيسلم عليهم، فردوا عليه تحيته بأحسن منها، وأخبره ربه أن هذه التحية هي تحيته، وتحية ذريته فيما بينهم، لقد كان يمشي، ويسمع، ويتكلم، ويعطس، ويعقل، ويفقه الخطاب .

وتلحظ في الحديث عظم رعاية الله لعبده آدم، فقد قال له لما عطس فحمد الله: رحمك الله يا آدم، ومَنْ رَحِمَهُ ربّه نال رعايته وحفظه وتكريمه، ولذا فإن الله يقبل توبته إذا انحرف المسار به، ثمَّ آب إليه، وهو يتجاوز ـ جل وعلا ـ عن تقصيرنا، ويرزقنا قوة اليقين والإيمان، ويدفع عنا عدونا، ويمدنا بروح منه .

وقد شرع الله لآدم وذريته وهو في الجنّة أن يحمد الله إذا عطس، وأن يُشَمَّتْ إذا حمد الله، وأن يكون السلام هو تحية أولاده وذريته فيما بينهم .

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن ربنا مسح ظهر آدم، فسقط من ذريته كل نسمة ستخلق منه إلى أن تقوم الساعة، وقبض الرب ذلك بيمينه، وخير آدم بين قبضتي يديه، فاختار يمين ربه، وكلتا يديه تبارك وتعالى يمين مباركة، فلما بسطها، فإذا فيها آدم وذريته .

رأى آدم ذريته الذين سيخلقون من بعده، وقد جعل الله بين عيني كل واحد منهم نوراً، كما رأى عمر كل واحد منهم مكتوبا بين عينيه، ورأى رجلا له نور حسن، فسأل عنه، فأخبره أنه أحد أبنائه سيكون في أمة من أواخر الأمم اسمه داود، وأن عمره ستون سنة، وفي الرواية الأخرى أربعون، والأولى أصح، واستقل آدم عمر داود، وطلب من ربه أن يزيد في عمره، فأخبره أن ذاك هو العمر الذي كتب له، فوهبه آدم من عمره ما يكمل به المائة.

ويظهر من الحديث أن الله أعلم آدم بعمره المكتوب له، وأنه سيعيش ألف عام، فلما مضى من عمره ألف سنة إلا أربعين عاماً جاءه ملك الموت ينزع روحه، فاعترض على ملك الموت، واستنكر عليه أن يقبض روحه قبل أن يستكمل أجله، ويبدو من الحديث أن آدم كان يحسب لنفسه، ويعد سنوات عمره، فذكّره ملك الموت بما كان من هبته لابنه داود ما بقي له من سنوات عمره، فجحد آدم، وكان جحوده نسياناً، وورث أبناء آدم صفات أبيهم، فجحدوا كما جحد، ونسوا كما نسي، ولذا أمر الله بالكتابة والشهود، ليواجه بهما جحود الجاحدين ونسيان الناسين .

عبر الحديث وفوائده

١- خلق الله آدم خلقا سويّاً كاملاً منذ بداية خلقه، لا كما يقول الضالون من البشر بأنه خلق ناقصا، ثمَّ تطور نحو الكمال على مدى دهور طويلة، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن من كمال خلق آدم أن طوله كان ستين ذراعاً في السماء، وأن الخلق من بعد آدم لم يزالوا في نقصان حتى استقر خلقهم على ما هو عليه اليوم، وفي يوم القيامة يدخل الله المؤمنين الجنة على الصورة الكاملة التي خلق الله آدم عليها .

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما أن رسول الله ﷺ قال: (خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ، وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، ثُمَّ قَالَ اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ فإنها تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ)(١).

ويدل لصحة ما ذكرته من أن آدم خلق مكتملا منذ لحظة نفخ الروح فيه، ما ورد في الحديث السابق (أن الله خلق آدم على صورته) أي صورته التي خلقه الله عليها، فلم يتطور و لم يرتق من صورة إلى صورة، ومن خلق إلى خلق، بخلاف ذريته، فإن الله يخلقهم في أرحام الأمهات نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم ينشئهم بعد نفخ الروح خلقاً آخر .

٢- العلم بأحداث جرت مع أبينا آدم، منها عطاسه، وقوله الحمد لله، وقول الله له: رحمك الله، ومنها تسليمه على الملائكة، وردهم عليه، ومسح ظهره ... إلى آخره ما تضمنه هذا الحديث من علوم .

٣- حمد العاطس وتشميته، وتحية السلام من الشرائع العالمية التي تشترك فيها

---

(١) رواه البخاري: ٣/١١ . ورقمه: ٦٢٧٧ . ٦/٣٣٢ . ورقمه: ٣٣٢٦ . ورواه مسلم: ٤/٢١٨٣ . ورقمه: ٢٨٤١ .

الشرائع كلها، ولا تختص بأمة دون أمة، وهي من ميراث أبيهم آدم عليه السلام .

٤- إثبات القدر، فالله علم في الأزل أعمار العباد، وكتب ذلك عنده، وأرى آدم عليه السلام ذريته من بعده، وقد كتب عمر كل إنسان بين عينيه .

٥- إثبات اليدين لله، وهو يقبضهما متى شاء كيف شاء، من غير تكييف ولا تعطيل، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير .

٦- فضل نبي الله داود، وعظم إيمانه الدال عليه قوة نوره الذي بين عينيه.

٧- قدرة آدم على العد والحساب، فقد حسب سني عمره، وعلم مقدار ما مضى منها، وما بقي منها، وخاصم ملك الموت عندما أراد قبض روحه قبل استكمال أجله .

٨- بيان مقدار عمر آدم عليه السلام، وأنه عاش ألف عام، وفي ذلك تصويب لما ورد في التوراة، فقد ذكر فيها في الإصحاح الخامس من سفر التكوين أن عمره تسعمائة وثلاثون سنة، والصواب ما ذكره الحديث، وفي الحديث بيان عمر داود عليه السلام .

٩- من طبيعة آدم وبنيه الجحود والنسيان .

١٠ - مشروعية الكتابة في العقود والمعاملات لمواجهة جحود الإنسان ونسيانه.

القصة الثانية

قصة موت نبي الله آدم - عليه السلام

تمهيد

هذه القصة تخبرنا عن اللحظات الأخيرة في حياة أبينا آدم عليه السلام، وما كان من أمره في سكرات الموت، وتولي الملائكة تكفينه وتغسيله، وتحنيطه، وحفرهم قبره، وصلاتهم عليه، وإدخاله قبره، وحثوهم التراب عليه، فعلوا ذلك تعليما لبنيه من بعده، كيف تكون سنتهم في موتاهم .

نص الحديث

عَنْ عُتَيٍّ[1] قَالَ رَأَيْتُ شَيْخًا بِالْمَدِينَةِ يَتَكَلَّمُ فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقَالُوا: هَذَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، فَقَالَ: (إِنَّ آدَمَ عليه السلام، لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، قَالَ لِبَنِيهِ: أَيْ بَنِيَّ، إِنِّي أَشْتَهِي مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، فَذَهَبُوا يَطْلُبُونَ لَهُ فَاسْتَقْبَلَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَمَعَهُمْ أَكْفَانُهُ وَحَنُوطُهُ، وَمَعَهُمُ الْفُؤُوسُ وَالْمَسَاحِي، وَالْمَكَاتِلُ.

فَقَالُوا لَهُمْ: يَا بَنِي آدَمَ مَا تُرِيدُونَ وَمَا تَطْلُبُونَ؟ أَوْ مَا تُرِيدُونَ؟ وَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟ قَالُوا: أَبُونَا مَرِيضٌ، فَاشْتَهَى مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، قَالُوا لَهُمُ ارْجِعُوا فَقَدْ قُضِيَ قَضَاءُ أَبِيكُمْ.

فَجَاءُوا فَلَمَّا رَأَتْهُمْ حَوَّاءُ عَرَفَتْهُمْ، فَلَاذَتْ بِآدَمَ، فَقَالَ: إِلَيْكِ إِلَيْكِ عَنِّي، فَإِنِّي إِنَّمَا أُوتِيتُ مِنْ قِبَلِكِ، خَلِّي بَيْنِي وَبَيْنَ مَلَائِكَةِ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَقَبَضُوهُ، وَغَسَّلُوهُ، وَكَفَّنُوهُ، وَحَنَّطُوهُ، وَحَفَرُوا لَهُ، وَأَلْحَدُوا لَهُ، وَصَلَّوْا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلُوا

(١) هو ابن ضمرة السعدي .

قَبْرَهُ، فَوَضَعُوهُ فِي قَبْرِهِ، وَوَضَعُوا عَلَيْهِ اللَّبِنَ، ثُمَّ خَرَجُوا مِنَ الْقَبْرِ، ثُمَّ حَثَوْا عَلَيْهِ التُّرَابَ، ثُمَّ قَالُوا: يَا بَنِي آدَمَ هَذِهِ سُنَّتُكُمْ).

تخريج الحديث

روى هذا الحديث عبدالله بن الإمام أحمد في زوائد المسند: (١٣٦/٥) .

قال ابن كثير بعد سياقه للحديث: « إسناد صحيح إليه » . أي إلى أبي بن كعب، البداية والنهاية: ٩٨/١ .

وقال الهيثمي فيه: « رواه عبدالله بن أحمد، ورجاله رجال الصحيح، غير عتي بن ضمرة، وهو ثقة » مجمع الزوائد: (١٩٩/٨) .

وهذا الحديث وإن كان موقوفا على أبي بن كعب، فإن له حكم المرفوع، فإنه مما لا يقال بالرأي .

شرح الحديث

يقص علينا هذا الحديث خبر أبينا آدم عليه السلام عندما حضرته الوفاة، اشتهى من ثمار الجنة، وهذا يدل على مدى حب آدم للجنة، وشوقه للعودة إليها، وما له لا يشتاق إليها وهو قد عاش فيها، ورأى نعيمها، واستمتع به فترة من الزمن.

ولعله إذا اشتهى ذلك منها قد أحس بدنو أجله، وقد دلت بعض الأحاديث أنه كان يعلم عدد سنوات عمره، وكان يحسب ما مضى منها، فيبدو أنه علم أن سنوات عمره قد انقضت، وأن انتقاله إلى الدار الآخرة قد اقترب، ولا شك أن آدم عليه السلام كان يعلم أن بنيه لا طاقة لهم بتلبية طلبه، فأنى لهم الوصول إلى الجنة، وقطف ثمارها، وهم كانوا يعلمون ذلك، ولكن برهم بأبيهم جعلهم ينطلقون للبحث عن مراده .

وما كادوا يبتعدون عن مقام أبيهم حتى قابلهم جمع من الملائكة متمثلين في صورة رجال، ومعهم كل ما يحتاج إليه لتجهيز الميت ودفنه، وهم يمثلون ما عليه المسلمون اليوم عندما يموت لهم ميت، فقد كانوا يحملون معهم أكفانا وحنوطا، ويحملون معهم الفؤوس والمساحي والمكاتل اللازمة لحفر القبر .

ولما أخبرهم أبناء آدم بمقصدهم وطلبهم، طلبوا منهم العودة إلى أبيهم، فإن أباهم قضى عمره، وانتهى أجله .

ولما جاءت ملائكة الموت آدم عرفتهم حواء، فلاذت بآدم، ويبدو أنها كانت تريد إغراءه بأن يختار الدنيا، فالرسل لا يقبضون حتى يخيروا، كما أعلمنا رسولنا ﷺ، فلم يلتفت إليها آدم عليه السلام، وزجرها قائلا لها: إليك عني، فإني إنما أتيت من قبلك، وهو يشير بذلك إلى ما كان منها في إغوائه ليأكل من الشجرة .

قبض الملائكة روح آدم عليه السلام، وتولوا تجهيزه، ودفنه، وأبناؤه ينظرون، فقد غسلوه، وكفنوه، وحنطوه، وحفروا له قبره، وألحدوا له فيه لحدا، وصلوا عليه، ودخلوا في قبره، ووضعوه فيه، ووضعوا عليه اللبن، ثم خرجوا من القبر، وحثوا عليه التراب، وقالوا لأبنائه معلمين لهم: يا بني آدم هذه سنتكم، أي طريقتكم التي اختارها الله لكم في موتاكم.

وبذلك تكون هذه الطريقة شريعة عامة لكل الرسل ولجميع المؤمنين في الأرض على مدار العصور والأزمان، وكل طريقة تخالفها فهي مخافة لهدي الله بمقدار ما فيها من المخالفة .

ومن يعرف هدي المسلمين في موتاهم الذي علمهم إياه رسولهم ﷺ يجده موافقا لما فعلته الملائكة بآدم عليه السلام .

وقد خالف هذا الهدي كثير من البشر على مدار التاريخ، فمنهم الذين يحرقون موتاهم، ومنهم الذين يبنون لهم البنايات الفخمة كالأهرامات ويدفنونهم فيها، بعد أن يضعوا عندهم الطعام والشراب والحلي والجواهر، ومنهم الذين

يضعونهم في توابيت من الحجر أو الخشب، وكل ذلك يكلف تكاليف باهظة الثمن، ويضيع جهودهم في غير موضعها، وهو قبل ذلك وبعده مخالف للهدي الذي شرعه ﷻ للموتى من بني آدم .

عبر الحديث وفوائده

١ ـ مشروعية تجهيز الميت ودفنه على النحو المذكور في الحديث .

٢ ـ هذه السنة في الميت هي هدي الرسل جميعا في كل شرائعهم .

٣ ـ تعليم الملائكة أبناء آدم عليه السلام عمليا وقوليا لهذه السنة .

٤ ـ كل طريقة غير الطريقة المذكورة في الحديث هي انحراف عن منهج ﷻ وهديه.

٥ ـ فضل أبينا آدم عليه السلام حيث تولت الملائكة تجهيزه، والصلاة عليه، ودفنه .

٦ ـ قدرة الملائكة على التمثل في صورة البشر، وقيامهم بالأعمال التي يعمل البشر فيها .

٧ ـ وجود بعض الآلات منذ فجر البشرية، كالفؤوس والمساحي والمكاتل .

٨ ـ على الرجل أن يحذر من زوجته من أن تحرف مساره، فقد أكل آدم من الشجرة بمشورة حواء، وقد حذرنا ﷻ من بعض أزواجنا وأولادنا ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن:١٤].

القصة الثالثة

نبي الله صالح - عليه السلام -

تمهيد

مر الرسول ﷺ بديار ثمود الذين أهلكهم الله عندما عقروا الناقة، فوقف الرسول ﷺ بأصحابه عند البئر الذي كانت ترده الناقة، وحدثهم حديث العالم الخبير بذلك المكان، فمن هناك كانت تأتي الناقة، وترجع من ذلك الفج، وحذرهم رسولهم ﷺ أن يفعلوا فعل قوم صالح، فقد طلبوا آية، فأخرج الله لهم الناقة آية عظيمة، فكذبوا بها وعقروها، فدمرهم الله، وأنزل بهم بأسه وعذابه.

نص الحديث

روى الإمام أحمد في مسنده عَنْ جَابِر، قَالَ: لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْحِجْرِ قَالَ: (لا تَسْأَلُوا الآيَاتِ، وَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ، فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَعَقَرُوهَا، فَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا، وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا، فَعَقَرُوهَا فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهْمَدَ اللهُ عز وجل مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ، إلا رَجُلا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللهِ عز وجل، قِيلَ: مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: هُوَ أَبُو رِغَالٍ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ).

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده: (٢٩٦/٣) . وقال فيه ابن كثير بعد سياقه له: « هذا الحديث على شرط مسلم، وليس هو في شيء من الكتب الستة » البداية والنهاية: (١٣٧/١) .

وقال الهيثمي: « رواه البزار والطبراني في الأوسط، ويأتي لفظه في سورة هود، وأحمد بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح » مجمع الزوائد: (١٩٤/٦) .

شرح الحديث

قص علينا ـ ربنا تبارك وتعالى ـ قصة نبي الله صالح عليه السلام مع قومه ثمود، وهي قصة مفصلة أحداثها مبينة وقائعها، وليس لهذه القصة وجود في التوراة، ولا يعرف أهل الكتاب خبر ثمود قوم صالح ولا خبر عاد قوم هود، مع أن القرآن أخبرنا أن موسى ذكر هاتين الأمتين لقومه ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ، أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ ﴾ [إبراهيم: ٨- ٩].

وقال مؤمن آل فرعون لقومه: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [غافر: ٣٠-٣١].

وقد أخبرتنا كتب السنة أن الرسول ﷺ مر بديار ثمود المسماة بالحجر في مسيره إلى غزوة تبوك، فنزل بالناس في ديارهم، واستقى أصحابه من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها، ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله ﷺ، فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا إلا باكين،

معللا نهيه بقوله: (إني أخشى أن يصيبكم ما أصابهم)[1] .

وعندما يكون الناس في مكان وقع فيه حدث كبير في عصرهم أو قبل عصرهم يكونون مشدودين إلى ذلك الحدث، وإذا كان المسلم داعية إلى الله، فإنه يستطيع أن يهتبل الفرصة، ويذكر الناس بما كان من الغابرين، ويحذرهم أن يفعلوا فعلهم، ويسيروا مسارهم.

وهذا ما فعله الرسول ﷺ، فقد عرَّف أصحابه ببعض ما عرَّفه الله به، فأشار إلى الطريق الذي كانت ترد منه الناقة البئر، والطريق الذي كانت تصدر عنه، وأخبرهم أن الناقة كانت تقاسم قوم صالح الماء، فتشرب ماء البئر في اليوم التي ترد فيه، وفي اليوم التالي لم تكن تذوق من الماء شيئا، ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٥] ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ [القمر: ٢٨] .

ومن عجيب أمرها الذي حدث الرسول ﷺ به أن قوم صالح كانوا يأخذون من لبنها بمقدار ما شاؤوا، فيستعيضون عن الماء الذي كانوا يستقونه في يوم شربها بمقداره من لبنها من غير كد ولا عناء.

وعلى الرغم من استفادة ثمود من الناقة هذه الاستفادة العظيمة إلا أنهم ضاقوا بها ذرعا، وكرهوا وجودها بينهم فعقروها.

وقد أخبر القرآن أن قاتل الناقة هو أشقى ثمود، ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا، فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس:١٢ - ١٣]، وقد وصف لنا رسولنا ﷺ عاقر الناقة في أحد أحاديثه بأنه أحمر، فقد قال الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب وعمار، (ألا أحدثكما بأشقى رجلين ؟) قلنا: بلى يا رسول الله . قال: (أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه يعني

(١) راجع الأحاديث في هذا الموضوع في صحيح البخاري: ٣٧٨/٦ وأرقامها: ٣٣٧٨ ــ ٣٣٨١. صحيح مسلم: ٢٢٨٦/٤ .ورقمه ٢٩٨١ .

قرنه، حتى يبل منه هذه أي لحيته) [1] .

ووصفه في حديث آخر بأنه كان سيدا في قومه، ففي الصحيحين: ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢]، انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة . [2]

والعارم: الشرير المفسد الخبيث .

فلما عقروها وعدهم نبيهم العذاب بعد ثلاث، وقال لهم ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

وفي اليوم الثالث جاءهم العذاب، فقد أخذتهم الصيحة ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت /١٣]، وقال ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت /١٧] .

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن تلك الصيحة أهلكت كل من كان على الأرض من تلك القبيلة، لا فرق بين من كان في دياره، ومن كان مسافرا في ديار نائية، ولم يفلت منهم إلا رجل كان في الحرم، فمنعه الحرم من العذاب، وقد عرفنا الرسول ﷺ باسمه، فقد كان يدعى بأبي رغال، ولكنه ما كاد يغادر الحرم حتى أصابه ما أصاب قومه .

وقد حذر الرسول ﷺ أصحابه أن يسألوا الآيات كما سألها قوم صالح، خشية أن يكذبوا بها، فيهلكون كما هلك قوم صالح .

(١) رواه أحمد في مسنده: ٢٦٣/٤.
(٢) صحيح البخاري: ٣٧٨/٦ . ورقمه: ٣٣٧٧ . وانظر أطرافه في: ٤٩٤٢، ٥٢٠٤، ٦٠٤٢ ومسلم: ٢١٩١/٤ . ورقمه: ٢٨٥٥ .

عبر الحديث وفوائده

١ ـ التحذير من سؤال الآيات، فقد سألها الغابرون من رسلهم، فأعطوها فلم تؤمن أقوامهم، فأهلكوا بتكذيبهم.

٢ ـ التحذير من نقمة الله وغضبه وانتقامه، بتكذيب رسله وكتبه.

٣ ـ الناقة التي أعطاها الله لنبيه صالح كانت آية عظيمة، على خلقة جسيمة، وصورة باهرة، وهي ذات خصائص لا توجد في غيرها من الإبل.

٤ ـ مشروعية الوقوف في الديار التي جرت بها أحداث كبار، ليأخذ المسلم منها العظة والعبرة، كما فعل الرسول ﷺ في وقوفه عند البئر من أرض ثمود، وقد أمر الله في كتابه بالسير في الأرض والتفكر في مصارع الغابرين وأخذ العظة والعبرة من مصيرهم ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام /١١]. ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِين ﴾ [آل عمران /١٣٧].

٥ ـ دقة علم الرسول ﷺ، حيث حدد لأصحابه الطريق الذي كانت تسلكها الناقة في ورودها الحوض، والمكان الذي تسلكه في صدورها، ولا غرابة في دقة علم مَنْ علمه العليم الخبير.

٦ ـ الحرم يعصم من احتمى به، ومن ذلك منع الحرم أبي رغال من عذاب الله، فعندما خرج منه، نزل به العذاب الذي حل بقومه.

٧ـ عصمة الحرم لإبي رغال تدل أن هذه الحرمة كانت قبل إبراهيم عليه السلام، لأن نبي الله صالح وقومه ثمود كانوا قبل إبراهيم عليه السلام. فصالح من العرب من ذرية نوح، ويدل لحرمة مكة قبل إبراهيم قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم:٣٧].

القصة الرابعة

قصة هاجر وإسماعيل

تمهيد

هذه قصة طويلة، واضحة المعالم، مفصلة الأحداث، تحدثنا عن أبينا إسماعيل ابن خليل الله إبراهيم، وعن أمنا هاجر أم إسماعيل، والعرب جميعا من ذرية إسماعيل، ويقال: إن قلة من العرب تنتمي إلى أصول عربية قديمة من غير سلالة إسماعيل، وقد كانت أمنا هاجر مصرية، أهداها طاغية مصر إلى سارة في قصة سيأتي ذكرها .

ولما لم يرزق إبراهيم بأولاد من زوجته سارة، أهدته سارة أمتها هاجر لتكون زوجة له، لعل الله يرزقه منها بولد، فحملت هاجر من إبراهيم، وولدت له إسماعيل في الأرض المباركة فلسطين .

والرسول ﷺ يقص علينا قصة هاجر، وما كان بينها وبين سارة، وكيف أن الله أمر إبراهيم أن يرحل بهاجر وإسماعيل إلى أشرف بقعة في الأرض، وهي مكة، ويصف حال المكان الذي حلت فيه هاجر وابنها، ويحدثنا عن ترك إبراهيم لهما في ذلك المكان الخالي من الطعام والشراب والسكان، وما كان من هاجر بعد ذلك، وما جرى لها وابنها من وقائع، إلى أن بنى إبراهيم وإسماعيل البيت الحرام الذي أصبح أول بيت وضع للناس.

نص الحديث

روى البخاري في صحيحه: عن سعيد بن جبير قال: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ (أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ، عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: أَاللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ إِذَنْ لا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ.

فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ، حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لا يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاءِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: ﴿رَبنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾، حَتَّى بَلَغَ ﴿ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ، وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ، وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الْوَادِيَ تَنْظُرُ: هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ، حَتَّى جَاوَزَتِ الْوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ الْمَرْوَةَ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا، فنظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا .

فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ: صَهٍ، تُرِيدُ نَفْسَهَا، ثُمَّ

تَسَمَّعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أَوْ قَالَ: بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ، وَتَقُولُ: بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا، وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ، أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا.

قَالَ فَشَرِبَتْ، وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ: لا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ يَبْنِي هَذَا الْغُلامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ.

فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ، أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ، فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا، فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ، فَأَقْبَلُوا، قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، وَهِيَ تُحِبُّ الإِنْسَ فَنَزَلُوا، وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ، فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْغُلامُ، وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ، وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ.

وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ. قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلامَ، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ، كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي: كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ.

قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلامَ، وَيَقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الْحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى.

فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ، قَالَتِ: اللَّحْمُ. قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتِ: الْمَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ. قَالَ: فَهُمَا لا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إلا لَمْ يُوَافِقَاهُ. قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلامَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي: كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ.

قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ، قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ.

ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ، وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ. قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ. قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا.

قَالَ فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ، فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولانِ ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧].

قَالَ فَجَعَلا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولانِ ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وفي رواية أخرى في الصحيح: عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ(لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ، وَمَعَهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ، فَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ، فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَهْلِهِ، فَاتَّبَعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، حَتَّى لَمَّا بَلَغُوا كَدَاءً نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ: يَا إِبْرَاهِيمُ، إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا؟ قَالَ: إِلَى اللَّهِ. قَالَتْ: رَضِيتُ بِاللَّهِ.

قَالَ: فَرَجَعَتْ، فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ، وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، حَتَّى لَمَّا فَنِيَ الْمَاءُ، قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ، لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا. قَالَ: فَذَهَبَتْ، فَصَعِدَتِ الصَّفَا، فَنَظَرَتْ، وَنَظَرَتْ، هَلْ تُحِسُّ أَحَدًا؟ فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا، فَلَمَّا بَلَغَتِ الْوَادِيَ سَعَتْ، وَأَتَتِ الْمَرْوَةَ، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ أَشْوَاطًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ، فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ؟ تَعْنِي الصَّبِيَّ، فَذَهَبَتْ، فَنَظَرَتْ، فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالِهِ، كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ، فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُهَا، فَقَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ، لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا، فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا، فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ، فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا، حَتَّى أَتَمَّتْ سَبْعًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ، فَإِذَا هِيَ بِصَوْتٍ، فَقَالَتْ: أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ، فَإِذَا جِبْرِيلُ. قَالَ: فَقَالَ بِعَقِبِهِ هَكَذَا، وَغَمَزَ عَقِبَهُ عَلَى الأَرْضِ، قَالَ: فَانْبَثَقَ الْمَاءُ، فَدَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَعَلَتْ تَحْفِزُ.

قَالَ: فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: لَوْ تَرَكَتْهُ كَانَ الْمَاءُ ظَاهِرًا، قَالَ: فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ، وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا.

قَالَ: فَمَرَّ نَاسٌ مِنْ جُرْهُمَ بِبَطْنِ الْوَادِي، فَإِذَا هُمْ بِطَيْرٍ، كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَاكَ، وَقَالُوا: مَا يَكُونُ الطَّيْرُ إلا عَلَى مَاءٍ، فَبَعَثُوا رَسُولَهُمْ، فَنَظَرَ، فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَأَتَاهُمْ، فَأَخْبَرَهُمْ، فَأَتَوْا إِلَيْهَا، فَقَالُوا: يَا أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَكِ، أَوْ نَسْكُنَ مَعَكِ ؟ فَبَلَغَ ابْنُهَا، فَنَكَحَ فِيهِمُ امْرَأَةً.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي. قَالَ: فَجَاءَ فَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ؟ فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ. قَالَ: قُولِي لَهُ إِذَا جَاءَ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ، قَالَ. أَنْتِ ذَاكِ، فَاذْهَبِي إِلَى أَهْلِكِ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي. قَالَ: فَجَاءَ، فَقَالَ: أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ؟ فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ، فَقَالَتْ: أَلا تَنْزِلُ فَتَطْعَمَ، وَتَشْرَبَ؟ فَقَالَ: وَمَا طَعَامُكُمْ، وَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: طَعَامُنَا اللَّحْمُ، وَشَرَابُنَا الْمَاءُ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: بَرَكَةٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي، فَجَاءَ فَوَافَقَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ وَرَاءِ زَمْزَمَ يُصْلِحُ نَبْلا لَهُ، فَقَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ رَبَّكَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا، قَالَ: أَطِعْ رَبَّكَ، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ تُعِينَنِي عَلَيْهِ، قَالَ: إِذَنْ أَفْعَلَ، أَوْ كَمَا قَالَ.

قَالَ: فَقَامَا، فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَيَقُولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء، باب ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النساء: ١٢٥]. (٣٩٦/٦). ورقمه: ٣٣٦٤ وقد بين الحافظ ابن حجر طرقه وتخريجه في الفتح: ٣٩٩/٦.

وفي كلام ابن عباس في الحديث ما يدل على رفعه للرسول ﷺ، فإن لم يكن ابن عباس سمعه من الرسول ﷺ فيكون مرسل صحابي، ومراسيلهم حجة بلا خلاف.

غريب الحديث (1)

المنطق: هو ما تشد به المرأة وسطها عند عمل الأشغال لترفع ثوبها، وهو أيضا النطاق .

شنّة: الشنة: القربة البالية يكون فيها الماء .

دوحة: الدوحة: الشجرة العظيمة، وجمعها الدوح .

في أعلى المسجد: أي مكان المسجد، لأنه لم يكن قد بني في ذلك الوقت .

قفّى الرجل: إذا ولاك قفاه راجعا عنك .

الثنية: الطريق في العقبة، وقيل: هو المرتفع من الأرض فيها .

التلبّط: الاضطراب والتقلب ظهرا لبطن .

صَهْ : اسكت، وقوله: تريد (تعني نفسها) معناه: لما سمعت الصوت سكتت نفسها لتتحققه .

غواث: الغواث والغياث والغوث: المعونة، وإجابة المستغيث .

تحوّضه: أي: تجعل له حوضا يجتمع فيه الماء .

معينا: المعين: الماء الظاهر الجاري الذي لا يتعذر أخذه

الضيعة: الضياع والحاجة .

كداء: بالفتح والمد: الثنية من أعلى مكة مما يلي المقابر، وبالضم والقصر: من أسفلها مما يلي باب العمرة .

عائفا : العائف: المتردد حول الماء، الذي يحوم حوله .

الجريّ: الرسول والوكيل .

وأنْفَسَهُم: أي صار عندهم نفيسا مرغوبا فيه .

---

(1) انظر جامع الأصول: ١٠/٣٠٢.

تركته: التركة: بسكون الراء ولد الإنسان، وهو في الأصل بيضة النعام، هكذا قاله الزمخشري في « الفائق »، ولو روي بكسر الراء، لكان وجهاً والتركة: اسم للشيء المتروك .

يبتغي لنا: يطلب لنا الرزق ويسعى فيه .

آنس: شيئا: أي أبصر شيئا ، أراد: كأنه رأى أثر أبيه وبركة قدومه .

أكمة: الأكمة ما ارتفع من الأرض كالرابية .

النشغ: الشهيق، حتى يكاد يبلغ له الغشيّ، يقال: نشغ ينشغ نشغا ، وإنما يفعل الإنسان ذلك أسفا على صاحبه وشوقا إليه، وقيل: نشغ الصبي: إذا امتص بفيه.

انبثاق الماء: انفتاحه وجريه .

شرح الحديث

يحدثنا رسولنا ﷺ في هذا الحديث عن قصة أبينا إسماعيل عليه السلام، وأمه هاجر، اللذين سكنا الأرض المقدسة مكة، فهما أول من سكنها، وقد كان المكان الذي حلاّ فيه أقدس بقعة في الأرض كلها، ففيه البيت الحرام الذي يحج إليه المسلمون، وإليه يتجهون في صلاتهم، وفيه تنزل الوحي على إسماعيل، ومن بعده على أشرف الرسل محمد ﷺ .

وكان السبب في إخراج هاجر من أرض فلسطين إلى المكان الذي حلت فيه ما جرى بين هاجر وسارة بعد أن رزقت هاجر بإسماعيل، وقد اضطرت هاجر إلى الهروب من وجه سارة، عندما خشيت على نفسها منها، كما أشار إلى ذلك الحديث، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن هاجر في هروبها جرت ثيابها من ورائها كي تمسح ثيابها آثار أقدامها، فلا تدري سارة الموضع الذي توجهت إليه .

وأمر الله إبراهيم بترحيل هاجر وابنها إلى موضع البيت العتيق، وهو مكان ناء بعيد، لا تبلغه الركاب إلا بشقّ الأنفس .

قد يبدو الأمر صعبا وقاسيا على نفس الشيخ الكبير الذي رزق بإسماعيل على كبر، ويزداد الأمر صعوبة عندما يضع إبراهيم فلذة كبده وأمه في مكان موحش لا ماء فيه، ولا طعام، ولا سكان .

ولكن الله له حكمة بالغة، والأمر وإن كان في ظاهره المشقة والعنت، إلا أن في باطنه كثيراً من الرحمات والخيرات، ونحن ندرك هذه الرحمات والخيرات اليوم إدراكا جليا واضحا، فقد نشأت بسكنى إسماعيل في تلك الديار تلك المدينة التي بني فيها بيت الله، وتحقق فيها من العبادات والشعائر والخيرات الشيء الكثير، ونال من ذلك إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل وذريته من الأجر والمثوبة مالا يعلمه إلا الله، ورفع الله بذلك ذكرهما، وخلد اسمهما، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم .

نقل إبراهيم الطفل الصغير وأمه من الأرض المباركة ذات الهواء العليل، والرياض الخضرة، والمياه الجارية، إلى ذلك الوادي، ووضعهما تحت تلك الشجرة، وقفا راجعا، من غير أن يشغل نفسه ببناء بيت يأويان إليه، ومن غير أن يبحث لهما عمن يسكن بجوارهما ليحميهما من غارات قطاع الطريق، ومن هجمات الوحوش الضارية .

لقد أمر الله إبراهيم بإسكانهما في ذلك الوادي، فأسكنهما فيه كما أمر الله، وترك أمرهما لله تعالى، فالذي أمره بهذا قادر على حمايتهما وإطعامهما وإسقائهما، وإيناس وحشتهما، ولم يقبل إبراهيم مناشدة هاجر له، وهي تجري وراءه، وتقول له: أين تذهب وتتركنا؟ وتردد ذلك عليه مرارا، وهو لا يجيب، إنه أمر الله، وأمر الله لا يخالف، وهكذا الإسلام الذي أخذ إبراهيم به نفسه ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١].

فلما أعيا هاجر الجواب، قالت له: آ لله أمرك بهذا ؟ قال: نعم، فعند ذلك

هدأ بالها ، وقرت نفسها، فالمؤمن يعلم أن الله لا يضيع من استجاب لأمره، وحقق مراده .

ويمضي إبراهيم عائدا، حتى إذا بلغ الثنية، وغاب عن أنظار هاجر، توجه إلى مكان البيت العتيق، ورفع يديه إلى السماء، وهتف بربه ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧]، وقد استجاب الله دعاءه وحقق رجاءه .

ومكثت أم إسماعيل أياما تشرب من تلك القربة التي تركها لها إبراهيم، وتأكل من ذلك التمر، وتسقي وليدها من لبنها، ولكن سرعان ما نفد التمر والماء، فعطشت وجاعت، وعطش صغيرها بعطشها، وجاع بجوعها، وأخذ يتلوى من العطش، فلم تطق النظر إليه، ودفعها ما رأت من أمره إلى أن تبحث له عما يروي ظمأه، ويحيي نفسه .

وجدت الصفا أقرب مرتفع من الأرض إليها، والمرء عندما يريد أن يستكشف ما حوله، يرقى على مرتفع عال، ليرى أكبر مساحة يمكنه البحث فيها والنظر إليها.

رقت الصفا ونظرت بإمعان، فلم تجد أحدا، فانحدرت إلى الوادي ميممة وجهها نحو الجبل الآخر القريب، وهو المروة فعلته، ونظرت كما نظرت من الصفا فلم تجد من ينجدها، ولا من يغيثها، وهكذا بقيت تتردد بين الصفا والمروة حتى أتمت سبعا ، وكانت في أثناء ترددها بينهما تمر بطفلها تطمئن عليه، وتستطلع أحواله، ثم تعود لتتابع التردد والنظر، وكان هذا السعي أول سعي بين الصفا والمروة، وقد أصبح هذا السعي الذي ابتدأته هاجر معلما من معالم الحج والعمرة: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة:١٥٨].

وبعد إتمامها الشوط السابع سمعت صوتا فأصغت إليه، وخاطبت نفسها

قائلة: صه، كأنما تريد أن تبلغ أقصى ما يمكنها من الاستماع، فإذا بالصوت يطرق سمعها ثانية، فتقول مخاطبة من سمعت صوته: قد أسمعت إن كان عندك غواث، ودققت في مصدر الصوت، ونظرت، فإذا به يأتي من عند الوليد، وإذا ملاك الرب جبريل يبحث بعقبه الأرض أو بجناحه عند موضع زمزم، فإذا بالماء يفور .

بحثت عن الماء من فوق الربوات المشرفة، فأخرج الله لها الماء من تحت أقدام الوليد الصغير، ولا شك أن فرحة أم إسماعيل كانت عظيمة غامرة، فالحرمان من الماء يعني موتها وموت صغيرها، وانبثاق الماء فيه حياتها وحياة صغيرها، وحياة الوادي الذي حلت فيه .

ويترجح لدي أن جبريل عليه السلام تمثل في صورة رجل حتى رأته هاجر وكلمها وكلمته، كما كان يتمثل في عهد الرسول ﷺ فيراه الصحابة، ويسمعونه، يدلك على هذا أن الرسول ﷺ لم يره إلا مرتين على صورته التي خلقه الله عليها، وعندما رآه أول مرة خاف خوفا شديدا .

وقد سارعت أم إسماعيل بدافع الغريزة الحريصة على جمع الماء وإحراز أكبر قدر منه إلى صنع حوض يجمع الماء ويرفعه، وأخذت تملأ منه قربتها، ولو قدر لها أن تتركه يجري ويسيل، لأصبح عينا جارية، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينا معينا » .

جاء الله أم إسماعيل بالماء الذي روى عطشها، وحرك الحليب في ثديها، فسقت طفلها، وطمأنها الملك قائلا: (لا تخافوا الضيعة) وبشرها بأن هذا الغلام سيبني مع والده بيت الله، وأن الله لا يضيع أهله .

وأتم الله على إسماعيل وأمه النعمة، فساق إليهم من يساكنهم في ديارهم، فيأنسون به، وتزول بذلك عنهم الوحشة، فقد مر قريبا منهم رفقة من قبيلة جرهم، فنزلوا أسفل مكة، فرأوا طيوراً تحوم في الفضاء، وكانوا يعلمون أن مثل

هذا الحومان لا يكون من الطير إلا حيث يوجد ماء، فإن الطائر العابر يمضي في طريقه لا يتوقف، أما الطيور التي تحوم في الفضاء على النحو الذي شاهدوه، فهي الطيور التي ترد الماء، وتدور حوله، إلا أنهم تشككوا في صدق حدسهم، لأنهم خبراء بهذه النواحي، وهم يعلمون أن هذا الوادي لا ماء فيه ولا سكان، ولقد قطعوا الشك باليقين فأرسلوا من يأتيهم بالخبر، فعاد إليهم الرسول يخبرهم بما رأى، فانطلقوا إلى حيث أم إسماعيل، ورأوا بأعينهم الخير المتدفق من الصخر، فأعجبهم ذلك، واستأذنوا أم إسماعيل في الإقامة معها، فأذنت لهم، واشترطت عليهم أن لا حق لهم في الماء، أي يشربوا منه، ولكن أصل العين لها ولابنها، فأرسلوا إلى أهليهم، وسكنوا بجوارها .

شب إسماعيل في هذا البيئة كأحسن ما يشب الفتيان، وكان يتدفق حيوية ونشاطا، وزانه خلق كريم، وسجايا عظيمة، فأحبه مجاوروه، وقدروه وزوجوه امرأة منهم .

وماتت أم إسماعيل بعد أن شب وليدها، واطمأنت عليه، والموت غاية كل حي، وجاء إبراهيم يستطلع تركته، فلم يجد إسماعيل في منزله، فقد خرج يطلب القوت لأهله، وَشَكَتْ زوجة إسماعيل معيشتها، لما سألها عنها، وأخبرته أنهم في شدة وضيق، فطلب منها أن تقرئ زوجها السلام، وأمره بتغيير عتبة داره .

لم تكن تعلم الزوجة أن الشيخ الذي مر بها هو والد إسماعيل، كما أنها لم تكن تعلم أن الرسالة التي نقلتها إلى زوجها كانت تطلب طلاقها، وقد فعل الابن ما أمره به والده، وطلق زوجته .

لقد رأى إبراهيم عليه السلام أن هذه المرأة لا تصلح أن تكون زوجة لنبي رسول، يُعَدُّ لأن يسود ويقود، ويربي أهله وأولاده والناس من حوله، فالزوجة التي تطيل الشكوى، وتكثر التبرم لا يمكنها أن تكون عونا لزوجها على المهمات الكبار التي يُعَدّ لها .

وعندما عاد إبراهيم في المرة الثانية وجد امرأة أخرى يخالف حالها حال من

كانت قبلها، فرضي بزواج ابنه منها، وأمره بإمساكها، وقد سألها عن معيشتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله وحمدته، وسألها عن طعامهم وشرابهم، فقالت: اللحم والماء، فدعا لهم إبراهيم بالبركة في اللحم والماء، ولو كان لهم حَبٌّ يأكلون منه لدعا لهم فيه كما أخبر الرسول ﷺ .

وكان من بركة دعاء إبراهيم - كما أخبر الرسول ﷺ - أن اقتصار أهل مكة على اللحم والماء لا يضرهم، بينما يضر من اقتصر عليهما من غيرهم .

وجاء إبراهيم في المرة الثالثة يزور ابنه، ويستطلع أحواله، فوجده هذه المرة في الديار، جالسا يبري نبله تحت تلك الدوحة التي تركه تحتها صغيرا عندما جاء به أول مرة لتلك الديار، فقام إسماعيل إليه، فصنعا ما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد من التسليم والمعانقة والتقبيل ونحو ذلك، وأخبره بأمر الله له ببناء البيت الحرام، وأنه أمر إسماعيل بإعانته على بناء البيت، فبادر إسماعيل إلى طاعة أمر الله، فبنى إبراهيم البيت، وساعده في ذلك إسماعيل، وكانا وهما يبنيان يدعوان قائلين: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

هذه القصة في التوراة(١)

هذه القصة مذكورة في التوراة، ولكنك لا تجد فيها هذا الوضوح والتفصيل الذي تجده في الحديث، وعندما تقرأ قصة التوراة في ضوء الحديث، سترى كيف يصوب الحديث رواية التوراة، ويكشف عنها التحريف والتبديل الذي أصاب هذه القصة عبر القرون .

وردت هذه القصة في الإصحاح السادس عشر، والإصحاح الحادي

(١) التوراة هي الكتاب الذي أنزل على موسى، وقد أصابها تحريف عظيم، وبقاياها في الكتاب الذي يسمى بالتوراة في الأسفار الخمسة الأولى التي تسمى باسم الشريعة وقد ضم إليها الكتاب اليهود الذين دونوا التوراة شيئاً كثيراً أطلقوا عليه كله اسم التوراة على خلاف بينهم في المقبول منها وغير المقبول .

والعشرين من سفر التكوين، ونصها: « ساراي امرأة أبرام[1] فلم تلد له، وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر، فقالت ساراي لأبرام: هوذا الرب قد أمسكني عن الولادة، ادخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين، فسمع أبرام لقول ساراي، فأخذت ساراي امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة أبرام في أرض كنعان، وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له، فدخل على هاجر فحبلت .

ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عينيها، فقالت ساراي لأبرام: ظلمي عليك، أنا دفعت جاريتي إلى حضنك، فلما رأت أنها حبلت صَغُرْتُ في عينيها يقضي الرب بيني وبينك .

فقال أبرام لساراي: هوذا جاريتك في يدك . افعلي بها ما يحسن في عينيك، فأذلتها ساراي ، فهربت من وجهها .

فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية، على العين التي في طريق شور، وقال: يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت ، وإلى أين تذهبين ؟ فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي، فقال لها ملاك الرب: ارجعي إلى مولاتك، واخضعي تحت يديها .

وقال لها ملاك الرب: تكثيرا أكثر نسلك، فلا يعد من الكثرة، وقال لها ملاك الرب: ها أنت حبلى فتلدين ابنا، وتدعين اسمه إسماعيل، إن الرب قد سمع لمذلتك، وإنه يكون إنسانا وحشيا، يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه، وأمام جميع أخوته يسكن .

فدعت اسم الرب الذي تكلم معها « أنت إيل رئي »، لأنها قالت: أههنا أيضا رأيت بعد رؤية، لذلك دعيت البئر بئر لحي رئي، ها هي بين قادش وبارد، فولدت هاجر لأبرام ابنا، ودعا أبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسمعيل، كان أبرام ابن ست وثمانين سنة، لما ولدت هاجر إسمعيل لأبرام ».

---

(١) ساراي: اسم سارة قبل أن يصبح اسمها سارة، وأبرام اسم لإبراهيم قبل أن يحول اسمه لإبراهيم، وتذكر التوراة أن تحويل الاسمين كان بأمر من الله .

وجاء في الإصحاح الحادي والعشرين من سفر التكوين:

« ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح، فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق، فقبح الكلام جدا في عيني إبراهيم لسبب ابنه، فقال الله لإبراهيم: لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها، لأنه بإسحاق يدعى لك نسل، وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك .

فبكر إبراهيم صباحا، وأخذ خبزا وقربة ماء، وأعطاهما لهاجر واضعا إياهما على كتفها والولد وصرفها، فمضت وتاهت في برية بئر سبع، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار، ومضت وجلست مقابله بعيدا نحو رمية قوس، لأنها قالت: لا أنظر موت الولد، فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت، فسمع الله صوت الغلام، ونادى ملاك الله هاجر من السماء، وقال لها: مالك يا هاجر ؟ لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو، قومي احملي الغلام وشدي يدك به، لأني سأجعله أمة عظيمة، وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء، فذهبت وملأت القربة ماء، وسقت الغلام، وكان الله مع الغلام فكبر، وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برية فاران، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر » .

تعليقنا على ما جاء في التوراة:

هناك مقاطع من هذه القصة صحيحة لموافقتها لما أخبر به الرسول ﷺ في الحديث الذي سقناه، وفي غيره من الأحاديث، فمن ذلك إهداء سارة جاريتها المصرية هاجر لإبراهيم، لعله يرزق منها الأولاد الذين حرمت منهم، وأن هاجر قد حبلت بعد دخول إبراهيم بها، وأن هاجر عظم شأنها في نفسها لما حملت، وهانت عليها سيدتها سارة، وأن هاجر غضبت على هاجر، ففرت من بين يديها، وأن سارة طلبت من إبراهيم طرد هاجر وابنها، فأخرجها إلى البرية، وجاء لها بقربة ماء، وقليلا من الزاد، وأن هاجر تألمت عندما نفد الماء، وأن ملاك الله نزل

وثبتها وبصرها بالماء .

وليس صوابا ما ذكرته القصة من أن إبراهيم أعطى هاجر قربة الماء والطعام، وحملها لها، وأنها انطلقت على وجهها في البرية، والصواب ـ كما ورد في الحديث ـ أن إبراهيم حمل قربة الماء، وزوادة فيها تمر، ووضع هاجر وابنها في واد غير ذي زرع عند بيته المحرم، وما ذكره الحديث في شأن هاجر ونفاد الماء منها، وسعيها بين الصفا والمروة، ومجيء جبريل وتفجيره الماء وغير ذلك من التفصيلات لا وجود لها في التوراة، وما ذكر منها فيها ليس بدقة ووضوح ما ورد في الحديث.

وليس صواباً أن سارة طلبت من إبراهيم طرد إسماعيل عندما رأته يمزح، وأنها رفضت أن يرث مع ابنها إسحاق، لأن إسماعيل عندما رحل به إبراهيم إلى مكة كان رضيعاً، ولم يبلغ العمر الذي يكون فيه المزاح أما أسحاق فلم يكن ولد بعد .

أما ما ذكر في التوراة من أن إبراهيم دخل بهاجر بعد عشر سنوات من إقامته في أرض كنعان، وأن هرب هاجر من سارة كان إلى العين التي على طريق شور، وأن ملاك الرب أمرها بالعودة إلى سارة والخضوع لها ، وأن إبراهيم كان في السنة السادسة والثمانين من عمره عندما ولد إسماعيل، فالله أعلم بمدى صحة ذلك .

عبر الحديث وفوائده

١ - في القصة كثير من المعلومات والحقائق التي ما كان لنا أن نعلمها لولا ما أخبرنا به رسولنا ﷺ، وهي معلومات قيمة، فيها حديث عن الآباء الكرام، وعن نشأة المدينة المقدسة، وبناء البيت العتيق ، وغير ذلك .

٢ - استجابة إبراهيم لأمر الله في إسكان ابنه وزوجته في ذلك المكان على الرغم من صعوبة الأمر عليه، وقد يكره العبد أمرا والخير فيه، وقد يحب أمرا وهو شر له .

٣ - حفظ الله لأوليائه، ورعايته لهم، كما حفظ هاجر وإسماعيل، عندما تركهم إبراهيم في ذلك المنزل .

٤ - الاستسلام لأمر الله لا ينافي سعي العبد فيما فيه صلاحه، فقد بحثت هاجر عما يحفظ عليها وعلى ولدها حياتهما، على الرغم من استسلامها لأمر الله.

٥ - قدرة الله على إخراج الماء من الصخر الأصم، كما أخرج ماء زمزم .

٦ - رعاية الأب لولده، ونصحه بما يراه خيرا له، فقد كان إبراهيم يرحل لابنه مرة وراء مرة، ويطلع على أحواله وأخباره، ويوجهه لما فيه صلاحه.

٧ - التبرم بقلة الرزق وضيق العيش ليس من أخلاق الصالحين، فقد كره إبراهيم تبرم زوجة إسماعيل بعيشها، وشكواها من شظف العيش، أما الصبر على قلة الزاد وشكر الله على ما أنعم به، فهو من أخلاق الصالحين، ولذلك حمد إبراهيم زوجة إسماعيل الراضية الشاكرة .

٨ - استحباب دعاء الصالحين بالبركة في الطعام والشراب كما دعا إبراهيم بالبركة في اللحم والماء لسكان ذلك المكان .

٩ - إبداء مشاعر الفرح والسرور عند لقاء الأحبة، والتعبير عن ذلك بالمظاهر

المناسبة، كما فعل إبراهيم وإسماعيل عند لقائهما .

١٠ ـ كان إسماعيل راميا ماهرا، وصيادا حاذقا، وقد قال الرسول ﷺ لأصحابه يوما: (ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا)[1] .

١١ ـ التعاون بين الأقارب في فعل الخيرات، كما أعان إسماعيل أباه في بناء البيت.

١٢ ـ بر إسماعيل بأبيه، فقد استجاب لأمره في تطليق زوجته الأولى، وإمساك زوجته الثانية، وإذا كان الأب الآمر بتطليق الزوجة ذا مقاييس إسلامية كإبراهيم فلا يجوز للابن مخالفته .

١٣ ـ إسماعيل عليه السلام والد العرب المستعربة، وهم عرب الحجاز، أما قبائل حمير، وهم أهل اليمن، فيعودون إلى قحطان، وتسمى العرب الذين قَبْلَ إسماعيل بالعرب العاربة، وهم قبائل كثيرة، منهم عاد وثمود وجرهم وطَسْم وَجَدِيس وقحطان، وأكثرهم بادوا وهلكوا . وقد صح في الحديث أن إسماعيل هو أول من فتق لسانه بالعربية المبينة، وهو ابن أربع عشرة سنة.

١٤ ـ تصحيح القرآن وصحيح الحديث ما أصاب التوراة من خلل واضطراب.

---

(١) رواه البخاري في مواضع من صحيحه، انظر الأرقام: ٩٧، ٣٣٧١.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير: ١/١٢٠، ٢/١٦٥.

(٣) عزاه ابن حجر في الفتح إلى الطبراني والديلمي وحسنه ابن حجر،وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: ٢٥٨١.

القصة الخامسة

قصة إبراهيم وسارة مع الجبار

تمهيد

هذه القصة تبين كيف حفظ الله لإبراهيم زوجته سارة، عندما أراد أحد الطغاة أن يدنس عرضها، ويعتدي عليها، وقد التجأ إبراهيم إلى الله يدعوه ويصلي له، وابتهلت سارة إلى ربها، فأخذ الله الفاجر، ورد كيده في نحره، وحمى الله إبراهيم عليه السلام وزوجه، والله قادر على حفظ أوليائه، وكبت أعدائه في كل عصر وجيل .

نص الحديث

روى البخاري في صحيحه: عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام بِسَارَةَ، فَدَخَلَ بِهَا قَرْيَةً فِيهَا مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ، أَوْ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ: دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ بِامْرَأَةٍ هِيَ مِنْ أَحْسَنِ النِّسَاءِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ: أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، مَنْ هَذِهِ الَّتِي مَعَكَ؟ قَالَ: أُخْتِي، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهَا، فَقَالَ لا تُكَذِّبِي حَدِيثِي، فَإِنِّي أَخْبَرْتُهُمْ أَنَّكِ أُخْتِي، وَاللَّهِ إِنْ عَلَى الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ، فَأَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ فَقَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضَّأُ وَتُصَلِّي، فَقَالَتِ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ، وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلا عَلَى زَوْجِي، فَلا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكَافِرَ، فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ).

قَالَ الأَعْرَجُ: قَالَ أَبو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِالرَّحْمَنِ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: (قَالَتِ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ يُقَالُ: هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضَّأُ تُصَلِّي، وَتَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ، وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلا عَلَى زَوْجِي، فَلا تُسَلِّطْ عَلَيَّ هَذَا الْكَافِرَ، فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ).

قَالَ عَبْدُالرَّحْمَنِ: قَالَ أَبو سَلَمَةَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَالَتِ: (اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ فَيُقَالُ: هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَرْسَلْتُمْ إِلَيَّ إِلا شَيْطَانًا، ارْجِعُوهَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَعْطُوهَا آجَرَ، فَرَجَعَتْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام، فَقَالَتْ: أَشَعَرْتَ أَنَّ اللَّهَ كَبَتَ الْكَافِرَ، وَأَخْدَمَ وَلِيدَةً).

وفي رواية أخرى في صحيح البخاري: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: (لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام إِلا ثَلاثَ كَذَبَاتٍ: ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَوْلُهُ ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات: ٩٨] وَقَوْلُهُ ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وَقَالَ: بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ هَا هُنَا رَجُلا مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: أُخْتِي. فَأَتَى سَارَةَ قَالَ: يَا سَارَةُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ عَنْكِ أَنَّكِ أُخْتِي، فَلا تُكَذِّبِينِي. فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ فَأُخِذَ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي، وَلا أَضُرُّكِ، فَدَعَتِ اللَّهَ، فَأُطْلِقَ ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ فَأُخِذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلا أَضُرُّكِ، فَدَعَتْ فَأُطْلِقَ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسَانٍ، إِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ، فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ، فَأَتَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ، مَهْيَمْ؟ قَالَتْ رَدَّ اللَّهُ كَيْدَ الْكَافِرِ أَوِ الْفَاجِرِ فِي نَحْرِهِ، وَأَخْدَمَ هَاجَرَ).

قَالَ أَبو هُرَيْرَةَ: تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ .

تخريج الحديث

الرواية الأولى رواها البخاري في صحيحه في كتاب البيوع، باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه، ٤١٠/٤. ورقم الحديث: ٢٢١٧ . والرواية الثانية أوردها في كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥]. (٣٨٨/٦) ورقمه: ٣٣٥٨ .

ورواه أيضا في مواضع من كتابه، منها: كتاب الإكراه، باب إذا استكرهت المرأة على الزنا: ٣٢١/١٢ . ورقمه: ٦٩٥٠ . وفي كتاب النكاح . باب اتخاذ السراري، ومن أعتق جارية ثم تزوجها: ١٢٦/٩ . ورقمه: ٥٠٨٥، وفي كتاب الطلاق في ترجمة باب من غير إسناد . ٣٨٧/٩ . وفي كتاب الهبة . باب إذا قال: أخدمتك هذه الجارية . ورقمه: ٢٦٣٥ . ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل . باب فضائل إبراهيم: ١٨٤٠/٤ . ورقمه: ٢٣٧١ .وهو في مسلم بشرح النووي: ٥٠٩/١٥ .

غريب الحديث

لم يكذب إبراهيم: قال المازري: أما الكذب فيما طريقه البلاغ عن الله تعالى، فالأنبياء معصومون منه . سواء كثيره وقليله . وأما ما لا يتعلق بالبلاغ ويعد من الصغائر، كالكذبة الواحدة في حقير من أمور الدنيا، ففي إمكان وقوعه منهم وعصمتهم منه القولان المشهوران للسلف والخلف .

قال القاضي عياض: الصحيح أن الكذب فيما يتعلق بالبلاغ لا يتصور وقوعه منهم . سواء جوزنا وقوع الصغائر منهم أم لا . وسواء قلَّ الكذب أم كثر، لأن منصب النبوة يرتفع عنه . وتجويزه يرفع الوثوق بأقوالهم .

ثنتين في ذات الله: معناه أن الكذبات المذكورة إنما هي بالنسبة إلى فهم المخاطب

والسامع ، وأما في نفس الأمر فليست كذبا مذموما، لوجهين: أحدهما: أنه ورى بها . فقال في سارة: أختي في الإسلام، وهو صحيح في باطن الأمر . والوجه الثاني: أنه لو كان كذبا، لا تورية فيه، لكان جائزا في دفع الظالمين . فنبه النبي ﷺ على أن هذه الكذبات غير داخلة في مطلق الكذب المذموم .

غط حتى ركض برجله: أي خنق خنقا، لشدته كان يضرب برجله الأرض.

كبت الفاجر: أخزاه وقهره، ورده خاسئا .

آجر: الاسم السرياني لهاجر .

بني ماء السماء: قال النووي: « قال كثيرون: المراد ببني ماء السماء العرب كلهم، لخلوص نسبهم، وصفائه . وقيل: لأن أكثرهم أصحاب مواش، وعيشهم من المرعى والخصب، وما ينبت بماء السماء .

وقال القاضي: الأظهر عندي أن المراد بذلك الأنصار خاصة، ونسبتهم إلى جدهم عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأدد، وكان يعرف بماء السماء، وهو المشهور بذلك، والأنصار كلهم من ولد حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر المذكور . والله أعلم ».

شرح الحديث

خرج إبراهيم عليه السلام من دياره هو وزوجته، بعد أن ألقاه قومه في النار فأنجاه الله منها، وحل ديارا بعيدة، ليس له فيها من أهلها أنصار، وفي مثل هذه الأحوال يطمع أهل الظلم والطغيان في أمثاله، وقد واجه إبراهيم هذا عندما حل ديار ملك جبار غاشم، ذُكِرَ له حلول إبراهيم في أرضه صحبة امرأة من أجمل نساء الدنيا.

وكان من طريقة هؤلاء إن أرادوا امرأة أن يبطشوا بزوجها إن كانت متزوجة، ولكنهم لا يتعرضون لأقاربها بسوء إن كانت عزباء، ولذا فإن إبراهيم

قال لرسول ذلك الملك إنها أخته عندما سأله عنها، لينجو من بطشه، وقد أرسل إبراهيم بزوجته إلى ذلك الطاغية كما طلب منه، ثقة منه برعاية الله وحفظه، بعد أن أوصاها أن لا تخبر الملك بصلتها الحقيقية به، وقد بين لها إبراهيم وجهة نظره في ذلك، فهي أخته في الإسلام إذ لم يكن على وجه الأرض مؤمن غيرهما.

ومع أن إبراهيم عليه السلام أول قوله إن سارة أخته، أي في الإيمان والإسلام، فإنه يعتذر في يوم القيامة عن الشفاعة عندما يطلب الناس منه أن يشفع لهم إلى ربهم ليقضي بين الناس، لأنه كذب في حياته ثلاث كذبات، وهي قوله لقومه : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، عندما دعوه لمشاركتهم أعيادهم الشركية الباطلة، والثانية قوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ [الأنبياء: ٦٣] عندما حطم الأصنام، وترك كبيرهم بعد أن علق الفأس في عنقه، وزعم أنه الذي حطم الأصنام الصغيرة، والثالثة: قوله في هذه القصة للطاغية إن سارة أخته، ليحمي نفسه من جبروت الطاغية وبطشه .

أرسل إبراهيم بزوجته إلى الطاغية، وفزع إلى الصلاة، يدعو ربه، ويلتجيء إليه، وقد حفظ الله خليله في زوجه سارة، كما حفظ سارة في نفسها، فما كاد الطاغية يقوم إلى سارة ليأخذها عندما دخلت عليه، حتى أُخِذَ أخذا شديدا حتى فحص الأرض برجليه، بعد أن دعت سارة ربها، وناشدته أن يرد عنها كيده وشره، ولكنها خشيت على نفسها إن هو مات أن يتهموها بقتله (اللهم إن يمت، يقال هي قتلته) . ويُطْلِقَهُ الله بعد أن طلب من سارة أن تدعو له، ووعدها بعدم التعرض لها .

فلما أُرْسِلَ أخلف وعده، وغلبته شهوته، فقام إلى سارة مرة أخرى، فأخذ أخذة أشد من الأولى، وناشدها مرة أخرى أن تدعو الله ليفرج عنه واعدا مرة أخرى بعدم التعرض لها، فقالت في دعائها لربها مقالتها السابقة:

(اللهم إن يمت يقال: يقال هي قتلته) .

وبعد الثانية أو الثالثة دعا أعوانه، وأمرهم بإرجاع سارة إلى إبراهيم سالمة

غاغة، فقد علم أنها محفوظة، وأنه لا سبيل إليهـا، فرجعت وفي صحبتها هاجر، هدية من ذلك الجبار الطاغية، وهاجر هي أم إسماعيل، أهدتها سارة لإبراهيم فدخل بها .

فقد ورد في مستدرك الحاكم ومشكل الآثار للطحاوي أن رسول الله ﷺ قال: (إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا، فإن لهم ذمة ورحما)[1] .

وجاء في صحيح مسلم بلفظ: (إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحما) أو قال: (ذمة و صهرا)[2] .

ومراد الرسول ﷺ بالذمة والرحم أو الصهر التي لأهل مصر كون أم إسماعيل منهم، والرسول ﷺ كان من نسلها .

هذه القصة في التوراة

وقد وردت هذه القصة في التوراة في الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين، ونصها:« وحدث جوع في الأرض، فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك، لأن الجوع في الأرض كان شديدا، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك، قولي إنك أختي . ليكون لي خير بسببك، وتحيا نفسي من أجلك .

فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا، ورآها رؤساء فرعون، ومدحوها لدى فرعون، فأُخِذَتْ المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إلى أبرام خيرا بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأُتنٌ وجمال،

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني: ٣٦٢/٣
(٢) أخرجه مسلم، ورقمه: ٢٥٤٣

فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام، فدعا فرعون أبرام وقال: ما هذا الذي صنعت بي ؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك ؟ لماذا قلت: هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي ؟ والآن هوذا امرأتك، خذها واذهب، فأوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته، وكل ما كان له ».

وورد في الإصحاح العشرين من سفر التكوين أن جبارا آخر من ملوك فلسطين تعرض لسارة، وأنه أطلقها من غير أن يصيبها بأذى بعد أن تهدده الملاك في رؤيا رآها، وذكر أن إبراهيم أخبر الملك أن سارة أخته من أبيه، جاء في الإصحاح العشرين:

« وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور، وتغرب في جرار، وقال إبراهيم عن سارة امرأته: هي أختي، فأرسل أبي مالك ملك جرار، وأخذ سارة، فجاء الله إلى أبي مالك في حلم الليل، وقال له: ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها، فإنها متزوجة ببعل، ولكن لم يكن أبي مالك قد اقترب إليها، فقال: يا سيد أئمة بارة تقتل، ألم يقل هو لي إنها أختي، وهي أيضا نفسها قالت: هو أخي . بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا.

فقال له الله في الحلم: أنا أيضا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا، وأنا أيضا أمسكتك عن أن تخطئ إلي، لذلك لم أدعك تمسها، فالآن رُدّ امرأة الرجل، فإنه نبي ، فيصلي لأجلك فتحيا، وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتا تموت أنت وكل من لك .

فبكّر أبي مالك في الغد، ودعا جميع عبيده، وتكلم بكل هذا الكلام في مسامعهم، فخاف الرجال جدا، ثم دعا أبي مالك إبراهيم، وقال له: ماذا فعلت بنا، وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت علي وعلى مملكتي خطية عظيمة ؟ أعمالا لا تعمل عملت بي، وقال أبي مالك لإبراهيم: ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء؟ فقال إبراهيم: إني قلت ليس في هذا الموضع خوف الله ألبتة، فيقتلونني لأجل امرأتي، وبالحقيقة أيضا هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي، فصارت لي

زوجة، وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي أني قلت لها: هذا معروفك الذي تصنعين إلي، في كل مكان نأتي إليه قولي عني هو أخي .

فأخذ أبي مالك غنما وبقرا وعبيدا وإماء وأعطاها لإبراهيم، ورد إليه سارة امرأته، وقال أبي مالك: هوذا أرضي قدامك، اسكن في ما حسن في عينيك، وقال لسارة: إني قد أعطيت أخاك ألفا من الفضة، ها هو لك عطاء عين من جهة كل ما عندك، وعند كل واحد فأنصفت، فصلى إبراهيم إلى الله، فشفى الله أبي مالك وامرأته وجواريه فولدن، لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت أبي مالك بسبب سارة امرأة إبراهيم » .

تعليقنا على ما ورد في التوراة:

وافق ما ورد في التوراة ما أشارت إليه الأحاديث من أن القصة وقعت في أرض مصر، ولا ندري إن كان الذي ذكرته التوراة أن نزول إبراهيم مصر هو وسارة كان بسبب الجوع في فلسطين أم بسبب الدعوة إلى الله .

وأما قول إبراهيم لسارة: إنك امرأة حسنة المنظر ... الخ فقريب مما ذكر في نص الحديث .

ولم يذكر الحديث أن هذه القصة وقعت في عهد الفراعنة، فالفراعنة حكموا مصر في بعض العصور، لا في كل العصور، وما ذكر في التوراة من أن فرعون أرسل إلى إبراهيم هذه الثروة من الأغنام والأبقار والحمير والعبيد والإماء والأتون والجمال كله غير صحيح، فإبراهيم بعد طلب الملك سارة وإرسالها إليه قام يصلي، ولم يصله من الملك إلا هاجر التي أهداها الملك لسارة، ولو كان الملك أهدى لإبراهيم كل ما ذكر لما غفل عن ذكره الوحي الموحى به إلى رسولنا ﷺ في هذا الحديث، كيف وقد ذكر ما هو أقل منه، وهو هدية هاجر لسارة .

وما ذكرته القصة من ضرب الله فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب سارة، ودعوته لإبراهيم ومعاتبته له بسبب ادعائه بأن سارة أخته، وأن فرعون كان

يريدها زوجة له، كل ذلك غير صحيح، فالحديث الذي أوحى الله به لرسوله ﷺ أخبرنا أن الذي وقع للملك الطاغية هو ذلك الخنق مرة بعد مرة، وأنه لم يَدْع إبراهيم بعد ذلك، ولم يعاتبه، بل أمر بإخراجه وزوجته من أرضه، ولم يرسل أحدا لتوديعه وتشييعه .

والله أعلم بصحة القصة الثانية، وعلى فرض وقوعها، فإن فيها كذبا لا يخفى، وهو من التحريف الواقع في هذا الكتاب، فقد زعم المحرفون لهذا الكتاب على لسان إبراهيم أن زوجته سارة كانت أخته من أبيه، وحاشا إبراهيم أن يتزوج أخته، ويرد على هذه الكذبة ما صرحت به الأحاديث الكثيرة من أن إبراهيم يخشى يوم القيامة كذباته الثلاث، وإحداها أنه أخبر الطاغية أن سارة أخته، وهذا نص صريح في أنها ليست أخته من النسب، وإنما مراده أنها أخته في الإسلام، كما ورد ذلك صريحا في أكثر من حديث .

عبر الحديث وفوائده

١ ـ الأنبياء والرسل معصومون في أزواجهم، فلا يستطيع الجبارون والطغاة الولوغ في أعراضهم، كما وقع لهذا الطاغية الذي أراد سوءا بزوجة إبراهيم، فحفظها الله، ونجاها من شره .

٢ ـ على المؤمن أن يلتجئ إلى الله تبارك وتعالى وهو يواجه الكروب والبلاء، فإبراهيم التجأ إلى الصلاة عندما ذهب بسارة إلى الطاغية، وسارة دعت ربها وناشدته فحفظها ورعاها .

٣ ـ قدرة العزيز الجبار على حفظ أنبيائه وأوليائه ونصرهم ورد كيد الكائدين عنهم .

٤ ـ قد تضطر الحاجة أو الضرورة المسلم للانحناء للعاصفة، فإبراهيم عليه السلام يقول عن سارة أنها أخته، حتى لا يبطش به الطاغية، ولم يستطع إبراهيم أن يمنع

إرسال سارة إلى ذلك الطاغية، وسارة ذهبت إلى الطاغية، وخلا بها، ولكن الله حفظها، وعصمها منه. والذين يأبون الانحناء للعاصفة لا يفقهون دين الله، فالإنسان لا يستطيع دائما أن يمضي في طريقه على الوجه الأكمل، فالرسول ﷺ وأصحابه من بعده، والسائرون على دربهم كانوا يهادنون في الحرب، ويصالحون، ويرضون أحيانا باتفاقات فيها ظلم واضح، وما لا طاقة للعباد به عليهم أن يلجؤوا فيه إلى الله.

٥ ـ يجوز قبول هدية الظالم، بل الكافر، فقد قبلت سارة هدية الملك الجبار الظالم عندما أخدمها هاجر، وأقر إبراهيم زوجته على قبولها الهدية.

٦ ـ كان الوضوء مشروعا في الأمم من قبلنا، فسارة عندما قام إليها الجبار قامت تتوضأ وتصلي، ويبدو أن وضوءهم كان مختلفا عن وضوئنا، وإلا فكيف قامت تتوضأ عندما قام إليها الجبار، لعل وضوءها كان مسحا لليد والوجه، أو أنه كان شبيها بالتيمم عندنا، أما صلاتها فالمراد به هنا الدعاء.

٧ ـ كان يجوز في شريعة إبراهيم الاستعلام بالإشارة، وهو في الصلاة عن أمر يريد معرفته، فقد أومأ إبراهيم لسارة بعد عودتها وهو يصلي، أي أشار لها بيده مستعلما عما جرى لها.

٨ ـ جواز التحدث بنعمة الله التي أنعم بها على عبده، فقد أخبرت سارة زوجها بإكرام الله لها في رد كيد الكافر، وإخدامها هاجر.

٩ ـ إخبار أبي هريرة أن هاجر هي أم الذين كان يخاطبهم، ويروي لهم الحديث.

القصة السادسة

قصة نبي الله لوط - عليه السلام -

تمهيد

نبي الله لوط عليه السلام أحد أنبياء الله ورسله الذين واجهوا قوما قساة القلوب، غلاظ الطباع، جمعوا بين انحراف العقيدة وانحراف السلوك، وكان انحرافهم شذوذا في التاريخ الإنساني، فقد كانوا يأتون الذكران من العالمين، ويأتون في ناديهم المنكر، فجاهدهم لوط جهادا عظيما، حتى أنزل الله بهم العذاب .

وفي هذا الحديث طرف من أخبار لوط، جاء ليفصل بعض ما جاء في القرآن، ويضيف إلى أخبار القرآن أخبارا لم تذكر فيه، ويدفع عن نبي الله لوط ما افتراه عليه مرضى القلوب الذين نسبوا إليه ما سعى طيلة عمره لمحاربته ومقارعته .

نص الحديث

روى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال:

« لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُ اللهِ لُوطاً ظَنَّ أَنَّهُمْ ضِيفَانٌ لِقَوْمِهِ، فَأَدْنَاهُمْ حَتَّى أَقْعَدَهُمْ قَرِيباً، وَجَاءَ بِبَنَاتِهِ وَهُنَّ ثَلاثٌ، فَأَقْعَدَهُنَّ بَيْنَ ضِيفَانِهِ وَبَيْنَ قَوْمِهِ، فَجَاءَ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا رَآهُمْ قَالَ: ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ [هود: ٧٨]، قالوا: ﴿ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]، قال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: ٨٠].

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ: ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ [هُود: ٨١]، قَالَ: فَطَمَسَ أَعْيُنَهُمْ فَرَجعُوا وَرَاءَهُمْ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، حَتَّى خَرَجُوا إِلى الَّذِينَ بِالْبَابِ، فَقَالُوا: جِئْنَاكُمْ مِنْ عِنْدَ أَسْحَرِ النَّاسِ قَدْ طَمَسَ أَبْصَارَنَا، فَانْطَلَقُوا يَرْكَبُ بَعْضُهُم بَعْضاً، حَتَّى دَخَلُوا القَرْيَةِ، فَرُفِعَتْ فِي بَعْضِ اللَّيلِ، حَتَّى كانت بين السَّماء والأرض، حَتَّى إنهم لَيَسْمَعُونَ أَصْوَاتَ الطَّيْرِ، فِي جَوِّ السَّماء، ثُمَّ قُلِبَتْ فَخَرَجَتْ الأَفكَةُ عَلَيْهِمْ فَمِنْ أَدْرَكَتْهُ الأَفكَةُ قَتَلَتْه، وَمَنْ خَرَجَ اتْبَعَتْهُ حَيْثُ كَانَ حَجَراً فَقَتَلَتْهُ .

قَالَ: فَارْتَحَلَ بِبَنَاتِه وَهُنَّ ثَلاث، حَتَّى إذا بَلَغَ مَكَانَ كَذَا وَكَذَا من الشام فَمَاتَتْ ابْنَتُهُ الكُبْرَى، فَخَرَجَتْ عندها عَيْنٌ يُقَالُ لها الوَرِيَّةَ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَيْثُ شَاء الله أن يَبْلُغَ فَمَاتَتْ الصُّغْرَى، فَخَرَجَتْ عِنْدَها عَيْنٌ يقال لها الرعزِيَّة فَمَا بَقِي مِنْهُنَّ إلاَّ الوُسْطَى ».

تخريج الحديث

أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٢/٣٧٥) في كتاب التفسير، (تفسير سورة هود)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي على تصحيحه .

وقال الحاكم: « ولعل متوهما يتوهم أن هذا وأمثاله في الموقوفات، وليس كذلك، فإن الصحابي إذا فَسَّر التلاوة، فهو مسند عند الشيخين » .

شرح الحديث

يعرض هذا الحديث ما جاء به القرآن من أخبار لوط عليه السلام، فيذكر أن الملائكة جاءته في صورة شباب حسان الوجوه، فاستضافهم وخشي عليهم من قومه، ظانا أنهم ضيفان حلوا في هذه القرية غير عارفين بطباع أهلها، وما هم عليه من فساد .

فلما دخلوا داره، علم بهم قومه، فجاؤوه زرافات ووحدانا، يريدون الاعتداء على ضيوفه، وفعل الفاحشة بهم، فجعل بناته بينهم وبين قومه، وعرض عليهم أن يزوجهم بناته، فأبوا وأصروا على فعل المنكر الذي يريدونه، فتضايق نبي الله لوط أيما ضيق، وتمنى لو أن معه قوة تناصره، وتدفع عنه أذى قومه، وترد عدوانهم .

عند ذلك أخبره جبريل بحقيقة أمرهم، وأنهم رسل الله، ولا يستطيع هؤلاء الضعفاء الأغبياء أن يضروهم أو يصلوا إليهم، وقد ضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم، ففروا كالفئران المذعورة مدبرين خائفين وجلين .

فلما كان آخر الليل رفعوا إلى السماء: أرضهم، ومدنهم، وحيواناتهم، ونباتهم، حتى سمعت الملائكة أصوات طيرهم في جو السماء، فقلبت ديارهم، فأصبح عاليها سافلها، وأتبعوا بحجارة من سجين منضود، فلم ينج منهم أحد .

وهذا كله موجود في القرآن، والجديد الذي لم يذكر في القرآن أن الذي نجا من أهله من عذاب الله بناته الثلاث، فسار بأهله إلى أرض الشام، فماتت ابنته الكبرى أثناء مسيره في أرض الشام، فأخرج الله عندها عين ماء يقال لها: الوربة، ثم انطلق، مبتعدا عن ديار المعذبين فماتت الصغرى، وخرج في المكان الذي توفيت فيه عين ماء تدعى الرعزية، ولم يبق من بناته معه إلا ابنته الوسطى .

قصة لوط في التوراة

من يطالع التوراة يجد كثيرا من أحداث قصة لوط واضحة المعالم فيها، ويجد القرآن يصدق كثيرا من أحداثها ووقائعها، إلا أن فيها تحريفات بعضها صغير، وبعضها كبير وخطير.

فمن هذه التحريفات ادعاؤهم أن الملائكة الذين مروا في طريقهم على إبراهيم أكلوا من الطعام الذي قدمه لهم، فقد جاءهم - كما تقول التوراة - بعجل مشوي، مصحوبا باللبن والزبد، فأكلوا مما قدمه لهم « سفر التكوين . الإصحاح: ١٨ . فقرة: ٨ » ولما جاؤوا لوطا أكلوا أيضا من الخبز والعسل الذي ضيفهم به« سفر التكوين . الإصحاح: ١٩ . فقرة: ٣ » .

وقد نفى هذا الزعم وأبطله قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٦٩-٧٠] .

فالملائكة لم تمتد أيديهم إلى الطعام، ولذلك أنكرهم إبراهيم وأوجس خيفة منهم، فالذين لا يأكلون طعام الضيافة في الغالب أعداء جاؤوا يريدون شرا، ولذلك كشفوا له عن حقيقتهم، فبان عذرهم إذ الملائكة بطبيعتهم لا يأكلون، ولا يشربون.

ومن تحريفات التوراة التي صوبها القرآن أن عدد الملائكة كان فوق الإثنين، لا كما تقول التوراة أنهم كانوا ملكين فقط، ومن المعلومات التي صوبها الحديث أن لوطاً وضع بناته بين ضيوفه وقومه عندما دخلوا عليه داره.

بينما تذكر التوراة أن لوطا خرج إلى قومه خارج المنزل، وأغلق الباب وراءه، وأخطر ما في تحريف التوراة ما نسبوه إلى نبي الله لوط عليه السلام كذبا وزورا، فقد زعموا أن لوطا الذي قضى عمره كله يحارب الفاحشة قد زنى بابنتيه.

وهم يزعمون أن ابنتيه تآمرتـا عليـه بعـد أن خـرج مـن قريتـه الـتي عُذِّبَـتْ، وسكن في مغارة في الجبل قـرب مدينـة صوعـر، فخشـيت ابنتـاه أن ينقطـع نسـل والدهما، فأسقتاه خمرا في ليلتـين متواليتـين حتـى ثمـل، ثـم اضجعـت معـه البنـت الكبرى في الليلة الأولى، ثم اضجعت معه الصغرى في الليلـة الثانيـة، وحملتـا منـه، وكان من نسل أحدهما الموآبيين، ومن نسل الثانية العمونيين .

وقد كذبوا والله، فرسل الله معصومون من الوقـوع في الفاحشـة، ومـا كـان الله ليوقع هذا النبي في الفاحشة، وهو الطاهر الذي حاربها طوال عمره، وما كان للبنـات الصالحـات اللاتـي أنجـاهن الله مـن قريـة المعذبين لطهـارتهن أن يرتكـبن الفاحشة مع أبيهن، حاشا وكلا، ولكنها النفوس الخبيثة القذرة تأبى إلا أن تحـاول تقذير الأطهار الأبرار .

ومن يعلم صفات الأنبياء وأحوالهم يعلم كـذب هـذه المفتريـات، ومـن يقـرأ قصة لوط في القرآن، وهي قصة مفصلة الأحداث يـزداد يقينـه بكـذب مـا يقولـه محرفو التوراة .

وجاء هذا الحديث ليذكر الحقيقة ويجليها، فلوط لم تكن لـه ابنتـان فحسـب كما تزعم التوراة المحرفة، بل ثلاث بنات، ولوط لم يسكن المغـارة، ولكنـه رحـل إلى أرض الشام، وقد توفيت ثنتان من بناته في حياته أثناء رحلته، وبقيت واحدة .

فالتفصيلات المتعلقة ببنات لوط في التوراة باطلة ومحرفة، والقـارئ للحديـث يجد كأن الحديث مسوق لتكذيب تلك المفتريات التي نسبت إلى لوط، ولـذا جـاء الحديث ليوضح الحقيقة، وفي توضيحها تبرئة لنبي الله لوط مما افتراه عليه الظالمون.

عبر الحديث وفوائده

١ ـ ذكر الرسول ﷺ في الحديث بعض الأخبار المتعلقة بلوط مما ليس له ذكر في القرآن .

٢ ـ صوب الحديث تحريفات التوراة كما صوبها القرآن .

٣ ـ تبرئة نبي الله لوط من افتراءات محرفي التوراة عليه .

٤ ـ تكذيب مزاعم محرفي التوراة أن الموابيين والعمونيين أولاد زنا .

٥ ـ بيان عظم جريمة اللواط، وبيان عظم العقوبة التي حلت بمرتكبي هذه الجريمة، وأن هذه العقوبة غير بعيدة عن الظالمين الذين يفعلون فعل قوم لوط .

القصة السابعة

محاجّة آدم وموسى

تمهيد

هذه القصة لا تُعْلَمُ إلا من قبل الوحي، ذلك أنها تتحدث عن لقاء لم يشهده بشر، لقاء بين آدم وموسى عليهما السلام، وقد تمّ هذا اللقاء بناء على طلب موسى، ولا ندري كيف تم، ولكننا نوقن بوقوعه تصديقاً لخبر الرسول ﷺ.

وقد حدث مثل هذا مع رسولنا ﷺ عندما التقى بالأنبياء في الإسراء، وصلى بهم إماماً في المسجد الأقصى، وخاطب بعضهم في عروجه إلى السموات.

وقد كان هدف موسى من وراء اللقاء محاورة آدم وتأنيبه؛ لإخراجه نفسه وذريته من الجنة بسبب الذنب الذي أذنبه، ولكن آدم أدلى بحجة أسكتت موسى، وشهد الرسول ﷺ لآدم بأنه حجَّ موسى عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

نص الحديث

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة ﷺ قال: (قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلام عِنْدَ رَبِّهِمَا، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، قَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الأَرْضِ؟

فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلامِهِ، وَأَعْطَاكَ الأَلْوَاحَ

فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا، فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ مُوسَى بِأَرْبَعِينَ عَامًا.

قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [طه: ١٢١]، قَالَ: نَعَمْ . قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلاً كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى).

وهذا السياق لمسلم .

وجاء في رواية عند البخاري: (احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجَتْكَ خَطِيئَتُكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالاَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ، ثُمَّ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، مَرَّتَيْنِ) .

وجاء في البخاري أيضاً: (احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا، وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ؟ قَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَى، اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلاَمِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، ثَلاَثًا) .

تخريج الحديث

روى هذا الحديث البخاري عن أبي هريرة في كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى: ٤٤٠/٦ . ورقمه: ٣٤٠٧ وفي كتاب التفسير، باب ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ [طه: ٤١] . ٤٣٤/٨ . ورقمه ٤٧٣٦ . وفي كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى ٥٠٥/١١ ورقمه: ٦٦١٤، وفي كتاب التوحيد، باب ما جاء في قوله ﷻ: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤].

ورواه مسلم في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى، ٢٠٤٢/٤ . ورقمه: ٢٦٥٢ .

شرح الحديث

الحياة الدنيا تعب وعناء، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد:٤]. ويظهر هذا العناء في كل أمر من الأمور، فاللقمة التي يأكلها الإنسان لا تأتي إلا بعد عناء، والشربة كذلك، وكذا اللباس والسكن، أضف إلى هذا ما يصاب به الإنسان من الأمراض، وما يكيده به أعداؤه وأصدقاؤه، وقد يأتيه الأذى من أولاده وأقربائه.

وقد عانى موسى ما عاناه من فرعون وحزبه، فقد فرّ من مصر إلى مدين بعد قتل القبطي، ورعى الغنم هناك عشر سنوات أو ثماني سنوات، وبعد أن أرسله الله عانى ما عاناه من فرعون، وعانى من عناد بني إسرائيل وتمردهم وأذاهم، ولعله في وقت من الأوقات دار في خلده أن سبب هذا العناء كله كان بسبب آدم الذي أخرج نفسه وذريته من الجنة، فقد أسكنه الله الجنة بعد أن خلقه، وأباح له ثمارها وأنهارها إلا شجرة واحدة، وتعهد له بأن لا يجوع فيها ولا يعرى، وأنه لا يظمأ فيها ولا يضحى .

فلما عصى آدم ربه، وأكل من الشجرة المنهي عن الأكل منها أنزله الله من دار البقاء إلى دار الشقاء، وأصبح البشر لا يتمكنون من العيش إلا بمعاناة شديدة.

ولذا فإن موسى عليه السلام عندما التقى بأبيه آدم وجه إليه اللوم على إخراجه نفسه وذريته من دار النعيم، وقد ذكّر موسى آدم في مخاطبته له بما حباه الله به من فضل، فقد خلقه الله بيده، وخلق بقية خلقه بكلمة ﴿كُن﴾، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، ومن حباه الله بذلك كله حري به أن لا يعصي ربّه، ويهبط نفسه وذريته من الجنة .

وواجه آدم لومَ موسى عليه السلام بلوم مثله، فقد أنكر عليه اعتراضه، وأنكر عليه أن يصدر هذا التأنيب من مثله، وقد ذكر آدم فضل موسى الذي حباه الله به، فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح

فيها تبيان كلِّ شيء، وقربك نجيا، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟
قال موسى: بأربعين سنة .

قال آدم: فهل وجدت فيها، ﴿ وَعَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه/١٢١] .

قال: نعم .

قال أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟

وقد حكم رسولنا ﷺ أن آدم حَجَّ موسى، وقد يقال: ما وجه ذلك ؟ وكيف انتصر عليه في الحجاج ؟

والجواب: أن موسى عليه السلام لام آدم على إخراجه نفسه وذريته من الجنة، فقال له آدم: أنا لم أخرجكم من الجنّة، بل الله هو الذي رتب الإخراج على أكلي من الشجرة، فالإخراج ليس لازما لو لم يرده الله تبارك وتعالى، فإنه كان يمكن أن يغفر الله له من غير إخراجه من الجنة، ويمكن أن يرتب الله عليه عقوبة غير الإخراج، ولكن تقتضي حكمته أن يخرجه من الجنة لمصالح كثيرة وعظيمة يعلمها، ولذا فإن آدم لام موسى على لومه له على أمر شاءه الله وقدره، وهو غير لازم لفعل آدم عليه السلام .

وقد ردَّ هذا الحديث المكذبون بالقدر، لأنه يتضمن إثبات القدر السابق، والنصوص المثبتة للقدر قطعية الثبوت قطعية الدلالة، لا مجال فيها للتكذيب والإنكار، ومن كذب بها لم يكن على بينة من أمره .

واحتج به الجبرية على أن العبد مجبور على فعله، ولا حجة لهم فيه، وآدم لم يَحُجَّ موسى بهذه الطريق، والأمر على ما بينته وقررته، والله أعلم .

عبر الحديث وفوائده

١- جواز المحاورة بين الصالحين فيما أشكل عليهم، كما تحاور آدم وموسى، وعلى المتحاورين أن ينصاعوا للحق إذا ظهر لهم بعد خفائه، كما انصاع موسى لحجة آدم .

٢- يجب الإيمان بالغيب الصادق، فقد مدح الله المؤمنين بإيمانهم بالغيب، ومن هذا الغيب ما أخبرنا به الرسول ﷺ من الحوار الذي جرى بين آدم وموسى، أما الغيب الذي يدعيه بعض الناس، مما لم يقم دليل على صحته فهو من القول على الله بغير علم .

٣- يَحْسُنُ بالمتحاورين أن يعرف كل واحد منهم فضل الذي يحاوره، فقد ذكر كل من موسى وآدم فضل الآخر، وذكر ما حباه الله به .

٤- هذا الحديث يدل على إثبات القدر السابق، والنصوص في ذلك كثيرة، وفيه رد على القدرية النفاة الذين ينفون القدر السابق، ومنهم المعتزلة .

٥- بيان الفضائل التي اختص الله بها آدم، فقد خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، واختص موسى برسالاته وكلامه، وأعطاه الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربه نجيا، وهذه الفضائل لكل منهما؛ بعضه منصوص عليه في القرآن، ودلت على بعضه أحاديث أخرى غير هذا الحديث .

٦- إثبات صفة اليد لله تعالى، فلا يجوز نفي هذه الصفة، ولا التكذيب بها، كما لا يجوز تشبيه يد الله بأيدي المخلوقات، على حد قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

٧- ذكر بعض العلم الذي كان موجوداً في التوراة التي أنزلها الله على موسى، فقد أخبر الرسول ﷺ أن فيها: وعصى آدم ربه فغوى .

وهذا النص موجود في القرآن كما هو في التوراة التي أنزلها الله، ولا وجود

هذا النص في التوراة الموجودة اليوم .

٨ـ في الحديث حقيقة علمية غيبية، وهي أن الله كتب التوراة قبل أن يخلق آدم بأربعين سنة .

٩ـ فيه إثبات أن الله كتب التوراة بيده، وهذا من فضائل التوراة، وهو من فضائل موسى عليه السلام .

القصة الثامنة

قصة موسى والخضر

تمهيد

قصة موسى والخضر المذكورة في سورة الكهف من روائع القصص، فقد خرج موسى من دياره طالبا العلم، عندما أعلمه ربه أن في الأرض من هو أعلم منه، وقد جاء في السنة النبوية مزيد بيان وتفصيل لما ذكره القرآن في هذه القصة، فقد أخبرنا رسولنا ﷺ بالسبب الذي أخرج موسى من دياره، كما أخبرنا باسم العبد الصالح الذي رحل إليه موسى، وبعضا من أقواله وأحواله .

نص الحديث

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، قَالَ: « قُلْتُ لابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ: أَنَّ مُوسَى صَاحِبَ الْخَضِرِ لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ، حَدَّثَنِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، فَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا، فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ .

فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ، وَانْطَلَقَ مَعَهُ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا فَنَامَا، وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ [الكهف/٦١]

وَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الْحُوتِ جِرْيَةَ الْمَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ مُوسَى: ﴿ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]، قَالَ: وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَا الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ [الكهف: ٦٣]، قَالَ: فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَلِمُوسَى وَلِفَتَاهُ عَجَبًا، فَقَالَ مُوسَى: ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف: ٦٤] .

قَالَ: رَجَعَا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا، حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى ثَوْبًا، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلامُ!! قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا، قَالَ: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٧]، يَا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لا أَعْلَمُهُ، فَقَالَ مُوسَى: ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ [الكهف: ٦٩]، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٠].

فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ، فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَفْجَأْ إِلا وَالْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ بِالْقَدُومِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ قَدْ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ [الكهف: ٧١] .

قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : وَكَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا.

قَالَ وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً، فَقَالَ لَهُ

الْخَضِرُ: مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إلا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَـذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَـذَا الْبَحْرِ.

ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيْنَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذْ أَبْصَرَ الْخَضِرُ غُلامًا يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ بِيَدِهِ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ، فَقَتَلَـهُ فَقَـالَ لَـهُ مُوسَـى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْـرًا قَـالَ أَلَـمْ أَقُـل لَّـكَ إِنَّـكَ لَـن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٤-٧٥]، قَالَ وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الأولَى.

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْـتَ مِـنْ لَدُنِّـي عُـذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَـا فَـأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَـا فَوَجَـدَا فِيهَـا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧]، قَالَ: مَائِلٌ، فَقَامَ الْخَضِرُ فَأَقَامَـهُ بِيَـدِهِ، فَقَالَ مُوسَى: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا ﴿لَـوْ شِـئْتَ لاتَّخَـذْتَ عَلَيْـهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٧-٧٨]، إِلَى قَوْلِهِ ﴿ذَلِـكَ تَـأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ حَتَّـى يَقُـصَّ اللهُ عَلَيْنَـا مِـنْ خَبَرِهِمَا).

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ، ﴿وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَـأْخُذُ كُـلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَـةٍ غَصْبًـا﴾ وَكَـانَ يَقْـرَأُ: ﴿وَأَمَّـا الْغُـلامُ فَكَـانَ كَـافِرًا، وَكَـانَ أَبَـوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف: ٧٩].

وفي رواية أيضا في الصحيحين: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: إِنَّا لَعِنْدَ ابْنِ عَبَّـاسٍ فِي بَيْتِهِ إِذْ قَالَ: سَلُونِي، قُلْتُ أَيْ أَبَا عَبَّـاسٍ جَعَلَنِـي اللهُ فِـدَاءَكَ، بِالْكُوفَـةِ رَجُـلٌ قَاصٌّ يُقَالُ لَهُ: نَوْفٌ، يَزْعُمُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُوسَى بَنِي إِسْـرَائِيلَ، أَمَّا عَمْـرٌو فَقَـالَ لِـي: قَالَ: قَدْ كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ، وَأَمَّا يَعْلَى فَقَالَ لِي: قَـالَ ابْـنُ عَبَّـاسٍ: حَدَّثَنِـي أُبَـيُّ بْـنُ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مُوسَـى رَسُـولُ اللهِ عَلَيْـهِ السَّلام قَـالَ: ذَكَّـرَ النَّاسَ يَوْمًا حَتَّى إِذَا فَاضَتِ الْعُيُونُ، وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ وَلَّـى، فَأَدْرَكَـهُ رَجُـلٌ، فَقَـالَ: أَيْ رَسُولَ اللهِ، هَلْ فِي الأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ: لا، فَعَتَبَ عَلَيْـهِ إِذْ لَـمْ يَـرُدَّ

الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ، قِيلَ: بَلَى، قَالَ أَيْ رَبِّ فَأَيْنَ؟ قَالَ: بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ.

قَالَ: أَيْ رَبِّ اجْعَلْ لِي عَلَمًا أَعْلَمُ ذَلِكَ بِهِ، فَقَالَ لِي عَمْرٌو: قَالَ: حَيْثُ يُفَارِقُكَ الْحُوتُ، وَقَالَ لِي يَعْلَى: قَالَ: خُذْ نُونًا مَيِّتًا حَيْثُ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَأَخَذَ حُوتًا، فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، فَقَالَ لِفَتَاهُ: لا أُكَلِّفُكَ إِلا أَنْ تُخْبِرَنِي بِحَيْثُ يُفَارِقُكَ الْحُوتُ، قَالَ مَا كَلَّفْتَ كَثِيرًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ [الكهف: ٦٠]، يُوشَعَ بْنِ نُونٍ لَيْسَتْ عَنْ سَعِيدٍ.

قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ فِي مَكَانٍ ثَرْيَانَ، إِذْ تَضَرَّبَ الْحُوتُ وَمُوسَى نَائِمٌ، فَقَالَ فَتَاهُ: لا أُوقِظُهُ حَتَّى إِذَا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ أَنْ يُخْبِرَهُ، وَتَضَرَّبَ الْحُوتُ حَتَّى دَخَلَ الْبَحْرَ، فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُ جِرْيَةَ الْبَحْرِ، حَتَّى كَأَنَّ أَثَرَهُ فِي حَجَرٍ، قَالَ لِي عَمْرٌو هَكَذَا كَأَنَّ أَثَرَهُ فِي حَجَرٍ، وَحَلَّقَ بَيْنَ إِبْهَامَيْهِ وَاللَّتَيْنِ تَلِيَانِهِمَا.

﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف: ٦٢]، قَالَ: قَدْ قَطَعَ اللَّهُ عَنْكَ النَّصَبَ، لَيْسَتْ هَذِهِ عَنْ سَعِيدٍ، أَخْبَرَهُ، فَرَجَعَا فَوَجَدَا خَضِرًا، قَالَ لِي عُثْمَانُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ: عَلَى طِنْفِسَةٍ خَضْرَاءَ، عَلَى كَبِدِ الْبَحْرِ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مُسَجًّى بِثَوْبِهِ، قَدْ جَعَلَ طَرَفَهُ تَحْتَ رِجْلَيْهِ، وَطَرَفَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ: هَلْ بِأَرْضِي مِنْ سَلامٍ؟ مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا شَأْنُكَ قَالَ: جِئْتُ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا. قَالَ: أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ التَّوْرَاةَ بِيَدَيْكَ، وَأَنَّ الْوَحْيَ يَأْتِيكَ؟ يَا مُوسَى، إِنَّ لِي عِلْمًا لا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَهُ، وَإِنَّ لَكَ عِلْمًا لا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَعْلَمَهُ، فَأَخَذَ طَائِرٌ بِمِنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ، وَقَالَ وَاللَّهِ مَا عِلْمِي وَمَا عِلْمُكَ فِي جَنْبِ عِلْمِ اللَّهِ إِلا كَمَا أَخَذَ هَذَا الطَّائِرُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ.

حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ وَجَدَا مَعَابِرَ صِغَارًا تَحْمِلُ أَهْلَ هَذَا السَّاحِلِ إِلَى أَهْلِ هَذَا السَّاحِلِ الآخَرِ، عَرَفُوهُ، فَقَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ الصَّالِحُ قَالَ: « قُلْنَا لِسَعِيدٍ: خَضِرٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، لا نَحْمِلُهُ بِأَجْرٍ، فَخَرَقَهَا، وَوَتَدَ فِيهَا وَتِدًا.

قَالَ مُوسَى: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ [الكهف: ٧]،

قَالَ مُجَاهِدٌ مُنْكَرًا ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٢]، كَانَتِ الأُولَى نِسْيَانًا، وَالْوُسْطَى شَرْطًا، وَالثَّالِثَةُ عَمْدًا ﴿ قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ [الكهف: ٧٣].

لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ، قَالَ يَعْلَى: قَالَ سَعِيدٌ: وَجَدَ غِلْمَانًا يَلْعَبُونَ، فَأَخَذَ غُلامًا كَافِرًا ظَرِيفًا، فَأَضْجَعَهُ ثُمَّ ذَبَحَهُ بِالسِّكِّينِ ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ [الكهف: ٧٤].

لَمْ تَعْمَلْ بِالْحِنْثِ، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَرَأَهَا زَكِيَّةً (زَاكِيَةً) مُسْلِمَةً، كَقَوْلِكَ غُلامًا زَكِيًّا.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف: ٧٧]، قَالَ: سَعِيدٌ بِيَدِهِ هَكَذَا، وَرَفَعَ يَدَهُ فَاسْتَقَامَ.

قَالَ يَعْلَى: حَسِبْتُ أَنَّ سَعِيدًا قَالَ فَمَسَحَهُ بِيَدِهِ فَاسْتَقَامَ ﴿ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الكهف: ٧٨]، قَالَ سَعِيدٌ أَجْرًا نَأْكُلُهُ .

﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ ﴾ [الكهف: ٧٩]، وَكَانَ أَمَامَهُمْ، قَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَامَهُمْ مَلِكٌ، يَزْعُمُونَ عَنْ غَيْرِ سَعِيدٍ أَنَّهُ هُدَدُ بْنُ بُدَدَ، وَالْغُلامُ الْمَقْتُولُ اسْمُهُ يَزْعُمُونَ جَيْسُورٌ .

﴿ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩]، فَأَرَدْتُ إِذَا هِيَ مَرَّتْ بِهِ أَنْ يَدَعَهَا لِعَيْبِهَا، فَإِذَا جَاوَزُوا أَصْلَحُوهَا، فَانْتَفَعُوا بِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ سَدُّوهَا بِقَارُورَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بِالْقَارِ .

﴿ كَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ [الكهف: ٨٠]، وَكَانَ كَافِرًا .

﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾[الكهف: ٨٠]، أَنْ يَحْمِلَهُمَا حُبُّهُ عَلَى أَنْ يُتَابِعَاهُ عَلَى دِينِهِ .

﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً ﴾ [الكهف: ٨١]، لِقَوْلِهِ

﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ [الكهف: ٧٤]،

﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف: ٨١]، هُمَا بِهِ أَرْحَمُ مِنْهُمَا بِالأَوَّلِ الَّذِي قَتَلَ خَضِرٌ وَزَعَمَ غَيْرُ سَعِيدٍ أَنَّهُمَا أُبْدِلا جَارِيَةً، وَأَمَّا دَاوُدُ بْنُ أَبِي عَاصِمٍ، فَقَالَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ إِنَّهَا جَارِيَةٌ).

وفي رواية ثالثة: (عَنْ عُبَيْدِاللَّهِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ تَمَارَى هُوَ وَالْحُرُّ بْنُ قَيْسِ بْنِ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ فِي صَاحِبِ مُوسَى، فَمَرَّ بِهِمَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، فَدَعَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: إِنِّي تَمَارَيْتُ أَنَا وَصَاحِبِي هَذَا فِي صَاحِبِ مُوسَى الَّذِي سَأَلَ السَّبِيلَ إِلَى لُقِيِّهِ، هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ شَأْنَهُ؟

فَقَالَ أُبَيٌّ: نَعَمْ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ شَأْنَهُ، يَقُولُ: (بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَتَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَى: لا، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى: بَلَى، عَبْدُنَا خَضِرٌ، فَسَأَلَ السَّبِيلَ إِلَى لُقِيِّهِ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْحُوتَ آيَةً، وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ، فَارْجِعْ، فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ فَكَانَ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، يَتَّبِعُ أَثَرَ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ فَتَى مُوسَى لِمُوسَى ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ [الكهف: ٦٣]، قَالَ مُوسَى: ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف: ٦٤]، فَوَجَدَا خَضِرًا فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا مَا قَصَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ).

والسياق في الأحاديث الثلاثة للبخاري .

تخريج الحديث

رواية البخاري في كتاب العلم عن ابن عباس عن أبي بن كعب، باب ما ذكر في ذهاب موسى في البحر إلى الخضر، ١٦٨/١ . ورقمه: ٧٤ .

ورواه في باب الخروج في طلب العلم، ١٧٤/١ . ورقمه: ٧٨ . وفي باب ما

يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله : ٢١٧/١ . ورقمه: ١٢٢.

ورواه في كتاب الإجارة، باب إذا استأجر أجيرا على أن يقيم حائطا: ٤٤٥/٤ . ورقمه: ٢٢٦٧.

وفي كتاب الشروط ، باب الشروط مع الناس بالقول : (٣٢٦/٥) ورقمه: ٢٢٧٦.

وفي كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣٢٦/٦) ورقمه: ٣٢٧٨. وفي كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى، ٤٣١/٦ . ورقمه: ٣٤٠٠، ٣٤٠١.

وفي كتاب التفسير، باب ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ [الكهف/٦٠]. ٤٠٩/٨ . ورقمه: ٤٧٢٥، وفي باب ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ [الكهف: ٦١]، ٤٧٢٦ . ورقمه ٤٢٢/٨، وباب ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ﴾ [الكهف: ٦٣]، ٤٢٢/٨ . ورقمه: ٤٧٢٧.

ورواه في كتاب الأيمان والنذر، باب إذا حنث ناسيا: ٥٥٠/١١ ورقمه: ٦٦٧٢ .

وفي كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة: ٤٤٨/١٣. ورقمه: ٤٤٨ .

ورواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس في كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر: ١٨٤٧/٤ . ورقمه: ٢٣٨٠.

وانظر شرح النووي على مسلم : ٥١٨/٥.

غريب الحديث

كذب عدو الله: قاله ابن عباس مبالغة في ردع الرجل وزجره، وليس مراده أن ينفي عنه ولاية الله .

خضر: ذكر الرسول ﷺ أن سبب تسميته بالخضر « أنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء » رواه البخاري .

مجمع البحرين: اختلف العلماء في تحديد المراد بالبحرين، وتحديد الموضع الذي يجمعهما، وليس عندنا دليل يحدد ذلك الموضع .

حوتا: الحوت السمكة .

مكتل: قفة أو زنبيل .

فهو ثمَّ: أي فهو هناك .

ثريان: مبلول.

تَضَرَّب الحوت: أي دبت فيه الحياة، واضطرب .

فتاه: أي صاحبه، وهو يوشع بن نون كما ثبت في بعض الروايات .

سربا: طريقا، ومذهبا .

الطاق: عقد البناء، وجمعه طيقان وأطواق .

نصبا: تعبا .

ما كنا نبغي: أي نطلب .

مسجًّى: مغطى .

وأنّى بأرضك السلام: من أين يأتي السلام في هذه الأرض ؟

بغير نول: بغير أجر .

إمرا: عظيما .

بغير نفس: بغير قصاص .

نكرا: عظيما .

رُحْما: أشد المبالغة من الرحمة .

ينقض: يسقط .

شرح الحديث

قام موسى عليه السلام يوما في بني إسرائيل خطيبا، فوعظهم موعظة رقت لها القلوب، وفاضت منها العيون، وكذلك الأنبياء إذا هم وعظوا يلينون القلوب القاسية، ويحركون النفوس الخاملة، ذلك أن أرواحهم وقلوبهم ملئت من خشية الله ومحبته، وأعطوا القدرة على البيان، ووهب لهم الكثير من العلوم .

وكثير من الذين يسمعون الخطباء المبدعين يعجبون بمن سمعوا إعجابا شديدا، وخاصة إذا كانوا من أنبياء الله، وقد تبع رجل موسى بعد أن أنهى خطبته، وترك مكان الاجتماع، وسأله: هل في الأرض أحد أعلم منك ؟ فقال: لا .

إن موسى عليه السلام من الرسل العظام، وهو من أولي العزم من الرسل، وهم خمسة، وقد حاز موسى المرتبة الثالثة بين الأنبياء والمرسلين، ولا يتقدم عليه في الفضل سوى نبينا محمد ﷺ وإبراهيم عليه السلام، وموسى كليم الله، آتاه التوراة فيها هدى ونور، وعلمه علما كثيرا، ولكن مهما بلغ العبد من العلم فإن عليه إذا سئل مثل هذا السؤال أن يتواضع لربه، ويقول: الله أعلم، فمهما أوتي العباد من العلم، فهو علم قليل بجانب علم الله .

وعتب الله على موسى إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فأوحى له: بلى، هناك من هو

أعلم منك، إن لي عبداً في مجمع البحرين عنده من العلم ما ليس عندك، فلما سمع موسى ذلك، عزم على الرحلة إلى العبد الصالح، ليستفيد منه علما .

وقد طلب من ربه أن يدله على مكان وجوده، فأخبره بأنه بمجمع البحرين، وأمره بأن يصحب حوتا ميتا معه، وأنه سيجد العبد الصالح في الموضع الذي سيحيي الله فيه الحوت، وسار موسى مع فتاه يطلب بمجمع البحرين، وأمر فتاه أن يخبره عندما تدب الحياة في الحوت، ووصلا إلى صخرة على شاطئ البحر، فاستلقى موسى في ظل الصخرة يستريح من عناء السفر، وهنا اضطرب الحوت في المكتل، ودبت فيه الحياة بقدرة الله، وقفز في البحر وشق له فيه طريقا بينا، فقد صار عليه الماء مثل الطاق، وأمسك الله جَرْي الماء عنه.

ورأى فتى موسى ما كان من الحوت، ولكنه لم يخبر موسى عليه السلام، لأنه كان نائما، وبعد قيامه من النوم نسي إخباره بما كان من الحوت، ولم يتذكر إلا بعد أن رحلا من ذلك المكان، وسارا بقية يومهما وليلتهما، وجاء موعد الغداء في اليوم التالي، فقد أمر موسى فتاه أن يأتيهما بغدائهما، فذكره الطعام بالحوت، فأخبر موسى بما كان من حاله، وأنه فقده عند الصخرة التي ناما في ظلها بالأمس، وقد كان سفرهما سهلا ميسرا حتى جاوزا المكان المحدد فشق عليهما المسار، وأخذ منهما التعب كل مأخذ .

وعاد موسى وفتاه يتتبعان الطريق الذي سلكاه في مسارهما متجهين نحو الصخرة التي قالا في ظلها، فالرجل الذي يطلبانه موجود هناك حيث فقدا الحوت.

وصلا الصخرة فوجدا العبد الصالح مستلقياً على أرض خضراء على شاطئ البحر، مغطى بثوب، طرفه تحت رجليه، وطرفه الآخر تحت رأسه .

فلما بلغاه بادره موسى بالسلام قائلا: السلام عليكم، ويبدو أن تلك البلاد كانت مطبقة كفرا، ولذا استغرب العبد الصالح أن يسمع السلام في تلك الديار، فقال: وأنى بأرضك السلام !! ثم سأل العبد الصالح موسى عن نفسه فعرَّفه،

وأخبره بمقصده، وأنه إنما جاء قاصدا صحبته، وتعلم العلم النافع منه .

فقال له مستنكرا رحلته إليه: أما يكفيك أن التوراة بيدك، وأن الوحـي يـأتي إليك ؟

ثم أخبره بأن هناك فرقا بين علميهما، فهما وإن كان مصدر علمهما واحدا، إلا أن لكل واحد منهما علما يخالف علم صاحبه، اختصه الله به: « يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علـم الله علمـك الله إياه لا أعلمه » .

وطلب موسى منه الإذن له بمصاحبته ومتابعته، فقـال لـه: إنـك لـن تستطيع معي صبرا، فتعهد له بـأن يكـون صـابرا بـإذن الله ومشيئته، فاشـترط عليـه أن لا يسأله عن شيء حتى يعلمه هو بتفسيره، ويبينه له .

ومشى موسى والخضر على شاطئ البحر يريدان أن يعبرا إلى الشاطئ الآخر، ووجدا سفينة صغيرة تحمل الركاب بين الشطين، فعرفـوا العبـد الصـالح، فحملـوه وموسى إلى الشاطئ الآخر بغير أجرة .

ورأى موسى والخضر طائرا وقع على حافة السـفينة ونقـر مـن البحـر نقـرة، فقال العبد الصالح لموسى عليه السلام: والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر .

وبينما هما في السفينة ما راع موسى إلا والخضر يخرق السفينة بخلع لوح من ألواحها، وضرب وتدا فيها، ونسي موسى وعده، وبادر بالإنكار عليه، فالإفسـاد في الأرض جريمة، ويزيد في الجرم إساءة المرء لمـن أحسـنوا لـه ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهـف: ٧١] ، وهنـا ذكّـر العبـد الصـالح موسـى بوعده ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢] لقـد كـان سـؤال موسى في المرة الأولى نسيانا، كما أخبرنا بذلك رسولنا ﷺ .

وخرج موسى والخضر يمشيان، فما راع موسى من الخضر إلا أن أخذ غلاما

صغيرا يتدفق حيوية ونشاطا، فأضجعه وذبحه، وقلع رأسه، وهنا لم يطيق موسى صبرا على ما رأى، فبادر بالإنكار، وهو عالم بالعهد الذي قطعه، ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

وواجه العبد الصالح لوم موسى بمثله، ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥].

وهنا وجد موسى نفسه في مواجهة حقيقية، وهي أنه لا يستطيع أن يمضي طويلا مع هذا الرجل، فهو لا يطيق أن يرى مثل هذه الأفعال ويسكت، **وهذا عائد لأمرين: الأول**: طبيعة موسى، فموسى تعوَّد بشخصيته القيادية أن يحاسب على كل فعل يراه، ولم يتعود أن يسكت إذا رأى أمرا لا يرضاه.

والثاني: أن شريعته لا تقره على أن يرى غلاما يقتل، ثم لا ينكر على من قتله، مهما كان هذا الفاعل .

وهنا أقر موسى واعترف للعبد الصالح، وطلب إعطاءه فرصة ثالثة وأخيرة، فإن سأله بعدها شيئا فله الحق في مفارقته .

وسار الرجلان حتى بلغا قرية أهلها بخلاء، طلب موسى والخضر منهم حق الضيافة، فما وجدا منهما إلا الصدود والإعراض، ومع ذلك فإن الخضر أصلح جدارا في القرية يوشك على السقوط وهو أمر فيه عجب، قوم يأبون أن يضيفوهم، فيصلح لهم هذا الرجل حائطهم من غير أجر يبذلونه !! .

وهنا اختار موسى أن يفارق العبد الصالح، ودل على ذلك سؤاله ذلك الرجل عن سبب إصلاحه الجدار من غير أجر لقوم لم يقدموا لهما القرى .

ولو صبر موسى على صحبة العبد الصالح لأخبرنا كثيرا من العجائب واللطائف التي وقعت له، ولكنه اختار فراقه بعد أن بين له العبد الصالح تأويل ما وقع منه، والسر وراء الأفعال التي قام بها، وهي مذكورة في سورة الكهف .

عبر الحديث وفوائده

١ - يجوز المذاكرة والمحاورة في العلم، فقد اختلف ابن عباس والحرُّ بن قيس في اسم الرجل الذي رحل إليه موسى ﷺ، هل هو الخضر أم غيره، وطلبا علما ممن عنده العلم، فروى لهما أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ هذا الحديث الذي يدل على صحة ما ذهب إليه ابن عباس .

٢ - على العالم أن يبث العلم الذي علمه في الناس، خاصة إذا كان العلم الذي عنده يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، فقد روى أبيٌّ بن كعب لابن عباس والحر بن قيس الحديث الذي فيه فصل ما اختلفا فيه ، وروى ابن عباس هذا الحديث لأصحابه ردّا على نوف البكالي الذي زعم أن صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل .

٣ - على العلماء ورثة الأنبياء أن يهتدوا بهدي الأنبياء بتذكير الناس بربهم، وتلاوة آيات الله عليهم، كي تزكو نفوسهم، وتلين قلوبهم، ويكونوا قريبين إلى ربهم، كما فعل موسى في وعظه قومه .

٤ - فضل الرحلة في طلب العلم، فقد رحل موسى إلى من هو أعلم منه، و لم يمنعه فضله ومكانته من أن يكون تابعا لمن يرجو عنده العلم .

٥ - مشروعية خدمة أهل العلم والفضل، فقد كان يوشع يخدم موسى ﷺ، وكان أنس بن مالك يخدم الرسول ﷺ .

٦ - مشروعية إخبار الرجل عن تعبه ومعاناته، لقول موسى: ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف: ٦٢]، ومثل ذلك إخبار الرجل عن آلام مرضه، بشرط أن لا يكون في الإخبار تسخط من المقدور .

٧ - الخضر لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله به، ولذا فإنه لم يَعْرِفْ موسى حتى سأله، و لم يَعْرِفْ الغاية من حضوره إليه حتى أعلمه .

٨ ـ قدرة الله على إحياء الموتى، فقد أحيا الله بقدرته الحوت الميت المملح، وكان في سير الحوت في البحر آية أخرى ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ . [الكهف: ٦١].

٩ ـ الرفق بالتابع والخادم، فقد نسي فتى موسى أن يخبره بإحياء الله للحوت، وقد كلفهما هذا سفرا طويلا زائدا عن حاجتهما، فلم يرهق موسى فتاه لوما وتأنيبا .

١٠ ـ ليس كل ما يظن الإنسان أنه قادر على فعله يفعله، فموسى قال للعبد الصالح: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩]، ثم تبين له صدق ظن العبد الصالح فيه، فهو لم يستطع صبرا معه .

١١ ـ قام العبد الصالح بعيب السفينة وقتل الغلام، وقد أخبر أن هذا الذي قام به بأمر الله وإرادته ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ . [الكهف: ٨٢]. ولذا لا يجوز لأحد لا يأتيه الوحي من السماء، ولم يبلغه شيء من علم الله أن يفسد ويقتل ويدمر، زاعما أن وراء فعله حِكَماً باطنة، فالعبد الصالح ليس من أتباع موسى، ولا من أتباع محمد ﷺ، ولو كان من أتباع أحدهما لما جاز له أن يتعدى الشرع المتعبد به .

١٢ ـ يستحب لمن صرح بعزمه على فعل شيء في المستقبل أن يقول إن شاء الله، كما قال موسى عليه السلام ﴿ ستجدني إن شاء الله صابرا ﴾ الكهف: ٦٩ . ولقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

١٣ ـ من أدب طالب العلم مع العالم أن يصبر عليه ويطيع أمره ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

١٤ ـ ضآلة علم البشر في جانب علم الله، وقد قال العبد الصالح لموسى: «ما علمي وعلمك في علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر من هذا البحر » .

١٥ - قد يخفى على العبد الحكمة من وراء جريان قدر الله في عباده، ثم يتبين له أن ما ظنه الإنسان شرا وبلاء ؛ إنما هو نعمة وخير، كما وقع لأصحاب السفينة، ولوالديّ الطفل الذي قتله الخضر .

١٦ - قد يهيء الله للأبناء الخير بصلاح الآباء، فقد أقام العبد الصالح الجدار، ليحفظ الكنز الذي تركه الأب الصالح لأولاده .

١٧ - الأدب مع الله في نسبة الخير إليه ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ [الكهف: ٨٢]. وترك نسبة الشر إليه، فقد عزاه العبد الصالح إلى نفسه ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وعزا فتى موسى الإنساء إلى الشيطان ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣].

١٨ - جواز ارتكاب أخف الضررين لتفويت أشدهما، فقد عاب العبد الصالح السفينة، ليسلم أصل السفينة، ولو أبقاها من غير عيب، لاستولى عليها الملك الذي يأخذ كل سفينة صالحة غصبا .

١٩ - إفساد بعض المال، لإصلاح معظمه، فقد أفسد الخضر بعض السفينة، ليسلم معظم السفينة، كأن يقطع الطبيب يد المريض خوفا من أن يسري فساده إلى بقية الجسد .

٢٠ - جواز ركوب البحر كما فعل موسى والعبد الصالح .

٢١ - مشروعيه حمل الزاد في السفر، فقد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا، ولو لم يحملا معهما طعاما، لما طلب منه إحضار الطعام وقد زعم أقوام من هذه الأمة أن حمل الزاد في السفر وخاصة سفر الحج ينافي التوكل ، وما أصابوا في دعواهم، كيف وقد أمر رب العزة الحجيج بالتزود لسفرهم : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾[البقرة: ١٩٧] .

٢٢ - مشروعية طلب القوت إذا لم يكن في البلد أماكن مخصصة لبيع الطعام .

٢٣ ـ قبول خبر الواحد في مسائل الاعتقاد خلافا لمن ادعى أن أخبار الآحاد ليست حجة في العقيدة، فقد قبل ابن عباس حديث أبي بن كعب وهو فرد، وقبل تلامذة ابن عباس خبر ابن عباس وهو واحد ، وأخبار الأنبياء من مسائل الاعتقاد .

٢٤ ـ لا صحة لقول من ادعى أن الخضر حي حتى يومنا، وهو قول لا دليل عليه، ولو كان حيا لجاء إلى الرسول ﷺ وتابعه، وقد بين العلماء الأعلام أمثال ابن القيم وابن كثير وأبو الفرج ابن الجوزي[١] أن ما ورد من الأحاديث المخبرة بحياته غير صحيحة، وقد أكثر بعض المؤلفين من ذكر الحكايات التي تدل على حياته، وهي حكايات لا تقوم بها حجة .

٢٥ ـ على المرء أن يتريث في الإنكار على أهل العلم والصلاح، ويستعلم منهم عن وجهة نظرهم فيما قاموا به مخالفين لما يظنه الصواب، فموسى كان يرى فعل العبد الصالح خطأ، وهو في الحقيقة صواب .

---

(١) راجع: المنار المنيف لابن القيم: ٦٧ . البداية والنهاية: ٣٣٤/١ الموضوعات لابن الجوزي: ١٩٧/١.

القصة التاسعة

قصة الحجر الذي فر بثوب موسى عليه السلام

تمهيد

اتهم جهال بني إسرائيل موسى ﷺ بوجود مرض خلقي في جسده يخفيه، وكان سبب هذه التهمة أن موسى كان يخفي عورته وسائر جسده عن الآخرين، لشدة حيائه، لقد ظن هؤلاء بنبيهم ظنا سيئا، ولما كان الله يريد لأنبيائه ورسله أن يكونوا أكمل الناس وخيرهم، وأن يكشف كل باطل يسيء لهم ويصد الناس عن متابعتهم، فإنه قد أطار الحجر بثياب موسى عندما وضعها عليه، وهو يغتسل، فرآه بنو إسرائيل عريانا لا عيب فيه، فعلموا بطلان ما قاله فيه المفترون .

نص الحديث

روى البخاري في صحيحه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلا حَيِيًّا سِتِّيرًا لا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ، إِمَّا بَرَصٌ، وَإِمَّا أُدْرَةٌ، وَإِمَّا آفَةٌ.

وَإِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى، فَخَلا يَوْمًا وَحْدَهُ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللهُ، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الْحَجَرُ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فَوَاللهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ، ثَلاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا

تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وفي روايه عنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاةً، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَكَانَ مُوسَى ﷺ يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ، فَقَالُوا وَاللَّهِ مَا يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلا أَنَّهُ آدَرُ، فَذَهَبَ مَرَّةً يَغْتَسِلُ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ، فَفَرَّ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ، فَخَرَجَ مُوسَى فِي إِثْرِهِ يَقُولُ: ثَوْبِي يَا حَجَرُ، حَتَّى نَظَرَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى مُوسَى، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ، وَأَخَذَ ثَوْبَهُ، فَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا) فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: (وَاللَّهِ إِنَّهُ لَنَدَبٌ بِالْحَجَرِ سِتَّةٌ أَوْ سَبْعَةٌ ضَرْبًا بِالْحَجَرِ).

وفي رواية ثالثة عنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلا حَيِيًّا وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾[سورة الأحزاب: ٦٩].

تخريج الحديث

هذا الحديث في صحيح البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء: ٤٣٦/٦ . ورقمه: ٣٤٠٤ . والرواية الثانية في البخاري في كتاب الغسل، باب من اغتسل عريانا . (٣٨٥/١) . ورقمه: ٢٧٨ .

والرواية الثالثة في البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾[سورة الأحزاب: ٦٩].. ٥٣٤/٨ .

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل: ١٨٤١/٤ باب فضائل موسى: ١٨٤١/٤ كما رواه في كتاب الحيض، باب جواز الاغتسال عريانا في الخلوة: ٢٦٧/١ . ورقمه: ٣٣٩ .

غريب الحديث

حييا ستيرا: كثير الحياء، والاستتار حين يكشف عورته لحاجة .

برص: مرض يصيب الجلد .

آدر: عظيم الخصيتين .

آفة: مرض أو عيب .

عدا بثوبه: مضى مسرعا به .

أبرأه مما يقولون: أزال التهمة التي أثارها حوله جهال بني إسرائيل .

طفق بالحجر ضربا: أخذ يضرب الحجر .

والندب: أثر الجرح في الجسد . والمراد به آثار ناتجة عن ضرب الحجر .

شرح الحديث

كان موسى ﷺ، شديد الحياء، والحياء خلق كريم، وكان رسولنا ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، ومدح الرسول ﷺ الحياء، فقال فيه: (الحياء خير كله).

وكان يجوز لبني إسرائيل أن يغتسل رجالهم عراة، ينظر أحدهم إلى الآخر، ولشدة حياء موسى كان يغتسل وحده، ولا يبدي شيئا من عورته ولا جسده .

وقد أشاع عنه بعض الجهال الذين لا يسلم من أذاهم أحد، حتى الرسل والأنبياء، فزعموا كذبا وزورا أن سبب استتار موسى عنهم وجود عيب في جسده يخفيه، إما انتفاخ في خصيتيه، وهو الأدرة، أو برص في جسده، وهو مرض يقذر الناس صاحبه، أو آفة من الآفات التي يسوؤه رؤية الناس لها .

ولا شك أن هذا القول آذى موسى ﷺ، والله لا يرضى الأذى لرسوله،

وهذه المقالة تضعف الثقة فيمن بعثه الله رسولا، فالرسل في أعين الناس ونظرهم يجب أن يمثلوا الأنموذج الكامل، الذي لا يخدشه شيء، لا في خَلْقِهِ، ولا خُلُقِهِ .

وقد شاء الله أن يبرأ موسى مما افتراه عليه المفترون، ورماه به الجاهلون، فقد ذهب موسى عليه السلام يوما يغتسل وحده كما هي عادته، ووضع ثيابه على حجر، فلما فرغ من غُسله، وجاء ليأخذ ثيابه، طار الحجر بثيابه، وفرّ بها، والحجر ليس به القدرة على الحركة والطيران، فهو جماد، ولكن الله طار به بطريقة لا نعلمها لحكمة يريدها، وهي تبرئة موسى مما نسب إليه.

وأذهلت المفاجأة موسى عليه السلام، فجرى وراء الحجر يناديه، ويقول: ثوبي يا حجر، ثوبي يا حجر، والحجر يمضي بثيابه، وهي صورة طريفة، فموسى النبي الكريم، والرجل الحيي الوقور، يجري عريانا وراء حجر طائر بثيابه، حتى إذا بلغ الحجر مجمعا من مجامع بني إسرائيل ورأوا موسى سليما معافى لا عيب فيه، وزالت بذلك الفرية التي رماه بها الجاهلون، وقف الحجر، وتناول موسى ثيابه ولبسها ثم أخذ عصاه، وأقبل على الحجر يضربه ضرب المحنق الغاضب على الإنسان المتمرد العاق الظالم.

.كان موسى يعلم أنه حجر ، ولكنه فعل فعلا لا تفعله الحجارة، ففعل معه فعلا لا يفعل بالحجارة، فضربه ضرب المؤدب، ومن عجب أن عصى موسى، وهي من خشب أثرت في الحجر الصلد القاسي، وتركت به ندوبا بعدد الضربات التي نالها من موسى، وفي العادة أن العصى لا تؤثر في الحجارة، فالحجر أقسى من العصا، وفي كثير من الأحيان تكسر العصا إن ضربت بها حجرا، ويسلم الحجر، ولكن عصا موسى من نوع آخر من العصي جعل الله فيها كثيرا من الخصائص، ومن ذلك أنها أثرت في الحجر وأحدثت به ستة ندوب أو سبعة .

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذه الواقعة في كتابه بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾[سورة الأحزاب: ٦٩]..

عبر الحديث وفوائده

١ - كان يجوز لرجال بني إسرائيل أن يغتسلوا عراة، وهذا مما نسخ في شريعتنا، وحرم علينا .

٢ - عظم حياء موسى عليه السلام، ومن حيائه ستره عورته، وعدم إظهار جسده للناس، على الرغم من عدم تحريم شريعته عليه ذلك .

٣ - لم ينج من أذية الجهال الرسل والأنبياء، فضلا عن الصالحين، وعلى المرء أن يواجه الأذى بالصبر .

٤ - برأ الله موسى عليه السلام مما رماه به المغرضون بطريقة آذت موسى عليه السلام، ولكنها أزالت الغمة، وكشفت الشبهة، ولله الحكمة البالغة، والقضاء الذي لا يرد .

٥ - في هذا الحديث آيتان من آيات الله في خلقه: فرار الحجر بثياب موسى، والحجر ليس من شأنه أن يطير أو يفر، وتأثير العصا في الحجر عندما ضربه موسى بها، وليس من شأن العصا أن تؤثر في الحجر .

٦ - الأنبياء أكمل الناس خَلْقاً وخُلُقاً، لأن الله يصطفي لحمل رسالته، والقيام بأمانته أفضل الناس وخير الناس .

٧ - قد يتصرف أصحاب الوقار والرزانة في المفاجآت تصرفات يخرجون فيها عن سمتهم الوقور، كجري موسى وراء الحجر عاريا، وضربه الحجر مؤدبا .

٨ - عدم صلاحية شريعة التوراة لأن تكون حاكمة في كل العصور، فبعض ما فيها كان صالحاً للعصور الخالية، ومن ذلك جواز كشف العورات حين الغسل، فإنه لا يصلح لهذه الأزمنة، ولذا فإن الله نسخه .

القصة العاشرة

موسى عليه السلام وملك الموت

تمهيد

كان موسى رجلا وجيها، وقائدا فذا ملهمـا، استطاع أن يقود أمة قاسية الطباع، كثيرة التردد في مواجهة الأمور قيادة حكيمة راشدة، وكان ذا خصائص فذة، وصاحب قدرات عالية، ومن كان مثله فإنه يتصرف تجاه الآخرين بما يناسب شخصيته تصرفا تلقائيا، ولذا فإن ملك الموت عندما جاء يستأذنه في قبض روحه لطمه لطمة فقأت عينه البشرية، فقد جاءه في صورة رجل، وقد خير موسى بين الانتقال إلى جوار ربه، أو يبقى في الدنيا دهورا طويلة قبل أن يأتيه الموت، ولكنه اختار جوار ربه على نكد الدنيا وبلائها، واستجاب الله دعاءه فقربه من الديار المقدسة رمية حجر، فَقَبْرُهُ هناك على مشارف تلك الديار .

نص الحديث

روى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: (أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلام، فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لا يُرِيدُ الْمَوْتَ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ عَيْنَهُ، وَقَالَ: ارْجِعْ فَقُلْ لَهُ: يَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَلَهُ بِكُلِّ مَا غَطَّتْ بِهِ يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ، قَالَ: أَيْ رَبِّ، ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ، قَالَ: فَالآنَ، فَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَوْ كُنْتُ ثَمَّ، لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ).

وفي رواية عند مسلم: (جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام فَقَالَ لَهُ: أَجِبْ رَبَّكَ، قَالَ: فَلَطَمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ فَفَقَأَهَا، قَالَ: فَرَجَعَ الْمَلَكُ إِلَى اللهِ تَعَالَى، فَقَالَ: إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَكَ لا يُرِيدُ الْمَوْتَ، وَقَدْ فَقَأَ عَيْنِي، قَالَ: فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ عَيْنَهُ، وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى عَبْدِي فَقُلِ الْحَيَاةَ تُرِيدُ؟ فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ، فَمَا تَوَارَتْ يَدُكَ مِنْ شَعْرَةٍ فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِهَا سَنَةً، قَالَ: ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: ثُمَّ تَمُوتُ. قَالَ: فَالآنَ مِنْ قَرِيبٍ رَبِّ . قَالَ : أَمِتْنِي مِنَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَاللهِ لَوْ أَنِّي عِنْدَهُ، لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ).

تخريج الحديث

الحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز، باب من أحب الدفن في الأرض المقدسة، ٢٠٦/٣ ورقمه: ١٣٣٩ . وفي كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى: ٤٤٠/٦ . ورقمه: ٣٤٠٧ ولم يصرح البخاري برفع أبي هريرة للحديث، وصرح به في آخر روايته له في أحاديث الأنبياء . قال: وأخبرنا معمر عن همام، حدثنا أبو هريرة عن النبي ﷺ .

ورواه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضل موسى ﷺ ١٨٤٢/٤ .

غريب الحديث

صكه: بمعنى لطمه في الرواية الأخرى .

متن الثور: ظهره .

رمية حجر: قدر ما يبلغه الحجر إذا رمي .

مه: استفهام، أي ثم ماذا، أحياة أم موت ؟

الكثيب الأحمر: الكثيب الرمل المجتمع .

أجب ربك: أي للموت، ومعناه جئت لقبض روحك .

فما توارت يدك: أي ما سترت ووارت .

شرح الحديث

أخبرنا رسولنا ﷺ أن من كرامة الأنبياء على ربهم أنهم يخيرون عند موتهم بين البقاء في الحياة أو الانتقال إلى الرفيق الأعلى، وقد صح في بعض الأحاديث عن عائشة أن الرسول ﷺ خير، فاختار الرفيق الأعلى .

وقد أرسل الله ملك الموت إلى موسى في صورة رجل، وطلب منه أن يجيب ربه، وكان ذلك إيذانا بأن أجله قد حضر، وأن ساعته قد دنت، وكان في موسى عليه السلام حدّة، فما كان منه إلا أن لطم وجه ملك الموت ففقأ عينه، أي عينه البشرية التي تمثّل بها، وإلا فلو كان في صورته الملائكية لما استطاع موسى لطمه، وما قدر عليه .

ورجع ملك الموت إلى ربه يشكو إليه ما أصابه من موسى عليه السلام، فرد عليه الله تلك العين، وأمره أن يعود إلى موسى ويطلب منه أن يضع يده على ظهر ثور، ثم يعد الشعرات التي غطتها يده، فيكون له بكل شعرة من تلك الشعرات سنة، ويكون أجله من السنوات بعدد تلك الشعرات، وبذلك ينال حياة مديدة، ولو فعل موسى ذلك فمن المرجح أن يكون لا زال حيا باقيا إلى اليوم .

ولكن موسى عندما استعلم من ملك الموت عما وراء تلك الحياة المديدة قال له: الموت . فاختاره من قريب . فما عند الله لرسله وأنبيائه والصالحين من عباده خير وأبقى .

إذا كانت أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تسرح في رياض الجنة تأكل من ثمارها، وتشرب من أنهارها، وتأوي إلى قناديل معلقة في سقف عرش

الرحمن، فإن حياة الرسل والأنبياء فوق ذلك كله، وماذا كان سينال موسى عليه السلام لو بقي حيا إلى يومنا، كان سيعاني من مصائب الحياة وبلاياها، وسيعاصر تلك الأحداث الكبار على مر التاريخ التي تشغل الفكر، وتدمي القلب، أو ليس خيرا له أن يكون في الرفيق الأعلى مع الرسل والأنبياء يتقلب في جنات النعيم، من أن يبقى في دار الشقاء والبلاء !! .

لقد خير موسى فاختار، اختار لقاء الله على حياة مديدة طويلة، فما عند الله خير وأبقى، والآخرة خير من الأولى .

وقد طلب من ربه عند قبض روحه أن يدنيه من الأرض المقدسة حتى يكون منها رمية بحجر .

وطلب موسى هذا يمثل ما يعتمل في كيانه من محبة للأرض المباركة، حتى إنه ليطلب أن يدفن على حدودها، قريبا منها، ولم يطلب من ربه أن يميته فيها، لأنه يعلم أن الله حرمها على الجيل الذي منه موسى عقابا لهم على عدم طاعتهم لربهم عندما أمرهم بدخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم فقالوا: ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، وكتب عليهم التيه في صحراء سيناء أربعين سنة .

واستجاب الله دعاء موسى، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن قبر موسى هناك على مشارف الأرض المباركة عند الكثيب الأحمر، وأنه لو كان هناك لأراه أصحابه.

فوائد الحديث وعبره

١ ـ دل الحديث على أن الأنبياء كانوا يخيرون قبل أن تقبض أرواحهم بين الحياة وبين الانتقال إلى رحمة الله، كما خير موسى في هذا الحديث، وقد سمعت عائشة رسول الله ﷺ الرسول يقول وهو في مرض موته: (اللهم الرفيق الأعلى)، فعلمت أنه خير فاختار .

٢ ـ قدرة الملائكة على التمثل في صورة الإنسان، كما تمثل ملك الموت في صورة البشر عند ما جاء إلى موسى عليه السلام .

٣ ـ الموت حق لا بد منه، ولو نجا منه أحد لنجا منه أنبياؤه ورسله .

٤ ـ مكانة موسى عند الله حيث لطم ملك الموت ففقأ عينه، ولولا كرامة موسى على الله لانتقم منه ملك الموت انتقاما شديدا .

٥ ـ وجود قبر موسى على مشارف الأرض المقدسة، وعلم الرسول ﷺ بموضع قبره، وقد حدد بعض العلامات الدالة على القبر، فهو بجانب الطريق، عند الكثيب الأحمر .

٦ ـ رغبة موسى عليه السلام أن يكون قبره قريبا من الأرض المباركة، ولا حرج على من أحب أن يموت في الأرض المباركة .

٧ ـ الأرض المقدسة المباركة لها حدود معروفة، وقد طلب موسى من ربه أن يدني قبره منها رمية بحجر، ولذا فهو مدفون خارجها، على مشارفها .

القصة الحادية عشرة

قصة عجوز بني إسرائيل

تمهيد

هذه قصة عجوز من عجائز بني إسرائيل، أتيحت لها فرصة عظيمة فاهتبلتها، لا لتحصل منها على مال الدنيا ومتاعها، ولكن لتحصل على الدرجات العالية في جنات النعيم، فقد طلب منها موسى أن تدله على قبر يوسف ليأخذ جسده معه عند خروجه ببني إسرائيل من مصر، فأبت إلا إذا أعطاها طلبها بأن تكون معه في الجنة يوم القيامة، فأعطاها الله طلبها، وهكذا تكون الهمم العالية، والنفوس التي ترغب في بلوغ المنازل الرفيعة، وقد تطلع جمع من الصحابة إلى بلوغ هذه المنزلة، من هؤلاء عكاشة بن محصن الذي طلب من الرسول ﷺ أن يكون من صفوة البشرية، وهم سبعون ألفا أخبر الرسول ﷺ أنهم يدخلون الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتفلون، فأخبر الرسول ﷺ عكاشة أنه منهم، ومنهم أبو بكر الذي تطلع إلى أن يدعى من جميع أبواب الجنة.

ومنهم ذلك الصحابي الذي طلب من الرسول ﷺ أن يكون رفيقه في الجنة، فقال له: أعني على نفسك بكثرة السجود.

نص الحديث

رَوى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ أَبِي مُوسَى: أن رسول الله ﷺ نزل بأعرابي فأكرمه فقال له: (يَا أَعْرَابِي سَلْ حَاجَتَكَ) قَالَ: يَا رَسُولُ الله، نَاقَة بِرَحْلِهَا، وَأَعْنُزٌ يَحْلُبُهَا أَهْلِي، قَالَهَا مَرَّتَيْنِ.

فَقَالَ لَهُ رسول الله ﷺ: (أَعَجَزْتَ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ) فَقَالَ أَصْحَابُه: يَا رَسُولُ اللهِ، وَمَا عَجُوزُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟

قَالَ: (إِنَّ مُوسَى أَرَادَ أَنْ يَسِيرَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَضَلَّ عَنْ الْطَّرِيقِ، فَقَالَ لَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، نَحْنُ نُحَدِّثُكَ أَنَّ يُوسُفَ أَخَذَ عَلَيْنَا مَوَاثِيقَ اللهِ أَنْ لا نَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ حَتَّى نَنْقُلَ عِظَامَهُ مَعَنَا، قَالَ: وَأَيُّكُمْ يَدْرِي أَيْنَ قَبْرَ يُوسُفَ ؟

قَالُوا: مَا نَدْرِي أَيْنَ قَبْرَ يُوسُفَ إِلا عَجُوزُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَقَالَ: دُلِّينِي عَلَى قَبْرَ يُوسُفَ . فَقَالَتْ: لا وَاللهِ لا أَفْعَلُ حَتَّى أَكُونَ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ) قَالَ: (وَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ مَا قَالَتْ فَقِيلَ لَهُ: أَعْطِهَا حُكْمَهَا فَأَعْطَاهَا حُكْمَهَا فَأَتَتْ بُحَيْرَةَ فَقَالَتْ: انْضُبُوا هَذَا الْمَاءَ فَلَمَّا نَضَبُوهُ قَالَتْ: احْفِرُوا هَهُنَا، فَلَمَّا حَفَرُوا إِذَا عِظَامُ يُوسُفَ، فَلَمَّا أَقَلُّوهَا مِنَ الأَرْضِ فَإِذَا الْطَّرِيقَ مِثْلَ ضَوْءِ الْنَّهَارِ) .

تخريج الحديث

هذا الحديث أخرجه الحاكم في مستدركه: (٢/٦٢٤) ورقمه: ٤٠٨٨. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه .

شرح الحديث

كان سبب تحديث الرسول ﷺ بقصة عجوز بني إسرائيل التي تضمنها هذا الحديث أنَّ أعرابيا استضاف الرسول ﷺ، فأكرم وفادته، فطلب منه الرسول ﷺ أن يأتيه، ليجزيه بالإحسان إحسانا، فلما جاءه سأله الرسول ﷺ حاجته، فطلب منه قليلا من متاع الدنيا وعرضها، إنه يريد ناقة برحلها لركوبه، وأعنزا لأهله يقتاتون بحليبها .

هنا استصغر رسول الله ﷺ حاجته وطلبه، وحدَّث حديث عجوز بني إسرائيل التي طلبت من موسى عليه السلام طلبا عظيما عندما أتيحت لها الفرصة، فقد

اشترطت عليه حتى تجيب طلبه أن تكون معه في الجنة .

لم تطلب من رسولها فضة ولا ذهبا، ولم تطلب جمالا أو بقرا أو غنما، فلو طلب هذا الأعرابي من الرسول ﷺ مثل طلبها عندما قال له الرسول ﷺ سل حاجتك، لأفلح أيما فلاح، فالرسول ﷺ مجاب الدعوة، ولو طلب منه أن يدعو له بخير الآخرة لنال خيرا كثيرا .

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن سبب اشتراط هذه العجوز على موسى مرافقته في الجنة أنها كانت تعلم علما لا يعلمه غيرها من بني إسرائيل، فقد كانت تعلم موضع قبر يوسف عليه السلام، وكان يوسف قد أخذ العهد على من كان عنده من بني إسرائيل أن يحملوا عظامه معهم عندما يخرجون من أرض مصر إلى الأرض المقدسة.

فلما أذن الله لموسى بالخروج هو وقومه، ضلوا الطريق، فتعجب موسى من ذلك، وعلم أن في الأمر سرا، فسأل من كان معه عما رأى من ضياعهم، فأعلمه علماؤهم بالميثاق الذي أخذه يوسف على آبائهم، عند ذلك سأل موسى عن قبر يوسف لينفذ طلبه، فلم يجد أحدا يعرف قبره إلا عجوزا من عجائز بني إسرائيل، فطلب منها أن تدلهم على قبر يوسف، فأبت إلا إذا حقق لها موسى طلبها، وعندما استفسر منها عما تطلبه، وجدها تطلب أمرا عظيما، إنها تريد أن تكون معه في الجنة .

فكره أن يعطيها طلبها، إما لأنه استكثر عليها هذه المنزلة، ورأى أن هذا العمل الذي ستقوم به لا يساوي تلك المنزلة التي تطلبها، وإما أنه لا يستطيع أن يعطيها أمرا لا يملكه، فأوحى الله إليه أن يعطيها حكمها، ومن طلب من الله معالي الأمور حقق الله له طلبه، وإن لم يبلغ مبلغ الذين يستحقون تلك المنزلة، فالذي يطلب الشهادة بصدق يبلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه، والذي يطلب منازل المنفقين أو العلماء يبلغه الله منازلهم، وإن لم يعمل عملهم .

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ بأن العجوز بعد أن أعطاها موسى حكمها ذهبت

بهم إلى موضع مستنقع ماء، وطلبت منهم أن ينضحوا ذلك الماء، واستخرجوا جسده من ذلك الموضع، فلما رفعوه وساروا به، أضاء لهم الطريق كأنما هم في ضوء النهار .

هذه الأخبار في التوراة

ليس في التوراة قصة عجوز بني إسرائيل، وقد ذكر في سفر التكوين، الإصحاح: ٥٠، فقرة: ٢٥ أخذ يوسف على بني إسرائيل العهد بإخراج عظامه معهم عندما يخرجون من أرض مصر، ونص فيها: « استحلف بني إسرائيل قائلا: الله سيفتقدكم، فتصعدون عظامي من هنا » وجاء في سفر الخروج، الإصحاح: ١٣ . فقرة ١٩ الإخبار بأخذ موسى عظام يوسف معه عند خروجه من مصر، جاء في تلك الفقرة: « وأخذ موسى عظام يوسف معه، لأنه قد استحلف بني إسرائيل قائلا: إن الله سينقذكم، فتصعدون عظامي من هنا معكم » .

وقد ذكرت التوراة ضياع بني إسرائيل أثناء خروجهم من مصر، غير أنها لم تعزه إلى عدم أخذ بني إسرائيل عظام يوسف معهم كما بينه الحديث، وإنما جعلت السبب هو الخوف من رجوع بني إسرائيل إلى أرض مصر إن قامت حرب مع جند فرعون (راجع: سفر الخروج، الإصحاح: ١٣ فقرة: ١٧).

وأما الإنارة التي وقعت لهم فكانت قبل حملهم عظام يوسف كما يفهم من التوراة، والصواب ما ذكره الحديث أن الإنارة وقعت بعد حملهم عظامه مباشرة، فرأوا طريقهم، واهتدوا إلى المسار الصحيح في خروجهم .

عبر الحديث وفوائده

١ ـ حث الرسول ﷺ أصحابه وأمته على طلب المنازل العالية كما فعلت هذه العجوز في طلبها من موسى عليه السلام، وقد صح عن الرسول ﷺ أنه طلب من صحابته أن يسألوا الله الفردوس، وهو وسط الجنة، وأعلى الجنة، وسقفه عرش الرحمن.

٢ ـ إخبار الرسول ﷺ ببعض الوقائع الدقيقة التي وقعت لأهل الكتاب مما لا يعرفه أهل الكتاب، ومن ذلك قصة هذه العجوز.

٣ ـ تصويب الحديث لبعض ما ذكر في التوراة من وقائع وأحداث.

٤ ـ وجود النساء الخيرات صاحبات الهمم العاليات في بني إسرائيل.

٥ ـ خبر أخذ يوسف العهد على بني إسرائيل بنقل عظامه إلى الأرض المقدسة، وخبر نقل بني إسرائيل لها، ولكننا لا نعلم الموضع الذي دفنت فيه.

٦ ـ جواز أخذ الأنبياء والصالحين العهود على أتباعهم وأقاربهم بفعل ما فيه صلاحهم.

٧ ـ العهود التي أخذت على أوائل الأمم لازمة لمن جاء بعدهم، فعهد يوسف الذي أخذه على من كان معه لزم الذين جاؤوا من بعد، وكذلك عهود بني إسرائيل التي أخذت على أوائلهم من الله أو من رسلهم لازمة لهم، وكذلك العهود التي أخذت على رسولنا ﷺ وصحابته.

٨ ـ قد يحرم العباد التوفيق إن لم ينفذوا مراد الله وشرعه، كما ضاع بنو إسرائيل عند تركهم عظام يوسف حال خروجهم.

٩ـ لا يناقض هذا الحديث ما صح عن رسولنا من أن الله حرّم على الأرض أكل أجساد الأنبياء، والمراد بعظام يوسف في الحديث جثته، وليس المقصود أنه

بلي، و لم يبق منه إلا عظامه .

١٠ـ عدم اهتمام بني إسرائيل في العهد الأول تقديس قبور الأنبياء بدلالة عدم معرفة بني إسرائيل وفيهم نبي الله موسى بموضع قبر يوسف عليه السلام.

القصة الثانية عشرة

قصة السامري الذي صنع العجل

تمهيد

في هذا الحديث بعض الإضافات والتفصيلات في قصة عبادة بني إسرائيل للعجل الذهبي الذي صنعه لهم السامري، وما فعل موسى بالعجل، وكيف نسفه في اليم، وكيف قتل بنو إسرائيل بعضهم بعضا .

نص الحديث

روى الحاكم في مستدركه عن علي رضي الله عنه قال: « لَمَّا تَعَجَّلَ مُوسَى إلى رَبِّه عَمِدَ السَّامِرِيُّ فَجَمَعَ مَا قَدِرَ عَلَيْهِ مِنَ الحُلِيِّ: حُلِيِّ بَنِي إسْرائِيلَ، فَضَرَبَهُ عِجْلاً، ثم ألْقَى القَبْضَةَ فِي جَوْفِهِ فَإذا هُوَ عِجْلٌ لَهُ خِوار، فَقَالَ لَهُمْ السَّامِرِيُّ، هَذَا إلهُكُمْ وَإلَهُ مُوسَى، فَقَالَ لَهُم هَارُونُ: يَا قَوْم أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ؟ فَلَمَّا أَنْ رَجَعَ مُوسَى إلى بَني إسْرائِيلَ، وَقَدْ أَضَلَّهُمْ السَّامِرِيُّ، أَخَذَ بِرأْسِ أَخِيهِ، فَقَالَ لَهُ هَارُونُ: مَا قَالَ . فَقَالَ مُوسَى للسامِري: مَا خَطْبُكَ ؟ قَالَ السَّامِرِيُّ: قَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي .

قَالَ: فَعَمَدَ مُوسَى إلى الْعِجْلِ فَوَضَعَ عَلَيْه الْمَبارِدَ فَبَرَدَهُ بهَا، وَهُوَ عَلى شَفَى نَهْر، فَمَا شَرِبَ أَحَدٌ مِنْ ذلِكَ الْماء مِمَّنْ كَانَ يَعْبُدِ ذَلِكَ العِجْلَ إلا اصْفَرَّ وَجْهُهُ مِثْلَ الْذَهَبِ، فَقَالُوا لِمُوسَى: مَا تَوْبَتُنا ؟ قَالَ: يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، فَأَخَذُوا السَّكَاكِينَ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَقْتلُ أَبَاهُ وَأَخَاهُ وَلا يُبَالِي مَنْ قَتَلَ حَتَّى قُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفاً، فَأَوْحى الله إلى مُوسَى مُرْهُمْ فَلْيَرْفَعُوا أَيْدِيَهُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لِمَنْ قُتِلَ، وَتُبْتُ عَلى مَنْ بَقِيَ » .

تخريج الحديث

أخرجه الحاكم في مستدركه: ٤١٢/٢، ورقمه: ٣٤٣٤، في كتاب التفسير، (تفسير سورة طه) . وقال فيه : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي .

شرح الحديث

أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن بني إسرائيل عبدوا العجل عندما ذهب موسى لميقات ربه، وأن موسى عليه السلام عاد غضبان أسفا عندما أخبره ربه بما كان من قومه، ولما وصل إليهم ولامهم على ما كان منهم، أخبروه بعذرهم، وأنهم قذفوا الحلي والذهب الذي أخذوه من المصريين، فصاغه لهم السامري عجلا، قذف فيه قبضة من طين مست جبريل عليه السلام عندما جاء لإهلاك فرعون وقومه، فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار .

وحاسب فرعون أخاه على ما كان منه، فأبدى له عذره، وحاسب السامري على الجرم الذي اقترفه، وقد أخبرنا ربنا أن موسى حرق ذلك العجل ونسفه في اليم نسفا، كما أخبرنا أنه أمر بني إسرائيل بأن يقتلوا أنفسهم بسبب عبادتهم العجل .

وفي هذا الحديث بيان للكيفية التي نسف بها موسى العجل، فقد أمر ببرده بالمبارد، كي يرى بنو إسرائيل تفاهة العجل الذي عبدوه، وتحول العجل إلى مسحوق دقيق كان يذرى في النهر الذي كانوا بجانبه، ومن عجيب صنع الله أن كل الذين عبدوا العجل اصفرت وجوههم عندما شربوا من ماء النهر، وأصبحت بلون الذهب .

ويبين الحديث أن الذين عبدوا العجل قتل بعضهم بعضا، فأخذوا السكاكين، وجعل الرجل لا يبالي بمن قتله، فيقتل أباه وأخاه وابنه، حتى قتل منهم سبعون

ألفا، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام يأمره بإيقاف القتل، فقد غفر لمن قتل، وتاب على من بقي.

عبر الحديث وفوائده

١ - بيان الطريقة التي نسف موسى فيها العجل الذي عبده بنو إسرائيل في اليم، وهو برده بالمبارد، ثم تذرية مسحوقه في النهر.

٢ - بيان الطريقة التي قتل بها بنو إسرائيل بعضهم بعضا، فالذين كان يقتل بعضهم بعضا هم الذين عبدوا العجل دون الذين لم يعبدوه، وقد ميز الذين عبدوه من غيرهم بتحول ألوان وجوه العابدين إلى اللون الذهبي الأصفر بعد شربهم من ماء النهر الذي نسف مسحوق العجل في مائه.

٣ - تكريم الله لهذه الأمة بقبول توبة التائبين من غير أن يقتل بعضهم بعضا إلا في أمور محددة كقتل الزاني الذي ثبت عليه الزنى، وقتل المرتد المصر على ردته.

٤- كثرة بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام، فالذين قتلوا كان عددهم سبعين ألفاً.

القصة الثالثة عشرة

حبس الشمس لنبي الله يوشع

تمهيد

كان القادة العسكريون يحشدون لمواجهة أعدائهم أكثر عدد يستطيعونه من الجند، ويظنون أن الكثرة أحد أسباب الانتصار في الحروب، ولكن نبي الله يوشع الذي فتح الله على يديه الأرض المقدسة لبني إسرائيل من بعد موسى لم يهتم بكثرة العدد عند مواجهة أعدائه، وإنما اهتم بالنوعية المقاتلة، ولذا أخرج من صفوف جنده أولئك الذين تعلقت قلوبهم بأمر من الأمور الدنيوية التي تملك على العباد نفوسهم .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه غزا بذلك الجيش إحدى القرى، وخشي أن يدخل عليه الليل قبل أن يتم الفتح، فدعا ربه أن يحبس عليه الشمس، فحبسها، حتى تم النصر، وتلك آية من آيات الله، وأجرى الله على يديه آية أخرى عندما كشف له الذين غلوا من الغنيمة، فأغضبوا الله عليهم .

نص الحديث

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا، وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا، وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلا آخَر اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلادَهَا، فَغَزَا فَدَنَا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلاةَ الْعَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ، وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِم.

فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ، فَجَاءَتْ يَعْنِي النَّارَ لِتَأْكُلَهَا فَلَمْ تَطْعَمْهَا، فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولا، فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ.

فَلْيُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ، فَجَاءُوا بِرَأْسٍ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَوَضَعُوهَا فَجَاءَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا، ثُمَّ أَحَلَّ اللَّهُ لَنَا الْغَنَائِمَ، رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا، فَأَحَلَّهَا لَنَا).

تخريج الحديث

الحديث رواه البخاري في كتاب فرض الخمس، باب قول النبي ﷺ (أحلت لكم الغنائم) . (٦/٢٢٠) ورقمه: ٣١٢٤ . ورواه مختصرا في كتاب النكاح، باب من أحب البناء قبل الغزو، ٩/٢٢٣. ورقمه: ٥١٥٧ .

ورواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب تحليل الغنائم، ٣/١٣٦٦ ورقمه: ١٧٤٧ . وهو في شرح النووي على مسلم: ١٢/٤٠٩ .

غريب الحديث

غزا نبي: أي أراد أن يغزو .

ملك بضع امرأة: أي عقد نكاحه على امرأة، لأنه بالعقد الشرعي يملك معاشرتها .

لما يبن بها: أي لم يدخل بها .

خلفات: النوق الحوامل أو الغنم الحوامل .

ولادها: نتاجها .

اللهم احبسها: الله أعلم بالكيفية التي حبس فيها الشمس حتى تم له النصر .

الغلول: السرقة من الغنيمة .

لزقت: أي التصقت .

رأس بقرة: أي قدره أو كصورته من ذهب .

شرح الحديث

يحدثنا الرسول ﷺ أن نبيا من أنبياء الله غزا غزوة لفتح إحدى القرى، وهـذا النبي هو يوشع بن نون أحد أنبياء بني إسـرائيل[1]، وكـان قـد صحـب موسـى في حياته، وسار معه في رحلته إلى الخضر كما سبق بيانـه في قصـة موسـى والخضـر، وقد أوحى الله إليه بعد وفاة موسى، واستخلفه موسى على بني إسرائيل من بعده، وهو الذي تم على يديه فتح الأرض المقدسة .

وقد حرص نبي الله يوشع عند انطلاقته لفتـح المدينـة الـتي يقصدهـا علـى أن يكون جيشه قويا متماسكا، ولذلك أخرج من جيشه المقاتلين الذين قـد يكونـون سببا في الهزيمة، لانشغال قلوبهم انشـغالا كبيرا بمسائل الدنيـا الـتي لا يسـتطيعون التخلص من إعمـال قلوبهـم وعقولهـم بشـأنها، فقـد استثنى ثلاثـة أصنـاف مـن المقاتلين أمرهم بعدم الخروج معه .

الصنف الأول: الذي عقد نكاحـه، ولم يدخـل بزوجتـه، ولا شـك أن هـذا الصنف يكون متعلقا قلبه بزوجه أشد التعلق، وبخاصة إذا كان في مرحلة الشباب.

والصنف الثاني: المشغول ببناء لم يكمل بناءه بعد.

والثالث: الذي اشترى غنما أو نوقا حوامل وهو ينتظر أن تلد أو تنتج .

إن المبدأ الذي اعتمده هذا النبي يدل على أنـه قـائد فـذ، صـاحب نظريـة في قيادة الجيوش وإعدادها للقتال الذي يكون به النصر، إن الجيوش لا تنتصـر بكـثرة

---

(١) صح بذلك حديث رواه أحمد في مسنده . انظر (فتح الباري: ٦/٢٢١) .

عددها، بل بالنوعية التي تقاتل، فالنوعية أهم من العدد والكمية .

ولذا أخرج من جيشه المشغولي القلوب، الذين يكونون في أرض المعركة وقلوبهم معلقة بالزوجة التي سيدخل بها، أو البناء الذي سيسكنه، أو الماشية والأنعام التي ستلد وتنتج .

وفعله هذا شبيه بما أمر به طالوت جيشه من عدم الشرب من النهر، إلا من اغترف غرفة بيده، فشربوا منه إلا قليلا منهم، وبذلك صفى طالوت جيشه من العناصر الضعيفة التي قد تكون سببا في الهزيمة .

وقد أخبر الله رسوله ﷺ أن نكوص المنافقين في معركة أحد كان فيه خير للمؤمنين ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ [التوبة: ٤٧].

خرج يوشع بجيشه متجها إلى القرية التي يريد غزوها، فدنا من القرية في عصر ذلك اليوم، ومعنى ذلك أن فرصته في فتح المدينة ليست قوية، لأن القتال في الليل ليس سهلا، وقد يكون ذلك اليوم يوم الجمعة، وعليه أن يوقف القتال إذا غربت الشمس، لأن دخول الليل يعني دخول يوم السبت، والقتال محرم على بني إسرائيل في يوم السبت، ومعنى ذلك أنه سيعود عن القرية قبل فتحها، وهذا سيعطي أهل القرية فرصة لتقوية جيشهم، وإصلاح أسوارهم، وإعداد المزيد من السلاح، فتوجه يوشع إلى الشمس مخاطبا لها قائلا: إنك مأمورة، وأنا مأمور، ثم دعا ربه قائلا: اللهم احبسها علينا، واستجاب الله دعاءه، فأخر الغروب حتى تم النصر .

إن إيمان يوشع كان عظيما، فهو يوقن بقدرة الله على كل شيء، وهو قادر على إطالة النهار حتى يتم الفتح قبل الغروب، ولا يستعصي مثله على الله، ونحن نعلم اليوم أن النهار والليل يحدثان من دوران الأرض حول نفسها ، والذي يظهر ـ وعلم ذلك عند الله ـ أن دورة الأرض تباطأت بقدرة الله حتى تم الفتح .

ولم يبح الله الغنائم لأمة من الأمم من قبلنا، فكانت الغنائم تجمع ثم تنزل نار من السماء فتأكل الغنائم إن لم يغل أحد من الجيش شيئا منها ، فإن غل من الغنيمة شيء فلا تأكلها، وهذا يعني أن الله غير راض عنهم.

وعندما جمعت الغنائم ونزلت النار لم تأكل منها شيئا، فقال يوشع فيكم غلول، وكشف الغالين بأن بايع من كل قبيلة رجلا، فلصقت يده بيد رجل القبيلة التي فيها الغول، فبايع أفراد القبيلة التي فيها الغلول، فلصقت يده بيد رجلين أو ثلاثة، فقال: الغلول فيكم، عند ذلك جاءوا بقطعة كبيرة من الذهب مصنوعة على شكل رأس بقرة، فوضعت مع الغنائم، فنزلت النار فأكلتها، وقد نسخ هذا الحكم في حقنا، فأبيحت لنا الغنائم، رحمة من الله بنا، وتفضلا علينا، وكان إباحة الغنائم إحدى خصائص هذه الأمة .

قصة يوشع في التوراة

يوجد سفر طويل في التوراة باسم سفر يوشع، إلا أن لفظة هذا الاسم فيه يشوع، ويشوع اسم عبري معناه « يهوه خلاص » ويهوه عند اليهود اسم من أسماء الله تعالى، ويذكر كتاب (قاموس الكتاب المقدس) أخذا مما جاء في التوراة في مواضع عدة أن اسم يشوع في الأصل: هوشع، أو يهوشع، وأن موسى هو الذي دعاه يشوع، وأن يشوع هو خليفة موسى، وكان أولا خادما له، كلفه موسى في حياته ببعض المهمات الكبيرة[1]، وتذكر التوراة في السفر المنسوب إلى يشوع أن بني إسرائيل دخلوا فلسطين بعد وفاة موسى بقيادة يشوع، وتوجد تفصيلات كثيرة لكيفية دخولهم، وللحروب التي خاضوها بقيادة يشوع، والانتصارات التي حققوها .

وقد ذكر في الإصحاح السابع من سفر يشوع خبر الغلول الذي كان من بعض بني إسرائيل، وكيف استخرج يوشع الرجال الذين فيهم الغلول، وحدد

(١) قاموس الكتاب المقدس: ص١٠٦٨.

الرجل الذي غل، ولكن المذكور في الحديث أدق مما في التوراة، فإن الحديث بين أن يوشع اكتشفه بالمصافحة على النحو الذي ذكرناه، وليس واضحا هذا في التوراة.

وذكرت التوراة أن الذي قام بالغلول رجل واحد فقط، والحديث ذكر أنهما كانا رجلين أو ثلاثة، والتوراة ذكرت أن الرجل قد غل رداء شِنْعَارياً نفيسا، ومائتي شاقل فضة، ولسان ذهب وزنه خمسون شاقلا، والصواب أن المال المغلول كان رأس بقرة من ذهب كما ذكر الحديث .

وذكرت التوراة في الإصحاح العاشر من سفر يشوع حبس الشمس ليوشع، فقد جاء في ذلك السفر فقرة (١٢-١٣) « حينئذ كلم يشوع الرب يوم أسلم الرب الأموريين أمام بني إسرائيل، وقال أمام عيون إسرائيل: يا شمس دومي على جبعون، ويا قمر على وادي أيلون، فدامت الشمس، ووقف القمر، حتى انتقم الشعب من أعدائه، أليس هذا مكتوبا في سفر يا شر، فوقفت الشمس في كبد السماء، و لم تعجل للغروب نحو يوم كامل » .

وهذا النص يحتاج إلى تصويب في ضوء الحديث، فيوشع لم يأمر الشمس بالوقوف، بل دعا الله بأن يحبسها عليه، والشمس لم تكن في كبد السماء وهو وسطها، بل كانت قد مالت للغروب، لأن دعاءه كان عند العصر أو بعدها .

وهناك أمر آخر يحتاج إلى تصويب وهو من التحريف الذي أصاب التوراة، فقد ذكرت التوراة في الإصحاح العاشر أن المعركة التي حبست فيها الشمس ليوشع كانت متأخرة عن المعركة التي وقع فيها الغلول، والصواب الذي دل عليه الحديث أنهما كانتا في معركة واحدة .

ومما وقع من تحريف في التوراة أنها ذكرت أن بني إسرائيل جعلوا الغنائم التي غنموها من فتح أريحا في خزانة بيت الرب، ذهبا كانت أو فضة أو آنية من النحاس أو الحديد، وكان ذلك بأمر الله إليهم، أما المال المغلول فقد أحرقه بنو إسرائيل مع الرجل الذي أخفاه مع بنيه وبناته وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله .

أما الغنائم التي غنموها بعد ذلـك، فيذكـر الإصحـاح الثـامن فقـرة (٢) مـن سفر يشوع أن الـرب أباحهـا لهـم وقـد جـاء فيـه: « غـير أن غنيمتهـا وبهائمهـا تنهبونها لنفوسكم » وجاء في فقرة (٢٧) من السفر نفسه « لكن البهائم وغنيمـة تلك المدينة نهبها إسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذي أمر به يشوع » .

وهذا المذكور هنا من التحريف الذي أصاب التـوراة، فالغنـائم لم تحل لأمـة قبلنا، وكانت النار تنزل فتأكل الغنائم من الأثاث واللباس والذهب والفضة، كما قررته نصوص كثيرة صحيحة، ومن ذلك ما ذكره الرسول ﷺ في هـذا الحديـث، فقد أخبرنا أن السماء لم تحرق الغنيمة من أجل الغلول، فلما ظهر الغلول وجيء به ووضع مع الغنيمة نزلت النار فأحرقته، وليس صحيحا أن بني إسرائيل هـم الذيـن أحرقوه، وإذا كان يصح حرق الغال من الغنيمة عقوبة له، فليـس عـدلا أن تحـرق زوجته وأولاده وبهائمه، كما يزعم محرفو التوراة .

عبر الحديث وفوائده

١ - غزو يوشع بمن معه من بني إسرائيل يدل على أن القتال كـان مفروضـا علـى الأمـم من قبلنا، وليس خاصا بنا، وقد عاقب الله بـني إسـرائيل بالتيـه أربعين سنة عندما أبوا مقاتلة الجبارين.

وقد دل على أن جمعا كبيرا من الأنبياء قاتلوا قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٦]، ودل على فرضه على بني إسرائيل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَاءِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

٢ ـ في الحديث إرشاد لأولي الأمر أن لا يكلفوا القيام بالمهمات الكبرى للذين شغلت قلوبهم بما يعيقهم عن القيام بها .

٣ ـ تحتاج قيادة الجيوش إلى خبرة بطبائع النفوس، واختيار النوعيات التي يمكنها الصبر في ميدان القتال، واستبعاد النوعيات التي قد يؤتى الجيش من قبلها، كما فعل يوشع عليه السلام .

٤ ـ في الحديث آيات ظاهرة ومعجزات باهرة تدل على قدرة الله وتأييده رسله، وإعانتهم على ما أنيط بهم من مهمات، فمن ذلك أن الله حبس الشمس وأطال النهار حتى تمكن المقاتلون من إحراز النصر، وعرّف رسوله بالقبيلة التي فيها الغلول، والأفراد الذين غلوا، على النحو المذكور في الحديث .

٥ ـ كانت الغنائم غير مباحة للأمم من قبلنا، وخصنا الله دون الأمم بأن أحل لنا الغنائم .

٦ ـ إثم الغلول، فالنار لم تكن تأكل الغنائم إذا ما غل منها، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن رجلا غل شملة فاشتعلت عليه في قبره نارا، وأن الذي يغل يأتي بما غل يوم القيامة يحمله على ظهره .

٧ ـ كان في بني إسرائيل رجال صالحون مجاهدون في سبيل الله، يفتح الله عليهم وينصرهم .

٨ ـ على الرغم من تصفية يوشع لجيشه من الذين قد يؤتى من قبلهم إلا أن الجيش بقي فيه بعض من ضعف إيمانه، وهم الذين غلوا من الغنيمة .

٩ ـ في الحديث تصويب لبعض ما أصاب التوراة من تحريف .

القصة الرابعة عشرة

قصة نبي الله يونس - عليه السلام -

تمهيد

قصة نبي الله يونس فيها عجب وطرافة، فقد ألقي في البحر، فابتلعه الحوت، وهناك دعا الله ربه واستغاث به، فنجاه من الهلاك، وحفظه، وأمر الله الحوت بإلقائه على شاطئ البحر.

وفي الحديث مزيد بيان لما ذكره القرآن عن قصته، وتوضيح للأسباب التي أدت به إلى غضبه، وركوبه البحر بعيدا عن أهله ودياره.

نص الحديث

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال:

« إِنَّ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلام كَانَ وَعَدَ قَوْمَهُ الْعَذَابَ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ يَأْتِيهِمْ إِلَى ثَلاثَةِ أَيَّام، فَتَفَرَّقُوا بَيْنَ كُلِّ وَالِدَةٍ، وَوَلَدِهَا، ثُمَّ خَرَجُوا فَجَأَرُوا إِلَى اللهِ وَاسْتَغْفَرُوهُ، فَكَفَّ اللهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، وَغَدَا يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلامُ يَنْتَظِرُ الْعَذَابَ فَلَمْ يَرَ شَيْئاً، وَكَانَ مَنْ كَذَبَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَيِّنَةٌ قُتِلَ، فَانْطَلَقَ مُغَاضِباً، حَتَّى أَتَى قَوْماً فِي سَفِينَةٍ، فَحَمَلُوهُ، وَعَرَفُوه.

فَلَمَّا دَخَلَ السَّفِينَةَ رَكَدَتْ، وَالسُّفُنُ تَسِيرُ يَمِيناً وَشِمَالاً، فَقَالَ: مَا بَالُ سَفِينَتِكُم ؟ قَالُوا: مَا نَدْرِي. قَالَ: وَلَكِنِّي أَدْرِي، إِنَّ فِيهَا عَبْداً أَبَقَ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّهَا وَاللهِ لا تَسِيرُ حَتَّى تُلْقُوهُ، قَالُوا: أَمَّا أَنْتَ وَاللهِ يَا نَبِيَّ اللهِ فَلا نُلْقِيكَ.

فَقَالَ لَهُم يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلامُ: اقْتَرِعُوا فَمَنْ قُرِعَ فَلْيَقَعْ فَاقْتَرَعُوا، فَقَرَعَهُمْ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلامُ ثَلاثَ مِرَارٍ، فَوَقَعَ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ الْحُوتُ فَلَمَّا وَقَعَ ابْتَلَعَهُ فَأَهْوَى بِهِ إِلى قَرَارِ الأَرْضِ، فَسَمِعَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلامُ تَسْبِيحَ الْحَصَى ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، قَالَ: ظُلْمَةُ بَطْنِ الْحُوتِ، وَظُلْمَةُ الْبَحْرِ، وَظُلْمَةُ اللَّيْلِ.

قَالَ: ﴿ لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩].

قَالَ: كَهَيْئَةِ الْفَرْخِ الْمَمْعُوطِ الَّذِي لَيْسَ عَلَيْهِ رِيشٌ، وَأَنْبَتَ اللهُ عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ، فَكَانَ يَسْتَظِلُّ بِهَا أَوْ يُصِيبُ مِنْهَا فَيَبِسَتْ، فَبَكَى عَلَيْهَا حِينَ يَبِسَتْ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَتَبْكِي عَلَى شَجَرَةٍ أَنْ يَبِسَتْ، وَلا تَبْكِي عَلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُون، أَرَدْتَ أَنْ تُهْلِكَهُمْ ؟

فَخَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِغُلامٍ يَرْعَى غَنَماً، فَقَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ يَا غُلامُ ؟ قَالَ: مِنْ قَوْمِ يُونُسَ، قَالَ: فَإِذَا رَجَعْتَ إِلَيْهِمْ فَأَقْرِئْهُمْ السَّلامُ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّكَ لَقِيتَ يُونُسَ.

فَقَالَ الْغُلامُ: إِنْ تَكُنْ يُونُسُ فَقَدْ تَعْلَمُ أَنَّهُ مَنْ كَذَبَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَيِّنَةٌ قُتِلَ، فَمَنْ يَشْهَدُ لِي؟ قَالَ: تَشْهَدُ لَكَ هَذِهِ الشَّجَرَةُ، وَهَذِهِ الْبُقْعَةُ. فَقَالَ الْغُلامُ لِيُونُسَ: مُرْهُما، فَقَالَ لَهُمَا يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلامُ: إِذَا جَاءَكُمَا هَذَا الْغُلامُ فَاشْهَدَا لَهُ، قَالَتَا: نَعَمْ.

فَرَجَعَ الْغُلامُ إِلى قَوْمِهِ، وَكَانَ لَهُ إِخْوَةٌ، فَكَانَ فِي مَنَعَةٍ فَأَتَى الْمَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي لَقِيتَ يُونُسَ وَهُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكُمْ السَّلامُ، فَأَمَرَ بِهِ الْمَلِكُ أَنْ يُقْتَلَ، فَقَالَ: إِنَّ لَهُ بَيِّنَةً، فَأَرْسَلَ مَعَهُ، فَانْتَهُوَا إِلى الشَّجَرَةِ وَالْبُقْعَةِ، فَقَالَ لَهُمَا الْغُلامُ: نَشَدْتُكُمَا بِالله هَلْ أَشْهَدَكُمَا يُونُسَ ؟ قَالَتَا: نَعَمْ، فَرَجَعَ الْقَوْمُ مَذْعُورِينَ يَقُولُونَ: تَشْهَدُ لَكَ الشَّجَرَةُ وَالأَرْضُ فَأَتَوا الْمَلِكُ، فَحَدَّثُوهُ بِمَا رَأَوا، فَتَنَاوَلَ الْمَلِكُ يَدَ الْغُلام فَأَجْلَسَهُ فِي مَجْلِسِهِ، وَقَالَ: أَنْتَ أَحَقُّ بِهَذَا الْمَكَانِ مِنِّي، وَأَقَامَ لَهُمْ أَمْرَهُمْ ذَلِكَ الْغُلامُ أَرْبَعِينَ سَنَةً).

تخريج الحديث

روى هذا الحديث ابن أبي شـيبة في مصنفـه: (١١/٥٤١). ورقمـه ١١٩٥. كتاب فضائل يونس. وعـزاه السـيوطي في الـدر المنثـور: (١٢٣/٧) إلى ابـن أبـي شيبة في المصنف، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابـن أبي حاتم، عن ابن مسعود، ونقل الحافظ ابن حجـر مقطعـاً منه، وحكـم بصحة رواية ابن أبي حاتم. فتـح البـاري (٤٥٢/٦) وصححـه الشيخ إبراهيـم العلـي في الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء . ص ١٢٢. ورقمه: ١٧٧.

شرح الحديث

كان يونس بن متى عليه السلام نبيا رسولا، أوحى الله إليـه كمـا أوحـى إلى غـيره من المرسلين، ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات/١٣٩]. ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُـسَ وَهَـارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ [النساء/١٦٣]، وهو من الصالحين الأخيـار الذيـن فضلهم الله على العالمين ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًـا وَكُـلاًّ فَضَّلْنَـا عَلَـى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام/٨٦].

وقد أخبرنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أنه خرج من قومه مغاضبا ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا ﴾ [الأنبياء/٨٧]. وأنه أبق إلى الفلك المشـحون، أي السـفينة ذات الحمـل الكبـير ﴿ وَإِنَّ يُونُـسَ لَمِـنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَـقَ إِلَـى الْفُلْـكِ الْمَشْـحُونِ﴾ [الصافات/١٣٩ ـ ١٤٠] .

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ وجه كون يونس آبقا، وكيف كان مغاضبا، ذلك أنه وعد قومه العذاب، بعد أن طال تكذيبهم لرسولهم، وأخبرهم أنه سيحل بهم بعـد

ثلاثة أيام، فلما أيقنوا من نزوله بهم، تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الله، وندموا على ما كان منهم من تكذيبهم لرسولهم، وكان من أمرهم ما أخبرنا به الرسول ﷺ في هذا الحديث، فقد فرقوا الأولاد عن الأمهات من البشر والحيوان، ثم خرجوا فجأروا إلى الله، فاختلطت أصواتهم وهم يدعون الله، ويتوسلون به، وصاحت الأمهات من النساء والحيوانات، كما صاحت الأبناء تطلب أمهاتها، فكف الله عنهم العذاب.

قال ابن كثير: « قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف: لما خرج يونس من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عَجُّوا إلى الله عز وجل، وصرخوا، وتضرعوا إليه، وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب والمواشي، فرغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة، فكشف الله بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم بسبب، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم »[1] ولهذا قال تعالى ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس : ٩٨].

فقد أخبرنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أن قوم يونس نفعهم إيمانهم بعد نزول العذاب بهم، ورفعه الله عنهم بعد إحاطته بهم.

ومضت الأيام الثلاثة التي وعد بها يونس قومه، فجاء ينظر موعود الله فيهم، ولعله كان معتزلا لهم، لم يدر بما فعلوه من التوبة والإنابة، فوجدهم لما أطل عليهم سالمين، فأغضبه ذلك، وكان جزاء الكاذب عندهم أن يقتل، فخرج هاربا من قومه، خشية القتل.

---

(١) البداية والنهاية: ٢٣٢/١.

وسار حتى أتى شاطئ البحر، ويبدو من التأمل في نص الحديث أن خروجه لم يكن بإذن من الله تعالى، ولذا وصفه الله تبارك وتعالى في حاله تلك بأنه كان آبقا، والآبق هو العبد الهارب من سيده ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٠].

وكان الواجب على يونس أن يرضى بقضاء الله تبارك وتعالى، ويسلم لأمره، فليس للعبد أن يغضبه فعل ربه، وما كان ليونس أن يخرج من غير إذن منه، ولذلك نهى الله رسولنا ﷺ أن يكون كصاحب الحوت، وصاحب الحوت هو يونس لالتقام الحوت له، ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم:٤٨] .

ولما وصل شاطئ البحر وجد قوما في سفينة، فعرفوه، وحملوه معهم بناء على طلبه، فلما توسطت السفينة في البحر ركدت على مياهه فلا تتحرك، وكان أمرها عجبا، السفن عن يمينها وشمالها تنطلق غادية رائحة، وهي واقفة فوق الماء لا تتحرك[1]، وعلم يونس عليه السلام أن وقوفها كان بسبب منه، وأخبر أصحاب السفينة أن سبب وقوف سفينتهم أنه حل بها عبد أبق من ربه، يعني نفسه ﴿، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات /١٤٠] ، وأنها لن تسير، وهذا العبد فوق متنها، ولا بد من إلقائه في البحر حتى تمضي في طريقها كما تمضي بقية السفن، فرفضوا أن يلقوه، وهم يعلمون كرامته على ربه، فهو نبي من أنبياء الله.

فقال لهم يونس: اقترعوا، أي اضربوا بقرعة، فمن وقعت عليه القرعة، فهو الذي يلقى في البحر، فاقترعوا فوقعت القرعة عليه، فأبوا إلقاءه، فاقترعوا الثانية، والثالثة، وكل ذلك تقع القرعة عليه، وهذا الاقتراع هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات /١٤١] .

فلما رأى يونس ذلك رمى نفسه في البحر، وما كاد يصل إلى البحر حتى

---

(١) الموجود في أكثر الأحاديث التي ذكرت قصة نبي الله يونس أن سبب إلقائه كان هيجان البحر وخوفهم من الغرق، لا أن السفينة ركدت فلم تسر، والله أعلم بالصواب .

ظهر حوت عظيم، فابتلعه، ولعل أهل السفينة قد شاهدوا الحوت، وهو يبتلع نبي الله يونس، وبذلك يكونون قد استيقنوا من موته وهلاكه، فما نجا حي ابتلعه الحوت قبل يونس ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات / ١٤١، ١٤٢] .

وقوله: مليم، فاعل ما يلام عليه، وهو تركه قومه غاضباً أن لم يقع العذاب بهم، خارجا عنهم من غير إذن من ربه .

وقد أمر الله الحوت أن لا يهلك العبد الصالح يونس، وهوى به الحوت إلى قعر البحر، فأحاطت به الظلمات: ظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل: ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنبياء /٨٧].

وقد سمع يونس من جوف الحوت تسبيح الحصى وحيوانات البحر في جوف البحر، فنادى ربه مسبحا إياه، معترفا بخطئه، نادما على ما كان منه ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء /٨٧].

فسمع نداءه « الذي يعلم السر والنجوى، ويكشف الضر والبلوى، سامع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيات وإن دقت، ومجيب الدعوات وإن عظمت»[1] . ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

ولولا تسبيحه وإنابته لربه لهلك في بطن الحوت وبقي فيه إلى يوم البعث ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].

لقد أمر الله الحوت بعد دعائه أن يلقيه على شاطئ البحر، فألقاه حيث أمره الله، وقد سقم جسمه، وتآكل جلده، وأنهكت قواه، ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات /١٤٥] .

وقد شبه لنا الرسول ﷺ يونس في حال ذهاب جلده وذوبانه بفعل

---

(١) البداية والنهاية: ١/٢٣٣.

العصارات الهاضمة التي في معدة الحوت، بأنه كان عندما ألقاه الحوت كالفرخ الممعوط، وهو الذي نتف ريشه، فلم يبق منه شيء.

وأنبت الله عليه في مكانه الذي ألقي فيه شجرة من يقطين ﴿ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات /١٤٦].

واليقطين: نبتة تدعى القرع أو الدبا، ويذكر العارفون بالطب أن اليقطين غذاء جيد للبدن، يوافق ضعاف المعدة، ويلائم المحرورين، وماؤه يقطع العطش، ويذهب الصداع، وأثبت الطب الحديث أنه هاضم، ومسكن، ومرطب، وملين، ومدر للبول، ومطهر للصدر، وملطف، ويستعمل علاجا لأمراض كثيرة(١).

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن يونس كان يستظل بظل هذه الشجرة، ويأكل منها، وأنها يبست بعد مدة من الزمن، فبكى عليها نبي الله يونس حين يبست، فأوحى الله إليه معاتبا: « أتبكي على شجرة أن يبست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم».

ولما صح جسده، وأصبح قادرا على المشي والحركة، خرج يمشي، فوجد غلاما يرعى غنما، فسأله من أي الأقوام هو، فقال: إنه من قوم يونس، فطلب منه أن يسلم على قومه، ويخبرهم بأنه لقي يونس.

وكان الغلام حصيفا نبيها عالما بما عليه قومه في شأن الكاذب، فقال ليونس: إن تكن يونس، فقد تعلم أنه من كذب، ولم يكن له بينة قتل، فمن يشهد لي؟ قال: تشهد لك هذه الشجرة، وهذه البقعة.

فقال الغلام ليونس: مرهما، أي بالشهادة له.

فقال لهما يونس عليه السلام: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له، قالتا: نعم.

وهذا كله بقدرة الله عز وجل.

---

(١) راجع قاموس الغذاء والتداوي بالنبات: ص ٧٥٤.

فرجع الغلام إلى قومه، وكان له إخوة لهم جاه ومكانة في قومهم يمتنع بهم ممن يريد إيذاءه، فأتى الملك، وبلغه بلقائه بيونس وبلغه سلامه عليه وعلى قومه، ويبدو أنه قد استقر عند الملك وقومه أن يونس هلك، خاصة وأن ركاب السفينة لا بد أنهم قد حدثوا بما كان من غرقه في البحر وابتلاع الحوت له، فكان إخبار الغلام بما أخبر به كذب لا شك عندهم فيه، ولذا فإنه أمر بقتل الغلام في الحال .

فأخبره الغلام أن عنده دليلا يدل على صدقه، فأرسل معه بعض خاصته، فلما وصلوا إلى الشجرة والبقعة التي أمرهما يونس بالشهادة له، خاطبهما قائلا : نشدتكما بالله، هل أشهدكما يونس، قالتا: نعم .

فرجعوا خائفين وجلين، وأخبروا الملك بما سمعوه، فما كان من الملك إلا أنه نزل عن كرسيه، وأمسك بيد ذلك الغلام، وأجلسه ملكا في مكانه، وقال له: أنت أحق بهذا المكان مني .

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن ذلك الغلام حكم أربعين سنة، أقام لهم فيها أمرهم، وصلح فيها حالهم .

والذي يظهر أن يونس إنما أمر الغلام بالسلام على قومه وإخبارهم بحياته، وإشهاد البقعة والشجرة على ذلك، ليدل قومه على أنه لم يكذب عليهم، وأن كل ما كان إنما كان بأمر الله، فشهادة البقعة والشجرة للغلام شهادة ليونس بالنبوة، والنبي صادق لا يكذب .

والذي يظهر من النصوص التي بين أيدينا أن يونس عاد إلى قومه بعد إيمانهم، لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات /١٤٧] . وهؤلاء قومه كما في الحديث في معاتبة الله له أنه لم يحزن على هلاكهم، وهم يزيدون على مائة ألف .

هذه القصة في التوراة

هذه القصة موجودة في التوراة في سفر كامل معقود لها، يدعى سفر يونان ابن أمتان، وتذكر التوراة أنه أحد أنبياء بني إسرائيل .

ولا شك أن هذا النبي هو يونس بن متى، فالأسماء متشابهة في لفظها والقصة فيها بعض المعالم والوقائع التي تحدث عنها القرآن وتحدث عنها الحديث، وإن كان فيها قصور وتغيير بسبب التحريف الذي أصاب التوراة .

وقد صح في بعض الأحاديث أن اسم هذا النبي يونس بن متى[1] .

وأصل اسم يونان عند اليهود: يوناثان، ومعناه عطية الله، أو كما يقول شراح التوراة: « يهوه أعطى » أي الله أعطى، فيهوه عندهم هو الله[2] .

وتذكر التوراة أنه من مدينة فلسطينية تدعى جت حافر، (سفر الملوك الثاني. الإصحاح: ١٤ . فقرة: ٢٥) وهذه المدينة تقع قرب مدينة الناصرة على بعد ثلاثة أميال منها .

وقد كان يسكن هذه المدينة سبط من أسباط بني إسرائيل يدعى (زبلون) (سفر يشوع . الإصحاح ١٩ . فقرة: ١٠ ـ ١٦) ولذلك يرجح شراح التوراة أن يونان كان من هذا السبط .

وهذه الأخبار الله أعلم بمدى صحتها .

ويزعم كتاب التوراة أن الله أرسل يونس من مدينته في فلسطين إلى أهل نينوى، لما كثر شرهم وفسادهم، ليحذرهم غضب الله وانتقامه، ونينوى مدينة عظيمة قرب مدينة الموصل في العراق، فأبى يونس السفر إلى تلك المدينة، خوفا من شر أهلها، وهرب من الله تبارك وتعالى، فركب سفينة من مدينة يافا إلى مدينة بعيدة تدعى ترشيش، يزعم مفسرو التوراة أنها في المغرب أو في أسبانيا، ولا

(١) صحيح البخاري: ٦/٤٥٠، صحيح مسلم: ١/١٥٢ . ورقمه: ١٦٦ .
(٢) قاموس الكتاب المقدس: ص ١١٢٣ .

أدري كيف يكون نبيا، ويظن أنه يمكن أن يهرب من الله.

ولما توسطت السفينة البحر ثار البحر وماج، حتى كادت السفينة تكسر، فأخذ ركاب السفينة يرمون بأمتعتهم حتى لا تغرق السفينة، وكان يونس نائما في أثناء ذلك في أسفل السفينة، وجاء رئيس البحارة فأيقظه، وطلب منه أن يدعو ربه كي يخلصهم مما أحاط بهم.

واقترح بعض الركاب أن يقترعوا لا ليخففوا حمل السفينة، بل ليعرفوا الرجل الذي تسبب في البلاء الذي أصابهم، فأصابت القرعة يونس، فاستخبروا منه خبره، وفي هذا دلالة على أنهم لم يعرفوه، عندما حملوه، فلما عرفوا أنه هارب من وجه الله خافوا، فطلب منهم إلقاءه في البحر، لينجوا من غضب الله، لأنه علم أن هيجان البحر كان بسببه، فألقوه في البحر، فالتقمه الحوت، وحبس في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، وذكر كتاب التوراة الدعاء الذي دعا به ربه، وليس فيه الدعاء الذي نص القرآن عليه، فأمر الله الحوت بقذفه إلى البر، وأمره بالذهاب إلى مدينة نينوى، لينذر أهلها، ويخبرهم أن مدينتهم سوف تعذب بعد أربعين يوماً.

فعندما علم أهل نينوى ما خوفهم به يونس تابوا وأنابوا وآمنوا، وجأروا إلى الله بالدعاء، فتاب عليهم ورحمهم، فغم ذلك يونس وأغاظه، لأن الله رحمهم، وعاتب ربه على مغفرته لهم، وخرج يونس من المدينة، وجلس في الجهة الشرقية منها، تحت مظلة صنعها، وجلس هناك ليرى ما يحدث في المدينة، فأنبت الله له يقطينة كبيرة تظله، لتخلصه من غمه، ففرح بها، وفي اليوم التالي عند طلوع الفجر، يبست لأن الله أرسل عليها دودة ضربتها، فحزن عليها، فعاتبه ربه على حزنه على موت اليقطينة، وعدم حزنه على هلاك أهل نينوى، وهم جموع كثيرة من البشر.

جاء في الإصحاح الأول من سفر يونان: وصار قول الرب إلى يونان بن أمتاي قائلا: قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد عليها، لأنه قد صعد شرهم

أمامي .

فقام يونان ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب، فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش، فدفع أجرتها ونزل فيها، ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب .

فأرسل الرب ريحا شديدة إلى البحر، فحدث نوء عظيم في البحر، حتى كادت السفينة تنكسر . فخاف الملاحون وصرخوا كل واحد إلى إلهه، وطرحوا الأمتعة التي في السفينة إلى البحر ليخففوا عنهم .

وأما يونان فكان قد نزل إلى جوف السفينة واضطجع ونام نوما ثقيلا، فجاء إليه رئيس النوتية وقال له: ما لك نائم؟ قم اصرخ إلى إلهك عسى أن يفتكر الإله فينا فلا نهلك .

وقال بعضهم لبعض: هلم نلقي قُرَعاً لنعرف بسبب من هذه البلية . فألقوا قُرَعاً فوقعت القرعة على يونان .

فقالوا له: أخبرنا بسبب هذه المصيبة علينا، ما هو عملك؟ ومن أين أتيت؟ ما أرضك ؟ ومن أي شعب أنت ؟ فقال لهم: أنا عبراني، وأنا خائف من الرب إله السماء الذي صنع البحر والبر . فخاف الرجال خوفا عظيما، وقالوا له: لماذا فعلت هذا ؟ فإن الرجال عرفوا أنه هارب من وجه الرب، لأنه أخبرهم . فقالوا له: ما ذا نصنع بك ليسكن البحر عنا ؟ لأن البحر كان يزداد اضطرابا .

فقال لهم: خذوني واطرحوني في البحر، فيسكن البحر عنكم، لأنني عالم أنه بسببي هذا النوء العظيم عليكم، ولكن الرجال جذفوا ليرجعوا السفينة إلى البر، فلم يستطيعوا لأن البحر كان يزداد اضطرابا عليهم، فصرخوا إلى الرب، وقالوا: آه يا رب، لا نهلك من أجل نفس هذا الرجل، ولا تجعل علينا دما بريئا، لأنك يا رب فعلت كما شئت، ثم أخذوا يونان وطرحوه في البحر، فوقف البحر عن هيجانه . فخاف الرجال من الرب خوفا عظيما، وذبحوا ذبيحة للرب، ونذروا

نذورا، وأما الرب فأعد حوتا عظيما ليبتلع يونان . فكان يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال» .

وجاء في الإصحاح الثاني: « فصلى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت، وقال: دعوت من ضيقي الرب فاستجابني . صرخت من جوف الهاوية فسمعتَ صوتي . لأنك طرحتني في العمق في قلب البحار، فأحاط بي نهر، جازت فوقي جميع تياراتك ولججك . فقلت: قد طردتُ من أمام عينك، ولكنني أعود أنظر إلى هيكل قدسك . قد اكتنفتني مياه إلى النَّفَسِ . أحاط بي غمر . التف عشب البحر برأسي . نزلت إلى أسافل الجبال مغاليق الأرض علي إلى الأبد . ثم أصعدت من الوهدة حياتي أيها الرب إلهي حين أعيت في نفسي، ذكرت الرب فجاءت إليك صلاتي، إلى هيكل قدسك الذين يراعون أباطيل كاذبة يتركون نعمتهم . أما أنا فبصوت الحمد أذبح لك، وأوفي بما نذرته، للرب الخلاص .

وأمر الرب الحوت فقذف يونان إلى البر» .

وجاء في الإصحاح الثالث: ثم صار قول الرب إلى يونان ثانية قائلا: قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة، وناد لها المناداة التي أنا مكلمك بها .

فقام يونان، وذهب إلى نينوى بحسب قول الرب، أما نينوى فكانت مدينة عظيمة لله مسيرة ثلاثة أيام، فابتدأ يونان يدخل المدينة مسيرة يوم واحد، ونادى، وقال: بعد أربعين يوما تنقلب نينوى .

فآمن أهل نينوى بالله، ونادوا بصوم، ولبسوا مسوحا من كبيرهم إلى صغيرهم . وبلغ الأمر ملك نينوى فقام عن كرسيه، وخلع رداءه عنه، وتغطى بمسح، وجلس على الرماد، ونودي، وقيل في نينوى عن أمر الملك وعظمائه قائلا لا تذق الناس ولا البهائم ولا البقر ولا الغنم شيئا، لا ترع ولا تشرب ماء، وليتغط بمسوح الناس والبهائم، ويصرخوا إلى الله بشدة، ويرجعوا كل واحد عن طريقه الرديئة، وعن الظلم الذي في أيديهم . لعل الله يعود ويندم ويرجع عن حمو غضبه فلا نهلك .

فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه » .

وجاء في الإصحاح الرابع: «فغمَّ ذلك يونان غما شديدا، فاغتاظ وصلى إلى الرب، وقال: آه يا رب أليس هذا كلامي، إذ كنت بعد في أرضي، لذلك بادرت إلى الهرب إلى ترشيش، لأني علمت أنك إله رؤوف ورحيم، بطيء الغضب، وكثير الرحمة، ونادم على الشر.

فالآن يا رب خذ نفسي مني، لأن موتي خير من حياتي، فقال الرب هل اغتظت بالصواب ؟

وخرج يونان من المدينة، وجلس شرقي المدينة، وصنع لنفسه هناك مظلة، وجلس تحتها في الظل، حتى يرى ماذا يحدث في المدينة، فأعد الرب الإله يقطينة، فارتفعت فوق يونان لتكون ظلا على رأسه، لكي يخلصه من غمه، ففرح يونان من أجل اليقطينة فرحا عظيما، ثم أعد الله دودة عند طلوع الفجر في الغد، فضربت اليقطينة، فيبست، وحدث عند طلوع الشمس أن الله أعد ريحا شرقية حارة، فضربت الشمس على رأس يونان فَذَبُلَ، فطلب لنفسه الموت، وقال موتي خير من حياتي.

فقال الله ليونان: هل اغتظت بالصواب من أجل اليقطينة؟ فقال اغتظت بالصواب حتى الموت . فقال الرب: أنت شفقت على اليقطينة التي لم تتعب فيها، ولا ربيتها، التي بنت ليلة كانت، وبنت ليلة هلكت . أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس، الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة » .

تعليقنا على ما جاء في التوراة :

إن من يقرأ هذه القصة في التوراة بعد أن يعلم علمها من القرآن وصحيح الأحاديث يجد أن التغيير والتحريف أصابها، فلم يبق فيها من الحق إلا القليل،

فكأنها آثار أطلال مدينة خربة، لا يكاد يتعرف عليها من يعرفها حق المعرفة إلا بجهد ومشقة.

لا شك أن قصة يونس صحيحة، وليست أمثالا مضروبة، كما يزعم بعض شراح التوراة، ولا ندري مدى صدق كون يونس من أرض فلسطين أرسله الله إلى نينوى من أرض العراق، ويبدو لي أن هذا ليس بصواب، فقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن الله لم يرسل بعد لوط رسولا إلا إذا كان في الذروة في أنساب قومه، فكيف يكون يونس من غير أهل البلد الذي أرسل إليه !!، وقد صرح القرآن أن أهل المدينة الذين أرسل إليهم يونس كانوا قومه، ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨]. كيف يكونون قومه؟ وهو غريب عنهم هذا بعيد !!

ودعوى كتاب التوراة أن يونس رفض أمر الله إليه بالمسير إلى نينوى غير صحيحة، فما كان يونس وهو النبي المرسل أن يرفض أمر الله إليه، ودعواهم أنه ركب البحر قبل أن يصل إلى نينوى أيضا دعوى غير صحيحة، فالحديث صرح بوقوع هذا بعد أن خرج من قومه لعدم نزول العذاب بهم.

وفي الحديث أن أصحاب السفينة كانوا يعرفون يونس، لا كما تقول التوراة أنهم لا يعرفونه، وفيه أن يونس هو الذي طلب منهم أن يقترعوا لا كما تقول التوراة أنهم هم الذين طلبوا ذلك . وفي الحديث أنهم اقترعوا ثلاث مرات لا مرة واحدة، كما تذكر التوراة، وفيه أيضا أن يونس هو الذي قذف بنفسه في البحر، ولم يقذفه فيه البحارة كما في التوراة.

وما ذكرته التوراة من أن يونس كان نائماً نوماً ثقيلاً عندما هاج البحر غير صحيح ، وفي هذا غمز في نبي الله يونس ، فليس النوم الثقيل في مثل هذا الحال من صفات أفذاذ الرجال .

ويصدق القرآن ما جاء في التوراة أن الحوت ابتلع يونس، ولكن لم تذكر التوراة ما ورد في الحديث من سماع يونس تسبيح حصا البحر، والدعاء الذي

ذكر في التوراة أن يونس دعا به ليس فيه الدعاء الذي ذكره القرآن . وهو دعاء يناسب حاله، بخلاف دعاء التوراة فليس فيه اعترافه بخطئه .

والذي في القرآن وصحيح الأحاديث أن يونس دعا قومه أهل نينوى فأبوا الإيمان، فأنذرهم يونس العذاب والهلاك، وهكذا أقوام الرسل لا يعذبون إلا إذا قامت الحجة عليهم، أما ما ذكرته التوراة من أن يونس جاء منذرا لهم بالعذاب، مخبرا إياهم بأنه سينزل بهم بعد أربعين يوما من غير إنذار سابق، ومن غير معاناة طويلة، مخالف للمعهود من حال الرسل مع أقوامهم .

ويصدق القرآن ما جاء في التوراة من توبة أهل نينوى ورجوعهم إلى الله، ويصدقه ما ذكر في الحديث من ذكر البهائم والتفريق بينها وبين أولادها، وفيها تفصيل لا يبعد أن يكون صوابا، ولكن التعبير بندم الله على الشر الذي كان سيصنعه بأهل المدينة تعبير سيء وخاطئ، فالندم فعل البشر، والصواب أن يقال: إن الله قبل توبتهم ورحمهم .

وليس صوابا ما جاء في التوراة من أن يونس غضب لرحمة الله إياهم، ومعاتبته لربه، والصواب أن يونس خشي القتل لأن العذاب لم ينزل، وكان حكم الكاذب عندهم القتل .

وليس صوابا أنه أنذرهم العذاب بعد أربعين يوما، بل بعد ثلاثة أيام كما ذكر في الحديث .

وما ذكرته التوراة من أن الله أنبت على يونس شجرة من يقطين، وأنها يبست فحزن عليها، وأن الله ضرب له المثل بها، فهو حزن على نبتة، ولم يحزن على أمة يزيد عددها على مائة ألف كله صحيح، ولكن ليس صوابا أن الله أنبت عليه شجرة اليقطين بعد إنذاره لقومه، وما صرح به الحديث، وهو مفهوم من القرآن أن ذلك كان بعد أن ألقاه الحوت من جوفه .

ولا يوجد في التوراة كثير من التفصيلات التي وردت في القرآن والحديث

فليس فيها السبب الذي دعا يونس إلى الخروج من قريته، وهو خوف القتل بسبب عدم نزول العذاب، وليس فيها أن يونس خرج من الحوت سقيما كالفرخ الممعوط، وليس فيها قصة الغلام بتفاصيلها .

عبر الحديث وفوائده

١ـ ينبغي للمؤمن أن يكون وقّافا عند أمر الله، صابرا لحكمه، ولا ينبغي له أن يعجل فيما يعلم أن لله فيه أمر .

٢ ـ أثر التوبة والإيمان في رفع غضب الله ومقته وانتقامه، كما وقع من قوم يونس لما آمنوا كشف الله عنهم العذاب .

٣ ـ قد يبتلي الله عباده الصالحين إذا وقع منهم شيء من المخالفة لأمر الله، كما ابتلى يونس عليه السلام، ولكنه ينجيهم بإيمانهم وصلاحهم ودعائهم، كما نجى يونس من بطن الحوت .

٤ ـ أثر الدعاء والاعتراف بالخطأ في النجاة من الأهوال، فقد نجى الله يونس بدعائه وتسبيحه ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات :١٤٣ـ ١٤٤] .

٥ ـ فيه دلالة على قدرة الله العظيمة، فقد أسكن السفينة ومنعها من الجريان، والسفن حولها تجري، ومنع الحوت من أن يهلك يونس عندما صار في بطنه، وأمره بإلقائه على شاطئ البحر، وأسمع يونس تسبيح الحصا في قعر البحر، وأقدر الشجر والحجر على النطق والشهادة للغلام .

٦ ـ رفع الله مقام الغلام راعي الغنم وجعله ملكا، والله يؤتي ملكه من يشاء، وأصلح ذلك الغلام أمر قومه تلك المدة الطويلة .

٧ـ مدى التغير الذي طرأ على قوم يونس، فقد صلح حالهم، واستقام أمرهم يدلك على ذلك أن ملكهم تنازل عن ملكه للراعي الذي قابل يونس،

وبلغهم عنه السلام، وشهدت البقعة والشجرة بصدقه .

٨ـ عظم جريمة الكذب، فقد كان في الأمم الغابرة من يعتبره إحدى الجرائم العظام التي يستحق مرتكبها القتل .

٩ـ كان في الأقوام غير قوم يونس في عصره رجال فيهم خير، فقد رفض أصحاب السفينة إلقاءه على الرغم من وقوع القرعة عليه مرة بعد مرة، حتى قذف هو بنفسه في البحر .

١٠ ـ هذه المخالفات التي وقعت من نبي الله يونس لا تغض من مكانته، ولا تنقص من قدره، فهو من أنبياء الله ورسله الذين اختارهم واصطفاهم وفضلهم، وقد حذر رسولنا ﷺ من أن يزعم زاعم أو يقول قائل: أنا خير من يونس بن متى من أجل هذا الذي وقع منه، ففي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: (لا يقولن أحدكم إني خير من يونس بن متى) وفي رواية: (ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى)[١] .

١١ ـ فضل دعوة ذي النون، وقد أصبح دعاؤه هو الدعاء الذي يطلقه المكروبون، ويدعو به المحزونون، والذين أحاط بهم الغم والهم ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] .

١٢ ـ جواز ركوب البحر كما ركبه يونس عليه السلام .

١٣ ـ مدى معاناة الرسل عليهم السلام في دعوتهم إلى الله ومواجهة قومهم، ومدى ابتلاء الله لهم وامتحانه إياهم .

١٤ـ طاعة المخلوقات لله عز وجل، فالحوت ابتلع يونس كما أمره، ولم يقض عليه، وعندما أمره بإلقائه استجاب لأمره، والحيتان وأسماك البحر، وحجارة البحر كلها تسبح الله، وقد سمع يونس تسبيحها .

(١) انظر الأحاديث الواردة في هذا النهي في صحيح البخاري ٦/٤٥٠، وأرقامها: ٣٤١٢ ـ ٣٤١٦ .

١٥- تصحيح القرآن وصحيح الحديث الأخبار التي حرفها بنو إسرائيل.

١٦- ذكر لنا رسولنا ﷺ صفة نبي الله يونس في حجه البيت العتيق، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه أن الرسول ﷺ أتى على ثنية تدعى ثنية هرشى فقال: (كأني أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام على ناقة حمراء جعدة، عليه جبة من صوف، خطام ناقته خلبة، وهو يلبي)[1].

وهرشى: جبل قرب الجحفة. والناقة الجعدة: المكتنزة اللحم. وخطام الناقة: الحبل الذي تقاد به. والخلبة: الليف. أي كان الحبل الذي تقاد به مصنوعا من الليف.

(١) صحيح مسلم: ٢٥١/٢، ورقمه: ١٦٦. مسند أحمد: ٣٥٢/٣، ورقمه: ١٨٥٤. طبعة الرسالة.

القصة الخامسة عشرة

وفاة نبي الله داود - عليه السلام -

تمهيد

في هذا الحديث قصة وفاة العبد الصالح والنبي المصطفى داود عليه السلام، كان ملكا عظيما، وأميرا مطاعا، فدخل ملك الموت داره من غير إذنه، وانتظره حتى رجع إلى منزله، فقبض روحه، من غير مرض أصابه، ولا آفة نزلت به، وفي ذلك تصويب لما جاء في التوراة من خبره، وتبرئة له مما ادعاه الذين كتبوا التوراة أن مَنْ حَوْلَه جاءوه بفتاة جميلة في مرض موته تضجع في حضنه، ليدفأ.

نص الحديث

روى الإمام أحمد عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (كَانَ دَاوُدُ النَّبِيُّ فِيهِ غَيْرَةٌ شَدِيدَةٌ، وَكَانَ إِذَا خَرَجَ أُغْلِقَتِ الأَبْوَابُ، فَلَمْ يَدْخُلْ عَلَى أَهْلِهِ أَحَدٌ حَتَّى يَرْجِعَ.

قَالَ: فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ، وَغُلِّقَتِ الدَّارُ، فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ تَطَّلِعُ إِلَى الدَّارِ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّارِ، فَقَالَتْ لِمَنْ فِي الْبَيْتِ: مِنْ أَيْنَ دَخَلَ هَذَا الرَّجُلُ الدَّارَ، وَالدَّارُ مُغْلَقَةٌ؟ وَاللَّهِ لَتُفْتَضَحُنَّ بِدَاوُدَ.

فَجَاءَ دَاوُدُ: فَإِذَا الرَّجُلُ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّارِ، فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا الَّذِي لا أَهَابُ الْمُلُوكَ، وَلا يَمْتَنِعُ مِنِّي شَيْءٌ. فَقَالَ دَاوُدُ: أَنْتَ وَاللَّهِ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَمَرْحَبًا بِأَمْرِ اللَّهِ، فَرَمَلَ دَاوُدُ مَكَانَهُ حَيْثُ قُبِضَتْ رُوحُهُ، حَتَّى فَرَغَ مِنْ شَأْنِهِ، وَطَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ.

فَقَالَ سُلَيْمَانُ لِلطَّيْرِ: أَظِلِّي عَلَى دَاوُدَ، فَأَظَلَّتْ عَلَيْهِ الطَّيْرُ، حَتَّى أَظْلَمَتْ عَلَيْهِمَا الأَرْضُ. فَقَالَ لَهَا سُلَيْمَانُ: اقْبِضِي جَنَاحًا جَنَاحًا، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُرِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ كَيْفَ فَعَلَتِ الطَّيْرُ وَقَبَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ الْمَضْرَحِيَّةُ).

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده: (٤١٩/٢) وقال ابن كثير بعد سياقه له: « انفرد بإخراجه أحمد، وإسناده جيد قوي، رجاله ثقات » . البداية والنهاية: (١٧/٢).

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد: (٢٠٧/٨) ثم قال في تخريجه: رواه أحمد، وفيه المطلب بن عبدالله بن حنطب، وثقه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح .

غريب الحديث

غلبت عليه المضرحية: المضرحية الصقور الطوال الأجنحة، واحدها مضرحي. وغلبتها عليه، أي غلبتها في التظليل عليه لطول أجنحتها .

شرح الحديث

هذا الحديث فيه قصة وفاة نبي الله داود، فقد أخبرنا رسولنا ﷺ أنه كان يوم وفاته في كامل صحته، وتمام عافيته، لا كما يزعم الذين دونوا التوراة، ففي سفر الملوك الأول أن داود في آخر أيامه شاخ، ولزم الفراش، وفقد قواه، فكانوا يدثرونه بالثياب فلا يدفأ، وأنهم أحضروا له فتاة جميلة كي تضجع في حضنه ليدفأ، وذكروا وصايا أوصى بها داود ابنه سليمان وهو في النزع .

وقد جاء هذا الحديث مصوبا لخبر وفاة داود الذي ذكروه في كتابهم، فداود عليه السلام لم يمرض قبل وفاته، ولم يكن بحاجة إلى فتاة تدفئه، ولست أدري لم يصر الذين حرفوا التوراة على تلطيخ الأنبياء وتقذير سيرتهم، فسليمان في زعمهم ساحر عبد الأصنام، ولوط زنى بابنتيه، وداود لم يدفئه إلا فتاة صغيرة جميلة تضجع في حضنه في مرض موته، كأنه لا يوجد عند ملك عظيم مثل داود وسائل تدفئة تدفع عنه البرد الذي أصابه.

إن داود عليه السلام لم يشخ، ولم يفقد قواه، ولم يمرض، فقد خرج داود في ذلك اليوم من داره كما كان يخرج في كل يوم، وكان فيه غيرة شديدة، ولذا فإن الأبواب تقفل بعد خروجه، فلا يدخل على أهله بعد خروجه أحد، فلما خرج في ذلك اليوم أقبلت امرأته تطلع على دارها، وتتفقد أحوالها، فوجدت رجلا قائما في وسط الدار، فعجبت من أمره، وكيفية دخوله، مع أن الدار مغلقة أبوابها بإحكام وسألت أهل منزلها وخدمها عن كيفية دخوله الدار، وخشيت من غضب داود إذا رجع فوجد رجلا في داره.

فلم يمض وقت طويل حتى جاء داود والرجل على حاله في الدار غير هياب ولا وجل، وعادة الرجال أن يفزعوا من مقابلة الملوك، ويحذروا من الدخول عليهم في منازلهم.

وسأل داود ذلك الرجل عن نفسه، فوصف نفسه وصفا عرفه به داود، فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا أمنع من الحجاب، فعرفه داود بنعته نفسه، وقال: أنت والله إذن ملك الموت، مرحبا بأمر الله، ثم مكث حتى قبضت روحه.

وأخبرنا نبينا ﷺ أنه لما غسل وكفن وفرغ من تجهيزه طلعت عليه الشمس، فأمر سليمان الطير أن تظله بأجنحتها، فأظلته وأظلت مشيعيه، فكان لا ينفذ إلى المشيعين شيء من أشعة الشمس، حتى أظلمت الأرض، عند ذلك أمر سليمان الطير أن تقبض جناحا، وقد أراهم الرسول ﷺ ممثلا بيديه كيف قبضت الطيور بأجنحتها، كما أخبرهم أن الصقور الطويلة الجناح، وهي التي سماها الرسول ﷺ بالمضرحية، غلبت غيرها في التظليل على داود في ذلك اليوم.

عبر الحديث وفوائده

١ ـ في هذا الحديث تصويب للأخبار التي ذكرها المؤرخون من بني إسرائيل في وفاة داود عليه السلام، وتبرئة نبي الله داود مما رماه به محرفو التوراة، ومن ذلك دعواهم أنه مرض قبل موته، وأن قومه أحضروا له فتاة صغيرة السن لتضجع في حضنه لتدفئه .

٢ ـ قدرة الملائكة على التشكل في صورة البشر، فقد تمثل ملك الموت في هيئة رجل رآه داود عليه السلام كما رأته زوجته .

٣ ـ التعرف على خلق كريم كان يتصف به داود عليه السلام، وهو الغيرة على أهله .

٤ ـ فضل سليمان عليه السلام في تسخير الطير له، وأمره الطير بإظلال داود ومشيعيه في ذلك اليوم الحار، حتى دفن .

القصة السادسة عشرة

نبي الله سليمان يرزق بنصف إنسان

التمهيد

يحدثنا نبينا أن نبي الله سليمان حلف على أن يطأ تسعا وتسعين امرأة من نسائه، تلد كل واحدة منهن فارسا يجاهد في سبيل الله، فلم تلد منهن إلا واحدة، ولدت نصف إنسان، لأنه لم يقل إن شاء الله .

نص الحديث

روى هذا الحديث البخاري ومسلم في صحيحيهما، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ: لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ : فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ، وَلَمْ تَحْمِلْ شَيْئًا إِلا وَاحِدًا سَاقِطًا أَحَدُ شِقَّيْهِ)

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (لَوْ قَالَهَا لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ) قَالَ شُعَيْبٌ وَابْنُ أَبِي الزِّنَادِ (تِسْعِينَ) وَهُوَ أَصَحُّ، والسياق للبخاري، وأورده البخاري في كتاب الجهاد بلفظ: (لأطوفن الليلة على مائة امرأة، أو تسع وتسعين امرأة).

وفي كتاب النكاح بلفظ (قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلام: لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ بِمِائَةِ امْرَأَةٍ، تَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ غُلامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: قُلْ إِنْ شَاءَ اللهُ ، فَلَمْ يَقُلْ، وَنَسِيَ، فَأَطَافَ بِهِنَّ، وَلَمْ تَلِدْ مِنْهُنَّ إِلا امْرَأَةٌ نِصْفَ إِنْسَانٍ). قَالَ النَّبِيُّ ﷺ(لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللهُ لَمْ يَحْنَثْ وَكَانَ أَرْجَى لِحَاجَتِهِ).

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٠]، (٤٥٨/٦) ورقمه ٣٤٢٤.

وفي كتاب الجهاد، باب من طلب الولد للجهاد، (٣٤/٦) ورقمه: ٢٨١٩
وفي كتاب النكاح، باب قول الرجل لأطوفن الليلة على نسائي . (٢٣٩/٩) ورقمه: ٥٢٤٢ .

وفي كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي . ٥٢٤/١١ ورقمه ٦٦٣٩ .

وفي كتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في الأيمان ٦٠٢/١١.

وفي كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة ٤٤٦/١٣ . ورقمه: ٧٤٦٩ .

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الأيمان، باب الاستثناء في الأيمان . ١٢٧٥/٣ . ورقمه: ١٦٥٤ . وهو في شرح النووي على مسلم: ٢٨٢/١١ .

غريب الحديث

لأطوفن الليلة: الطواف بالشيء الدوران حوله، والمراد بطوافه هنا الجماع، واللام واقعة في جواب قسم مقدر، أي والله لأطوفن .

صاحبه: المراد بصاحبه هنا الملك، كما ورد مجزوما به في بعض الروايات، أو على طريق الشك (صاحبه أو الملك) في رواية أخرى .

ساقطا أحد شقيه: يفسره ما ورد في الروايات الأخرى: أنها جاءت بنصف رجل، أو نصف غلام، أو نصف إنسان .

دركا لحاجته: دركا أي لحاقا، أي كان سبب إدراكه لها .

شرح الحديث

كان سليمان عليه السلام من أنبياء الله الصالحين، ومن الملوك المجاهدين، أعطاه الله ملكا عظيما، وسخر له الإنس والجن والطير والريح، ومن يتأمل فيما عرضه القرآن من أخباره يجد أنه كان شغوفا بالجهاد في سبيل الله، معتنيا بجنده، حريصا على تفقدهم، وتفقد عتادهم، ومتى عظم اهتمام الإنسان بأمر من الأمور فإنه يقضي عمره بتحصيل ذلك الشيء، وتنميته، وإقامته بين الناس.

يدلك على صدق شغف سليمان بالجهاد عنايته بجنده، واستعراضه لهم. ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]، واهتمامه بالخيل حتى شغله استعراضها عن أفعال الخير التي قد تكون أفضل منها ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ [ص: ٣١]، وانظر إلى محاسبته أحد جنوده عندما تفقد جنده من الطير فوجده غائبا ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢٧].

وقد بلغ من شغفه بالجهاد والإعداد للحروب وتنشئة المقاتلين ما أخبرنا به الرسول ﷺ من إقسام سليمان على أن يطأ في ليلته تسعة وتسعين امرأة من نسائه، تلد كل واحدة منهن فارسا يقاتل في سبيل الله، وفي بعض الروايات سبعين امرأة، وفي أخرى تسعين، وفي رابعة مائة .

ولكن أمله لم يتحقق، وحنث في قسمه، ولم يولد له إلا نصف إنسان، وقد بين الرسول ﷺ أن السبب في ذلك عدم قوله: إن شاء الله، على الرغم من تذكير الملك له بأن يقولها، ويبدو أنه كان مشغولا بأمور جعلته يغفل عن قولها، ليمضي قدر الله فيه، ولو قالها لم يحنث في يمينه، ولتحقق مراده كما أخبر الرسول ﷺ، وقد يكون نصف الإنسان الذي ولدته إحدى نسائه هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص/٣٤].

وقد يقال: كيف يقسم سليمان على وقوع أمر في المستقبل، وحدوث مثل هذا مما لا ينبغي أن يجزم به عباد الله الصالحون، **والجواب:** أن بعض عباد الله الصالحين يبر الله قسمهم إذا حلفوا، ويلبي دعاءهم إذا طلبوا، كما صح في الحديث (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره) .

ولا شك أن لسليمان مكانة عند ربه ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥] .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن من أصحابه من لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك، ومكانة سليمان أعلى من مكانة أفضل رجل في الصحابة .

وقد يقال: وأنى لسليمان هذا العدد من النساء ؟ **والجواب:** أنه كان يباح للرجال الزواج في شريعة موسى من غير تحديد عدد، وتذكر التوراة أن عدد نساء سليمان بلغ سبعمائة امرأة .

وقد أفادنا الحديث أن سليمان كان ذا قدرة عظيمة على معاشرة أزواجه، فقد طاف في ليلة واحدة على ذلك العدد الكبير من النساء .

عبر الحديث وفوائده

١ ـ رغبة الصالحين في إنجاب الذرية الصالحة، التي تجاهد في سبيل الله، كما رغب سليمان في إنجاب ذلك العدد الذي أقسم عليه.

٢ ـ كان التعدد في الزواج مشروعا في شريعة التوراة .

٣ ـ قدرة سليمان على معاشرة ذلك العدد الكبير من نسائه في ليلة واحدة على الرغم من انشغاله بأمور الدولة وسياسة الأمة .

٤ ـ يستحب لمن أراد معاشرة زوجته أن يقصد إنجاب الذرية الصالحة، كما فعل سليمان .

٥ ـ يجوز للمرء أن يخبر عما يغلب على ظنه حصوله ووقوعه في المستقبل، كما أخبر سليمان عما سيكون منه من الوطء، وما سيرزقه من الولد .

٦ ـ يجوز للمرء أن يحلف على فعل أمر في المستقبل، كما حلف سليمان .

٧ ـ ويجوز أن يكون اليمين منويا مقدرا، فسليمان لم يتلفظ بالمقسم به، ودلت عليه لام القسم .

٨ ـ على المسلم أن يعلق ما يعزم على فعله على مشيئة الله، فيقول سأفعل كذا إن شاء الله .

٩ ـ من أدب الأنبياء استعمال الكناية في الأمر المستقبح ذكره، فسليمان لم يقل لأطأن أو لأجامعن، بل قال: لأطوفن الليلة .

١٠ ـ إذا حلف المرء على فعل أمر في المستقبل، وقال: إن شاء الله لم يحنث في قسمه، وإن لم يقل إن شاء الله حنث .

القصة السابعة عشرة

قصة المرأتين اللتين خطف الذئب ابن إحداهما

تمهيد

هذه القصة تظهر عبقرية نبي الله سليمان في إظهار الحق في خصومة خلت من الدلائل التي تدل على صاحب الحق، فقد أظهر أنه يريد قتل الطفل الذي تنازعت فيه امرأتان كل تدعي أنها أمه، فظهرت الأم الحقيقية التي جادت به للأخرى حتى لا يقتل حفاظا على حياته، بينما قبلت الأخرى شقه نصفين .

نص الحديث

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقَالَتِ الأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلام، فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلام فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا. فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللهُ، هُوَ ابْنُهَا، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى).

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: واللهِ إِنْ سَمِعْتُ بِالسِّكِّينِ قَطُّ إِلا يَوْمَئِذٍ، وَمَا كُنَّا نَقُولُ إِلا الْمُدْيَةَ .

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ترجمة سليمان، ٤٥٨/٦ . ورقمه: ٣٤٢٧ .

ورواه في كتاب الفرائض، باب إذا ادعت المرأة ابنا . (٥٥/١٢) . ورقمه: ٦٧٦٩ .

ورواه مسلم في كتاب الأقضية . باب اختلاف المجتهدين ١٣٤٤/٣ ورقمه: ١٧٢٠.

وهو في شرح النووي على مسلم: ٣٨٠/١٢ .

ورواه النسائي في كتاب القضاء (٢٣٤/٨) .

غريب الحديث

المدية: السكين، لأنها تقطع مدى حياة الحيوان .

شرح الحديث

وقعت هذه القصة في عهد نبي الله داود عليه السلام، فقد تحاكمت إليه امرأتان، ذهب الذئب بولد إحداهما، فتنازعتا في الولد الآخر، كل تدعي أنه ولدها، فاجتهد نبي الله داود في الحكم بينهما، فأداه اجتهاده بالحكم به للكبرى بدلائل استدل بها على ذلك .

فلما خرجتا مارتين على نبي الله سليمان رأى أن يستخدم معهما طريقة يستطيع من خلالها أن يعرف الأم الحقيقة، فطلب ممن حوله أن يأتوه بسكين ليشق الغلام بينهما نصفين، فيعطي كل واحدة منهما نصفا، وبذا يعدل بينهما في الحكم، وقد ظنت المرأتان أن سليمان جاد وعازم على تحقيق هذا الحكم، وهنا

ظهر رد فعل كل واحدة منهما، فالأم الحقيقية، وهي الصغرى جزعت من الحكم، لأن فيه هلاك ولدها، فطابت نفسها به للأخرى، لأن في ذلك بقاءه وحياته، وإن كان فيه حرمانها من رعايته وتربيته، أما الأخرى التي لا تربطها بالطفل رابطة الأمومة، فإنها قبلت بالحكم الذي أظهره سليمان، فاستدل سليمان بذلك على الأم الحقيقية، فحكم لها بالطفل، على الرغم من إقرارها به للأخرى .

قال النووي رحمه الله تعالى: « توصل سليمان بطريق من الحيلة والملاطفة إلى معرفة باطن القضية، فأوهمهما أنه يريد قطعه، ليعرف من يشق عليها قطعه، فتكون هي أمه، فلما أرادت الكبرى قطعه عرف أنها ليست أمه، فلما قالت الصغرى ما قالت عرف أنها أمه، ولم يكن مراده أن يقطعه حقيقة، وإنما أراد اختبار شفقتهما، لتتميز له الأم، فلما تميزت بما ذكرت عرفها »[1] .

وهذا الذي أظهر به سليمان الحق، هو نوع من الفراسة والحكم بالقرائن، والاستدلال بالأمارات، وعدم الوقوف مع مجرد ظواهر البينات والأحوال، وقد استدل الشاهد الذي شهد من أهل المرأة التي راودت نبي الله يوسف عن نفسه على كذبها، وصدق يوسف بأن قميصه قدّ من دبر، ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٦-٢٨] .

وقد لجأ القضاة المسلمون إلى استخراج الحق بأنواع لطيفة من الدلائل والأمارات التي لا ينتبه إليها إلا من عظمت فطنته، وتبينت نباهته، وممن اشتهر بذلك من القضاة علي بن أبي طالب، والقاضي شريح، والقاضي إياس، وقد ذكر ابن القيم في كتابه (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) أمثلة كثيرة لهذا النوع استخرج فيه القضاة الحق بالفراسة والأمارات[2] .

---

(١) شرح النووي على مسلم: ٣٨١/١٢ .
(٢) راجع الطرق الحكمية: ص٢٧ . وإغاثة اللهفان لابن القيم: ٦٦/٢ .

وقد أخبرنا القرآن بواقعة أخرى خالف فيها نبي الله سليمان أباه داود عليه السلام في الحكم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]

والنفش هو رعي الغنم ليلا، ويسمى رعي النهار: هملا، وخلاصة القصة كما يقول علماء التفسير أن أغنام رجل دخلت في الليل بستان رجل آخر، فرعته حتى لم تبق منه شيئا.

فاحتكما إلى نبي الله داود، فحكم بدفع الغنم إلى صاحب الحرث، بدل ما أفسدته أغنامه من حرثه، وعندما مر الخصمان بسليمان بعد خروجهما من مجلس القضاء لم يرتض هذا الحكم، ولما استعلم منه داود عن حكمه في القضية، أشار عليه بأن يعطي صاحب الحرث الغنم، فيستفيد من حليبها وصوفها وأولادها بقدر ما ضاع عليه من نتاج بستانه، ويعطي صاحب الغنم الأرض، فيقوم على رعايتها حتى تعود كما كانت قبل أن ترعاها غنمه، فإذا عاد الحرث كما كان، أرجعه إلى صاحبه، واستعاد أغنامه، هذا خلاصة ما قاله أئمة التفسير في تفسير الواقعة المذكورة في النص القرآني، منهم ابن عباس، ومجاهد، وقتادة[1] .

وذكر ابن كثير في تفسيره أن الحافظ ابن عساكر أورد في ترجمة سليمان بن داود قصة مطولة عن ابن عباس خلاصتها: أن امرأة حسناء في زمان بني إسرائيل، راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم، فامتنعت عن كل منهم، فاتفقوا فيما بينهم عليها، فشهدوا عند داود عليه السلام أنها مكنت من نفسها كلبا لها، قد عودته على ذلك منها، فأمر برجمها، فلما كان عشية ذلك اليوم جلس سليمان، واجتمع معه ولدان مثله، فانتصب حاكما، وتزيا أربعة منهم بزي أولئك، وآخر بزي المرأة، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلبا .

(١) راجع: تفسير الطبري: ١٧/٥٢ . وتفسير ابن كثير: ٤/٥٧٦ .

فقال سليمان: فرقوا بينهم، فسأل أولهم: ما لون الكلب ؟ فقال: أسود، فعزله، واستدعى الآخر، فسأله عن لونه، فقال أحمر، وقال الآخر: أغبش، وقال الآخر: أبيض، فأمر عند ذلك بقتلهم .

فحكي ذلك لداود عليه السلام، فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة، فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب، فاختلفوا عليه، فأمر بقتلهم[1] .

هذه القصة في التوراة

وردت هذه القصة في التوراة في الفقرة (١٦ - ٢٨) من الإصحاح الثالث من سفر الملوك الأول ونصها:

« حينئذ أتت امرأتان زانيتان إلى الملك ووقفتا بين يديه، فقالت المرأة الواحدة استمع يا سيدي: إني أنا وهذه المرأة ساكنتان في بيت واحد، وقد ولدت معها في البيت، وفي اليوم الثالث بعد ولادتي ولدت هذه المرأة أيضا، وكنا معا ولم يكن معنا غريب في البيت غيرنا، نحن كلتينا في البيت، فمات ابن هذه في الليل، لأنها اضطجعت عليه، فقامت في وسط الليل وأخذت ابني من جانبي، وأمتك نائمة، وأضجعته في حضنها، وأضجعت ابنها الميت في حضني، فلما قمت صباحا لأرضع ابني إذا هو ميت: ولما تأملت فيه في الصباح إذا هو ليس ابني الذي ولدته، وكانت المرأة الأخرى تقول: كلا بل ابني الحي وابنك الميت، وهذه تقول: لا بل ابنك الميت، وابني الحي، وتكلمتا أمام الملك .

فقال الملك: هذه تقول هذا ابني الحي وابنك الميت، وتلك تقول: لا بل ابنك الميت وابني الحي . فقال: الملك ايتوني بسيف . فأتوا بسيف بين يدي الملك، فقال الملك: اشطروا الولد الحي اثنين، وأعطوا نصفاً لواحدة ونصفا للأخرى .

فتكلمت المرأة التي ابنها الحي إلى الملك، لأن أحشاءها اضطرمت على ابنها،

---

(١) تفسير ابن كثير: ٥٧٨/٤ .

وقالت استمع يا سيدي: أعطوها الولـد الحـي ولا تميتـوه، وأما تلـك فقـالت: لا يكون لي ولا لك، اشطروه، فأجاب الملك، وقال: أعطوها الولد الحيّ، لا تميتـوه، فإنها أمه، ولما سمع جميع إسرائيل بالحكم الذي حكم به الملك خافوا الملك؛ لأنهم رأوا حكمة الله فيه لإجراء الحكم » .

تعليقنا على ما ورد في التوراة:

التشابه واضح بين القصة التي في التوراة وبين القصة التي جـاء بهـا الحديـث، إلا أن قصة التوراة فيها شيء من التحريف، فالطفل لم يمـت لأن أمـه اضطجعـت عليه في الليل، بل مات لأن الذئب قد خطفه، ويبدو أنهما كانتا في خارج القريـة بعيدا عن الناس ، فالذئاب لا تخطف الأطفال من البيوت.

والأمر الثاني الذي فيه تحريف دعوى كتاب التوراة أن هذه الواقعـة جـرت على عهد ملك سليمان بعد وفاة داود، والصواب أنها جرت في عهد داود، وقـد حكم فيها داود أولا، وخالفه سليمان في حكمه، كما سبق بيانه .

والصواب أن سليمان دعا بالسكين كما في الحديث، ولم يدع بالسيف كمـا ذكر في التوراة، والسكين هي الأداة المناسبة لشق طفل صغير نصفين، لا السيف.

ومن تصويبات الحديث لقصـة التـوراة أن سـليمان طلـب السـكين ليشـق الطفل بينهما بنفسه، لأنه لم يكن ملكا في ذلك الوقت، بينما تقول التوراة أنه أمر جنده بشقه بالسيف؛ لأنه كان ملكا عند حكمه في هذا الواقعة، وقد ظهر لك ما في هذا القول من خطأ .

ويبعد أن تكون المرأتان زانيتين كما ورد في التوراة ، بدلالـة مـا بـدا مـن أم الطفل من عبارات تدل على صلاح وتقى، فهي تقول لنبي الله سليمان عندما أراد شق الغلام: " لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها » .

ولو كانتا زانيتين فهل كان يقرهما نبيا الله داود وسليمان على فعلهما ؟! أو ما كان يأمر برجمهما كما أمر برجم المرأة التي شهد عليها من شهد زوراً بالزنا!!

عبر الحديث وفوائده

١ ـ فضل نبي الله سليمان، وبيان ما آتاه الله من قوة الفهم، والقدرة على استخراج الحكم الصواب، فيما عرض عليه من قضايا متشابهة، وقد صح في الحديث أن سليمان دعى ربه أن يهبه حكما يوافق حكمه فأوتيه .

٢ ـ يجوز للقاضي أو الحاكم أن يظهر للخصوم فعل مالا يريده، كما طلب سليمان السكين لشق الولد نصفين، وهو لا يريد ذلك، بل مقصده إظهار الحق . وقد عنون النسائي لهذا الحديث بقوله: " السعة للحاكم في أن يقول للشيء الذي لا يفعله: افعل ليتبين له الحق » [1] .

٣ ـ جوز النسائي استدلالا بهذا الحديث نقض القاضي حكم قاضٍ آخر، ولو كان مثله في العلم أو أفضل منه .

وقد لا يكون هذا الاستدلال سليماً إذا كان سليمان لم يقض ولم يحكم، وإنما أعاد الأمر إلى داود، فنقض حكم نفسه، بتوجيه من سليمان، والله أعلم بالصواب .

٤ ـ الاستدلال بالقرائن والأمارات لمعرفة الحق في القضايا المتنازع فيها مشروع عند عدم وجود الأدلة .

٥ ـ دلت هذه القصص على أن الحاكم العالم مثاب أصاب أو أخطأ، فقد قرر الحق أن سليمان هو الذي فقه وجه الحكم، ومع ذلك أثنى على داود وسليمان، ولم يلم داود لعدم إصابته الحق فيما حكم به ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقد صرح الرسول ﷺ بأن الحاكم المصيب له أجران، أما المخطىء فله أجر واحد .

---

(١) سنن النسائي: ٨/٢٣٦ .

٦ ـ الأنبياء كانوا يحكمون فيما يعرض عليهم من قضايا باجتهادهم، ولذا اختلف حكم داود وسليمان، ولو حكموا بالوحي لما اختلفوا، ولذا فإن النبي قد يحكم لغير صاحب الحق، كما صح في بعض الأحاديث .

٧ ـ الفطنة والفقه لا تتعلق بالسن، فالصغير قد يفقه ويدرك ما لا يدركه الكبير، كما فقه سليمان الابن ما لم ينتبه إليه داود الأب، وكما فقه عبدالله بن عمر جواب سؤال سأله رسول الله ﷺ، و لم يفقه ذلك كبار الصحابة، وفيهم أبو بكر وعمر[1] .

٨ ـ تصحيح الحديث للأخبار التي وردت في التوراة في هذه القصة .

---

(١) الحديث في صحيح البخاري: ٢٢٩/١ , ورقمه: ١٣١ .

القصة الثامنة عشرة

إمام الصابرين نبي الله أيوب

تمهيد

أيوب العبد الصالح، الذي يضرب به المثل في الصبر، وتروى قصته ليواسى بها المصابون في أنفسهم وأهليهم وأموالهم، كان صحيحا فمرض، وغنيا فافتقر، وذا أهل وولد، فأخذ الله أهله وولده، فصبر على ذلك كله صبرا جميلا، لم يشتك، ولم يتأفف، وطال بلاؤه، ولم تهن عزيمته على طول البلاء، وجاء الفرج من الله عندما دعاه أيوب وناداه، فأصح جسمه، ورد إليه ضعفي ما كان عنده من مال وولد، وبقي خبره من بعده حكاية تروى، وقصة تحكى، **إنها قصة إمام الصابرين نبي الله أيوب** .

نص الحديث

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (إن نبي الله أيوب ﷺ لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك ؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به.

فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقولان غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمر بالرجلين يتنازعان، فيذكران الله ، فأرجع إلى بيتي، فأكفر عنهما، كراهية أن يذكر الله إلا في حق.

قال: وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته أمسكته امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأوحي إلى أيوب أن ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [سورة: ص: ٤٢]، فاستبطأته، فتلقته تنظر وقد أقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، والله على ذلك ما رأيت أشبه منك إذ كان صحيحاً، فقال: فإني أنا هو.

وكان له أندران (أي بيدران): أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض) .

تخريج الحديث

قال الشيخ ناصر الدين الألباني في تخريجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٤/١) « رواه أبو يعلى في مسنده » (١٧٦/١-١٧٧) وأبو نعيم في « الحلية» (٣٧٤/٣-٣٧٥) من طريقين عن سعيد بن أبي مريم، حدثنا نافع بن يزيد أخبرني عقيل، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك مرفوعاً، وقال: « غريب من حديث الزهري لم يروه عنه إلا عقيل، ورواته متفق على عدالتهم تفرد به نافع ».

قلت: وهو ثقة كما قال، أخرج له مسلم، وبقية رجاله رجال الشيخين فالحديث صحيح، وقد صححه الضياء المقدسي، فأخرجه في « المختارة» (٢٢٠/٢ - ٢٢١) من هذا الوجه، ورواه ابن حبان في «صحيحه » (٢٠٩١) عن ابن وهيب أنبأنا نافع بن يزيد ».

شرح الحديث

أيوب أحد أنبياء الله الكرام الذين أوحى الله إليهم في جملة من أوحى إليه من أنبيائه ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ [النساء: ١٦٣] .

وهو من ذرية إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

وقد أخبرنا الله عن قصته في موضعين من كتابه:

الأول: في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤] .

والثاني في سورة ص في قوله: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: ٤١ - ٤٤].

وقد جاء في السنة ما يزيد قصة أيوب وضوحا وتفصيلا، ويستفاد من مجموع ما ورد في القرآن والحديث في شأن أيوب أنه كان قبل بلائه منعما، يرفل في بحبوحة من العيش، وقد رزقه الله المال والأهل والولد، ثم شاء الله أن يبتليه، فأذهب ماله وولده، وأصيب في جسده، فانفض عنه من جمعتهم النعمة حوله، وجفاه القريب والبعيد، ولم يبق بارا به إلا زوجته، واثنان من كرام أصحابه، كانا يغدوان عليه ويأنس بهما .

وقد تفكر أحد الرجلين في حال أيوب، وامتداد بلائه، فقد مضى على البلاء الذي حل به ثماني عشرة سنة، و لم يكشف الله عنه ما أصابه به، وحال بخاطره أن هذا البلاء ربما كان بسبب ذنب عظيم ارتكبه أيوب، وأطلع هذا الرجل صاحبه على ما دار في خلده، فلم يصبر أن صارح أيوب بما قاله عنه صاحبه، فآلم ذلك أيوب أشد الألم، وكشف لهما من حاله ما ينفي تلك المقالة، فقد بلغ به الأمر في حال سلامته وعافيته أنه كان يرى الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فيرجع إلى منزله فيتصدق عنهما، كراهة أن يذكر الله إلا في حق .

هنالك توجه إلى ربه بالدعاء، طالبا منه كشف البلاء، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].

واستجاب الله دعاءه، وكشف عنه بلاءه، فالله على كل شيء قدير، وإذا شاء شيئا كان، لا يعجزه شيء في الأرض، ولا في السماء .

وكان من عادته أنه إذا خرج ليقضي حاجته جاءته زوجته، فأمسكت بيده لضعف بدنه، فإذا أوصلته إلى المكان المقصود، تركته ريثما يقضي حاجته، ثم عادت إليه تمسك به، تعينه على الرجوع إلى مكان إقامته، وقد أبطأ عليها في ذلك اليوم الذي دعا فيه ربه، فقد أوحى الله إليه أن يضرب برجله الضعيفة الأرض، فانبثق الماء من موضع ضربته، فأمره الله أن يشرب من ذلك الماء، ويغتسل منه، فأذهب الماء أمراضه التي في ظاهر جسده وباطنه، وعادت إليه الحيوية والنشاط في الحال، ورجعت له صحته وعافيته كأن لم يكن به مرض.

وعاد إلى زوجته يتدفق حيوية ونشاطا، كحاله قبل أن يداهمه المرض، فلما رأته لم تعرفه مع أنها رأت فيه شبه الزوج أيام كان صحيحا معافى، وسألته عن زوجها النبي المبتلى، وذكرت له ما لاحظته من شبهه به أيام كان سويا صحيحا، و لم تكن تتوقع أن يصلح حاله، ويشفى من مرضه في هذه المدة الوجيزة التي غابها عنها، وكم كان فرحها وسرورها عظيما عندما رأت نعمة الله عليه في رده عافيته

وصحته إليه .

وكما رد الله عليه عافيته وصحته، رد عليه ضعفي المال الذي فقده، ورزقه ضعفي ما كان عنده من الأولاد، فقد أرسل الله سحابتين، لا تحملان مطرا، بل ذهبا وفضة، وكان لأيوب بيدران: أحدهما للقمح، والآخر للشعير، فأفرغت إحدى السحابتين الذهب في بيدر القمح، وأفرغت الأخرى الفضة في بيدر الشعير.

وكان قد غضب على زوجته في مرضه، فنذر إن شفاه الله أن يضربها مائة ضربة، وعزَّ عليه بعد شفائه أن يكون جزاؤها منه على صبرها ورعايتها الضرب والجلد، وشق عليه أن لا يفي لربه بنذره، فجعل الله له فرجا ومخرجا، إذ أمره أن يأخذ حزمة من قش القمح أو الشعير، فيضربها بها ضربة واحدة، فيكون قد وفى بنذره، ولم يضير زوجته، قال تعالى لأيوب:﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤].

وقد ذهب الإمام أحمد إلى جواز ضرب من أصاب حدا كالزاني غير المحصن والقاذف بمثل ما ضرب به أيوب إن كان المحدود مريضا يخشى هلاكه بالضرب، وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يضربوا رجلا مريضا زنا بجارية بعثكال من نخل فيه مائة شمروخ ضربة واحدة(١) .

وكان أيوب عليه السلام خفيف الظل، ندي الروح، فيه دعابة في صدق، فقد أخبرنا الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (بينما كان أيوب يغتسل عرياناً خر عليه رجل من جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أغنك عما ترى ؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك)(٢).

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم: (٩٨/٢) والحديث المشار إليه عزاه الشيخ ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٢١٥/٦) ورقمه: ٢٩٨٦ إلى النسائي في السنن الكبرى وابن ماجة والبيهقي وأحمد وغيرهم .

(٢) جامع الأصول: ٥٢١/٨ . والرجل من الجراد: السرب من الجراد .

ولعلك تخيلت منظر أيوب، وهو يثب عريانا، يجمع ذلك الجراد ويحثيه في ثوبه، ويناديه ربه، ألم أغنك عما ترى، أي بما أفاضته السحابتان من الذهب والفضة في بيدريه، ويأتي الجواب: لا غنى لي عن بركتك يا رب .

قصة أيوب في التوراة

من يقرأ قصة أيوب في القرآن وصحيح الأحاديث، ثم يقرأ ما ورد في هذه القصة في التوراة يوقن أن أحد أهداف سوق هذه القصة في القرآن وإيراد تفصيلاتها في الحديث هو كشف التحريف الذي أصاب هذه القصة في أخبار بني إسرائيل، وتبرئة نبي الله أيوب مما نسبه إليه الظالمون المحرفون زورا وكذبا .

وأول زعم يحتاج إلى تصويب وتصحيح هو زعم كتاب قصته في التوراة أنه كان رجلا صالحا مستقيما فحسب، ولم يكن نبيا، **والأمر الثاني** الذي يحتاج إلى تصويب وتصحيح هو ما أخبرت به التوراة عن أيوب أنه كان ساخطا على ربه أثناء بلائه، ويتمثل هذا التسخط في ذلك الحوار الطويل الذي جرى بين أيوب وثلاثة من أصحابه، فأيوب على الرغم من إيمانه بربه وثقته به، فإنه يحاور أصحابه طويلا مبديا تألمه لابتلاء الله له على الرغم من صلاحه واستقامته وفعله الخير .

والحوار الذي جرى حوار طويل قصد به كاتبوه أن يعالجوا من خلاله مسألة عقدية، وهي الأسباب التي ينزل الله بها بلاءه بالصالحين من عباده الذين اتقوه، واستقاموا على أمره، وقد تناول الحوار هذه المسألة بتفكير فلسفي، وأسلوب شعري، ولذا يعتبر اليهود سفر أيوب أحد أسفار الحكمة.

والعجب أن يكون أيوب في التوراة هو الساخط المتبرم المبتعد عن الفقه السوي، الرافض التسليم للقضاء والقدر، وأن يكون أصحابه هم أهل الفقه والمعرفة الذين أجهدوا أنفسهم في سبيل تفهيمه وتعليمه ورده إلى جادة الصواب.

ويدل على كذب ذلك ما حدثنا به الرسول ﷺ عن صبر أيوب وعدم تبرمه

بما حل به إلى أن أخذت الظنون مأخذها في قلب أحد صاحبيه، فاستدل بطول بلاء أيوب على أن أيوب أذنب ذنبا عظيما حتى استحق هذا العذاب الطويل، فآلم ذلك أيوب، ورد عليهم بما ذكره لهم من تقاه وورعه أيام صحته وعافيته .

إن الذي قرره الحديث يدل على أن أيوب كان الأفقه والأتقى والأعلم، وأن الشك لم يأت من قبله، بل من قبل أحد صاحبيه.

صحيح أن التوراة تذكر أن أيوب فقه وتاب وأناب، وأكرمه ربه، ولكن ما ذكرته التوراة من تبرم أيوب وضيقه وتسخطه غير صحيح أصلا، وتوافق التوراة القرآن في الإخبار بأن أيوب كان ثريا قبل أن ينزل به البلاء، وأنه كان صاحب أهل وولد، وأن الله أذهب ماله، وأخذ ولده، كما أصابه البلاء في جسده، وأن الله بعد أن عافاه رد إليه أهله ومثلهم معهم.

ولكن كتاب التوراة يضيعون الحقيقة عندما يدعون أن الله عوض أيوب عن ماله بما أهداه إليه أخوته وأصدقاؤه من الأموال، وقد علمنا من حديث رسولنا كيف أفاض الله المال على أيوب من السحاب ذهبا وفضة، ولم يكن عودة المال إليه بهدايا أقاربه وأصحابه .

وتوافق التوراة ما أشار إليه القرآن من أن البلاء الذي أصاب داود في جسده كان سببه الشيطان، ولكن التفصيلات التي ذكرتها التوراة في المحاورة التي جرت بين الله وبين الشيطان غير صحيحة، وهي تخالف قواعد شرعية معلومة من الدين بالضرورة، فالله لا يحاور الشيطان بعد طرده من رحمته، وإن أذن له أن يصيب عباده بالأذى في بعض الأحيان لأمر يريده الله .

عبر الحديث وفوائده

١ ـ فضل نبي الله أيوب عليه السلام في صبره على ما ابتلاه الله به من فقد المال والأهل والولد، وسقم الجسد، وتفرق الأحباب عنه .

٢ ـ الصبر عاقبته إلى خير في الدنيا والآخرة، فقد عافى الله أيوب بعد ذلك المرض الطويل، ورد إليه صحته وعافيته، ورزقه المال الوفير، والأولاد الصالحين .

٣ ـ مدى تعظيم أيوب لربه، فقد كان يُكَفِّر عن الذين يتنازعون، فيذكرون الله خشية أن يذكر الله إلا في حق .

٤ ـ عظم وفاء زوجة أيوب لزوجها، وبرها به، وكذا صديقاه، فالمصائب تكشف معادن البشر، وعلى الرغم من قلة الذين تصفو معادنهم، فإنه لا يخلو منهم عصر ولا مصر إلا ما شاء الله .

٥ ـ قدرة الله على إزالة البلاء وشفاء المريض، فقد أعاد أيوب إلى عافيته وصحته في لحظات .

٦ ـ قدرة الله على أن يرزق عباده بطرق لم يعتادها البشر، فقد جاء أيوب بالمال الوفير من الذهب والفضة سحابتان، وخر عليه الجراد مصنوعا من الذهب .

٧ ـ جعل الله لأيوب فرجا ومخرجا في نذره، فوفى بنذره، ولم يضير زوجه، وقد ذكر ابن القيم أنه لم يكن في شرعهم كفارة، فإنه لو كان فيها كفارة لعدل إلى التكفير، ولم يحتج إلى ضربها، فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود، وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذورا خفف عنه، وامرأة أيوب كانت معذورة، لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان، وإنما قصدت الإحسان، فلم تكن تستحق العقوبة، فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذور، هذا مع رفقها به، وإحسانها إليه، فجمع الله له بين البر في يمينه، والرفق بامرأته المحسنة المعذورة التي لا تستحق العقوبة[١] .

٨ ـ في الحديث تبرئة لأيوب مما ألصقه به اليهود من مفتريات، وتقويم وإصلاح لما حرفوه وبدلوه من سيرته .

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: ٢/٩٧ .

القصة التاسعة عشرة

قصة النبي الذي أحرق قرية النمل

تمهيد

العدوان لا يحبه الله، حتى الاعتداء على الأشجار والحيوانات لا يجوز، ولذا نهى الله عن الإفساد في الأرض، ومن ذلك الإفساد بإهلاك الحرث والنسل، ويُسْأَلُ العبد في يوم القيامة عن العصفور الذي قتله، بغير وجه حق.

ومن هذا ما حدثنا به الرسول ﷺ أن الله عاتب أحد أنبيائه، والأنبياء لهم مقامات عند ربهم، ولا يمنع هذا من تقويمهم إذا أصاب تصرفاتهم شيء من الخلل، ولو كان يسيرا، نعم، عاتب الرب ذلك النبي على تحريقه إحدى قرى النمل، لأن نملة قرصته .

نص الحديث

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْتِهَا فَأُحْرِقَ بِالنَّارِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: فَهَلا نَمْلَةً وَاحِدَةً).

وفي رواية عند مسلم عن أبي هريرة: (أَنَّ نَمْلَةً قَرَصَتْ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: أَفِي أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ).

تخريج الحديث

روى هذا الحديث البخاري في صحيحه في كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في إناء أحدكم: ٣٥٦/٦ . ورقمه: ٣٢١٩ .

ورواه مسلم في كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، ١٧٥٩/٤ . ورقمه: ٢٢٤١ .

غريب الحديث

لدغته: قرصته .

جهازه: متاعه .

قرية النمل: مساكنها وبيوتها .

فهلا نملة واحدة: سؤال استنكاري، مفاده أن العدل معاقبة نملة واحدة، هي التي قرصتك .

شرح الحديث

يحدثنا رسولنا ﷺ أن أحد أنبياء الله كان نازلا تحت شجرة، لعله كان يستريح في ظلها من وعثاء السفر وعنائه، ويتقي بظلها حرارة الشمس، وكان بجوار المكان الذي نزله قرية من قرى النمل، ولعل نزول ذلك النبي وصحبه في أرض القرية أزعج النمل، وعادة النمل أنه يهاجم من يعتدي عليه، ويعكر عليه صفو عيشه، وقد توجهت نملة إلى نبي الله وقرصته .

والنبي بشر يغضب كما يغضبون، وقد يتصرف في بعض الأحيان تصرفاً تلقائيا يندم عليه، ويعاتب عليه، ومن ذلك ما تصرفه هذا النبي، فإنه غضب من النملة ومن قومها معها، وعزم على معاقبة قرية النمل كلها، وأمر أتباعه بإخراج

متاعه من تحت تلك الشجرة، ثم أشعل النار في قرية النمل، فحرقت النار النمل الذي كان يتجول في دياره وحولها، وصلت بحرها من كان بداخل جحوره في باطن الأرض.

إن مقتضى العدل والإنصاف أن لا يؤخذ البريء بجريرة المسيء، لقد اعتدت على نبي الله نملة واحدة، فإن كان لا بد من العقاب فلتعاقب تلك النملة دون غيرها، فقد أعلمنا نبينا أن من حقنا أن ندفع الصائل علينا من البشر والحيوانات ، حتى لو كانت الحيوانات مستأنسة، وهذه النملة باغية ظالمة، فإذا عاقبها من اعتدت عليه فلا لوم عليه، أما أن يعاقب كل النمل في تلك القرية فيحرق بالنار، فليس من العدل في شيء .

إن النمل أمة من الأمم التي خلقها الله، وهي تسبح الله وتقدسه مثل بقية الحيوانات، ولا يجوز للإنسان الاعتداء عليها إلا إذا آذته، ولذلك عاتب الله ذلك النبي ولامه على ما فعله، لأنه اعتدى في العقوبة، فعاقب البريء بجريرة المذنب، وقتل أمة تسبح الله، وقد قال الله له فيما أوحى إليه معاتبا إياه: هلا نملة واحدة!! أي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح الله !!!

إن الذي يربى على أن يتأثم من قتل نملة، لا يمكن أن يتأتى منه بعد ذلك أن يسفك دم إنسان بريء بغير حق، ويصبح نموذجا راقيا يحافظ على نفوس العباد، كما يحافظ على الحرث والنسل .

عبر الحديث وفوائده

١ - لا يجوز قتل النمل كما لا يجوز قتل بقية الحيوانات إلا الصائل والمؤذي منها، فيجوز قتله، وقد جاء في الحديث النهي عن قتل النملة والنحلة والهدهد والصرد، رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم[١] .

(١) شرح النووي على مسلم: ٣٩٩/١٤ .

ويستثنى من الحيوانات التي لا يجوز قتلها الفواسق الخمس، فإنهن يقتلن في الحل والحرم، والفواسق الخمس كما ورد في حديث رواه البخاري في صحيحه هن: الفأرة، والعقرب، والغراب، والحديا، والكلب العقور[1] .

وأمر الرسول ﷺ علاوة على الفواسق الخمس بقتل الوزغ، وأخبر أن في قتله أجرا[2]، وكذا أمر بقتل الحيات إلا حيات البيوت، فلا تقتل حتى تؤذن ثلاثا، فإن رؤيت بعد ذلك قتلت، واستثنى من ذلك نوعين من الحيات هما الأبتر وذو الطفيلتين فإنهن يقتلن مطلقا، ولو كن من سكان البيوت، لأنهن يسقطن ولد الحامل، ويذهبن البصر[3] .

٢ ـ التحريق بالنار للأحياء غير جائز في شريعتنا، وقد علل الرسول ﷺ عن هذا بأنه لا يعذب بالنار إلا رب النار، ولعله كان جائزا في شرائع الأنبياء من قبلنا، ولذا حرق هذا النبي قرية النمل .

٣ ـ النمل يسبح الله، كما ورد في الحديث، وقد أخبرنا ربنا أن كل شيء يسبح بحمد الله ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

٤ ـ أخبر الحديث أن النمل أمة من الأمم، وقد أخبرنا الله أن المخلوقات من الطيور والحيوانات كلها أمم أمثالنا ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] .

وقد توصلت الدراسات الحديثة إلى هذه الحقيقة، من خلال الملاحظة والمتابعة والنظر .

---

(١) صحيح البخاري: ٦/٣٥٥ . ورقمه: ٣٣١٤ .
(٢) انظر الأحاديث الآمرة بقتله في صحيح مسلم: ٤/١٧٥٧ . ورقمه: ٢٢٣٧ ـ ٢٢٤٠.
(٣) انظر الأحاديث الواردة بشأن الحيات في صحيح مسلم: ٤/١٧٥٤ .

القصة العشرون

قصة النبي الذي أُعجب بقومه

تمهيد

هذه قصة نبي من أنبياء الله أعطاه الله أمة كثير عددها، وأخرج له من أمته جيشا عظيما، كثير عدده، قوي بأسه، فأعجبه ما بلغته أمته، وجيشه، وقال: من يقوم لهؤلاء ويقف في وجوههم!!

فأهلك الله من قومه سبعين ألفا من جراء ذلك الإعجاب الذي وقع منه .

نص الحديث

روى الإمام أحمد في مسنده عن صهيب قال: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا صَلَّى هَمَسَ شَيْئًا لا أَفْهَمُهُ، وَلا يُخْبِرُنَا بِهِ، قَالَ: أَفَطِنْتُمْ لِي؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: إِنِّي ذَكَرْتُ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ أُعْطِيَ جُنُودًا مِنْ قَوْمِهِ، (وَفِي رِوَايَةٍ أُعْجِبَ بِأُمَّتِهِ). فَقَالَ مَنْ يُكَافِئُ هَؤُلاءِ؟ أَوْ مَنْ يَقُومُ لِهَؤُلاءِ؟ أَوْ غَيْرَهَا مِنَ الْكَلامِ.

فَأُوحِيَ إِلَيْهِ أَنِ اخْتَرْ لِقَوْمِكَ إِحْدَى ثَلاثٍ: إِمَّا أَنْ نُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، أَوِ الْجُوعَ، أَوِ الْمَوْتَ، فَاسْتَشَارَ قَوْمَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالُوا: أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ، فَكُلُّ ذَلِكَ إِلَيْكَ، خِرْ لَنَا، فَقَامَ إِلَى الصَّلاةِ، وَكَانُوا إِذَا فَزِعُوا، فَزِعُوا إِلَى الصَّلاةِ، فَصَلَّى مَا شَاءَ اللهُ.

قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَمَّا عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ فَلا، أَوِ الْجُوعُ، فَلا، وَلَكِنِ الْمَوْتُ، فَسُلِّطَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتُ، فَمَاتَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، فَهَمْسِي الَّذِي تَرَوْنَ أَنِّي أَقُولُ: اللَّهُمَّ بِكَ أُقَاتِلُ، وَبِكَ أُصَاوِلُ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ).

تخريج الحديث

قال الشيخ الألباني في سلسة الأحاديث الصحيحة: ٥/٥٨٨ . ورقمه: ٢٤٥٥: أخرجه أحمد (١٦/٦) حدثنا عبدالرحمن بن مهدي، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت بن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال ...فذكره .

قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، وتابعه معمر، عن ثابت البناني به نحوه، دون الورد الذي في آخره والرواية الأخرى والزيادة له: وزاد: وكان إذا حدث بهذا الحديث؛ حدث بهذا الحديث الآخر: كان ملك من الملوك، وكان لذلك الملك كاهن ....» الحديث بطوله .

أخرجه الترمذي (٢/٢٣٦- ٢٣٧)، وقد أخرجه مسلم: (٨/٢٢٩ـــ ٢٣١)، وأحمد في رواية له (١٦/١- ١٨) من طريق حماد بن سلمة: حدثنا ثابت بن دون الحديث الأول. وقال الترمذي: « حديث حسن غريب ».

قلت: وإسناده على شرطهما أيضاً .

وذكره الشيخ ناصر أيضا في الصحيحة (٥٠/٣) برقم ١٠٦١ وقال في تخريجه : «أخرجه ابن نصر في (الصلاة) (٢/٣٥): حدثنا إسحاق بن إبراهيم: أنبأنا أبو أسامة: حدثنا سليمان بن المغيرة: عن ثابت البناني، عن عبدالرحمن بن أبي ليلى: عن صهيب، قال: فذكره .

قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين .

وأخرجه الإمام أحمد (٣٣٣/٤، ١٦/٦) من طريقين آخرين عن سليمان ابن المغيرة به، ومن طريق حماد بن سلمة: حدثنا ثابت به نحوه، وفيه أن الصلاة هي صلاة الفجر، وأن الهمس كان بعدها، وفي أيام حنين . وروى منه الدارمي (٢١٧/٢) قوله: « اللهم بك أحاول، وبك أصاول، وبك أقاتل»

وسندهما صحيح على شرط مسلم » .

شرح الحديث

أخبرنا رسولنا ﷺ في هذا الحديث قصة نبي من أنبياء الله رزقه الله أمة كثيرة العدد قوية البأس، فنظر فيما أعطاه الله، فأعجبه ما رأى، ووقع في نفسه أنه لا يقوم لأمته أحد، ولا يستطيع أن يتغلب عليها متغلب .

وما هكذا يكون موقف من بلغ مرتبة النبوة، فإن الإعجاب بالنفس أو بالأولاد أو الأموال أو الأمة مرض خبيث، والمؤمن الحق لا تغره في مواجهة الأعداء كثرة جيشه، ولا تضيره قلته، فالنصر من عند الله وحده ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران/١٢٦] .

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة/٢٤٩] .

وفي بعض الأحيان يكون الإعجاب بالكثرة سبب الهزيمة، ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] .

وقد عوقب ذلك النبي في أمته، طلب الله منه أن يختار لقومه واحدة من ثلاث، إما أن يسلط عليهم عدوا من غيرهم، أو يسلط عليهم الجوع، أو يصيبهم بالموت .

وقد سألت نفسي عن السر في تخييره بين هذه الثلاث فوجدت أن كل واحدة من الثلاث تذهب قوة هذه الأمة وتضعفها، وتزيل العجب الذي حل في قلوبها وقلب نبيها، فإذا سلط الله عليهم عدوهم، فإنه يذلهم ويستبيح بيضتهم، وإن سلط عليهم الجوع فإن قوتهم تذهب، ويسهل التغلب عليهم، وإن أصابهم الموت قل عددهم .

واختيار واحدة من هذه الثلاث أمر محير، يحتاج إلى موازنة بين الثلاثة، وقد استشار هذا النبي قومه، فردوا الأمر إليه، فهو نبي الله، والأنبياء مهديون

مسددون.

وقد كان اختيار النبي موفّقا، لأنه اختار لهم الموت، دون الإصابة بالجوع وتسليط عدوهم عليهم، ولو كان الذي اختار واحد من أصحاب المقاييس الدنيوية لاختار غير ما اختاره ذلك النبي.

قد يظن بعض الذين لم يوفقوا للسداد أن الخيار الأنسب هو تسليط أعدائهم عليهم، لأنهم لا يفقدون أرواحهم، وإن كان العدو قد يسفك دماء بعضهم، ولكن ذلك النبي لا يرضى لقومه الإذلال والإهانة، وقد لا ينجيهم تسليط العدو عليهم من القتل.

وتسليط الجوع فيه عذاب شديد، وقد يكون الجوع سببا للضعف الذي يسلط الأعداء به عليهم، وقد يميت الكثير منهم.

أما خيار الموت فإنه اختيار لأمر آت لا بد منه، فمن لم يمت اليوم سيموت غدا أو بعد غد، وليس منه مهرب أو مفر.

اختار لهم الموت، فالذين يمضون إلى ربهم يرجى لهم أن يكونوا مقبولين عنده، والذين يبقون بعدهم سيتعظون بما وقع لهم، وقد يكثرهم الله - إن شاء - بعد قلتهم فالأمر بيد الله.

لقد فزع ذلك النبي إلى الصلاة، وهكذا الأنبياء والصالحون عندما يحزبهم أمر يقومون إلى الصلاة، فصلّى ما شاء الله له أن يصلي، فوفقه الله لاختيار أهون الأمور، وقال لربه: أما عدو من غيرهم فلا، أو الجوع فلا، ولكن الموت.

وسَرَى فيهم الموت سريان النار في الهشيم، فحصدهم حصدا، وأباد خضراءهم، فمات منهم في يوم واحد سبعون ألفا.

إن عاقبة إعجاب ذلك النبي بقومه مخيفة، وقد كان الرسول ﷺ يخاف على أصحابه مثل تلك العاقبة، فكان عقب الصلاة يقول همسا: (اللهم بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل) وهو في ذلك يستحضر قصة ذلك النبي، فيدعو بهذا

الدعاء الذي يتوجه به إلى الله متبرئا من حوله وقوته، ومن الاعتماد على قوة أصحابه وبأسهم، فهو في مواجهة الأعداء يعتمد على الله دون سواه، فمنه وحده العون وبه النصر، ولا حول ولا قوة إلا به.

عبر الحديث وعظاته

١ ـ تفقيه الرسول ﷺ أصحابه بالأسباب التي تؤدي إلى ضعفهم وهلاكهم، ومن ذلك إعجابهم بأنفسهم.

٢ ـ عاقبة العجب وخيمة، كما وقع لأمة ذلك النبي، ذلك أن العجب يضعف التوكل على الله والاعتماد عليه، ويجعل المرء يعتمد على الأسباب الدنيوية.

٣ ـ على الحكام وقادة الجنود وأصحاب الدعوات أن يحذروا أن ينزل الله بهم مثل ما أنزله بقوم ذلك النبي، ونحن نسمع ونرى في هذه الأيام كثرة إعجاب الزعماء والرؤساء والقادة بجيوشهم وأتباعهم.

٤ ـ قد يكون سبب البلاء خفيا لا يدركه إلا من فقهوا دين الله، فقد ينزل مثل هذا البلاء بقوم صالحين مجاهدين، ولا يدرون من أين أتوا.

٥ ـ وجود أمم صالحة من قبلنا كثيرة العدد، فيها مقاتلون كثيرون يجاهدون في سبيل الله، فالموتى من تلك الأمة بلغ عددهم سبعون ألفا في مدة وجيزة.

٦ ـ يستحب للمسلم أن يفزع إلى الصلاة إذا حزبه أمر لعل الله أن يرشده لأقوم أمره، ومن ذلك دعاء الاستخارة شرعه الله بعد صلاة ركعتين.

٧ ـ على المسلم أن لا يعجل في الأمور التي تحتاج إلى خيار، عليه أن يستشير كما استشار ذلك النبي قومه، وعليه أن يفكر طويلا موازنا بين الخيارات، وأن يدعو الله كي يوفقه للاختيار السديد.

القصة الحادية والعشرون

كذّب عيسى عينيه وصدق السارق

تمهيد

هذه قصة من قطع واحد، صغيرة الحجم عظيمة الفائدة، تدل على المدى الكبير الذي بلغه الرسل والأنبياء في تعظيمهم لله، لقد رأى عيسى رجلا يسرق، فحلف له بالله أنه ما سرق، فكذب عيسى ناظريه، وصدق اللص السارق .

نص الحديث

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ عن النبي ﷺ قال: (رَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَجُلا يَسْرِقُ ، فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟ قَالَ: كَلا وَاللهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ، فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَكَذَّبْتُ عَيْنِي).

تخريج الحديث

رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦] (٤٧٨/٦) ورقمه: ٣٤٤٣ .

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى (١٨٣٨/٤) ورقمه: ٢٣٦٦ . وهو في شرح النووي علىمسلم: ٥٠٦/١٥ .

شرح الحديث

إن الرسل والأنبياء نمط متفرد من الناس، وخاصة في تعظيمهم لربهم، وتقديسهم له، فهذا نبي الله عيسى عليه السلام يرى بناظريه لصا يسرق، ولكنه كذب عينيه وصدق السارق عندما أقسم له بالله الذي لا إله إلا هو أنه لم يسرق، لم يكن عيسى عليه السلام من الأغبياء الذين لا يفرقون بين الصادق والكاذب، ولكن الله كان في قلب عيسى أعظم من أن يحلف به أحد كاذبا .

لقد تخلص ذلك اللص من عيسى، ولكن أنى له التخلص من عذاب الله وانتقامه !! إن الرسل والأنبياء لم يبعثوا رقباء على العباد، فالله هو الولي والرقيب والحسيب، والله لا يكلف الرسل وخاصة إذا لم يكونوا حكاما وقضاة محاسبة الناس ومعاقبتهم .

القسم الثاني

القصص
الدالة على عجائب قدرة الله

القصة الثانية والعشرون

زوجين جاعا فرزقهما الله ما يأكلانه

تمهيد

هذه قصة زوجين صالحين، أصابهما جوع شديد، فدعت المرأة ربها أن يرزقها ما يذهب جوعها، ويسد حاجتها، فرزقا ذلك الرزق المذكور في الحديث.

نص الحديث

روى الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الدلائل، عن أبي هريرة قَالَ: «أَصَابَ رَجُلاً حَاجَةٌ، فَخَرَجَ إِلَى الْبَرِّيَّةِ، فَقَالَتَ امْرَأَتُهُ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا مَا نَعْتَجِنُ وَمَا نَخْتَبِزُ، فَجَاءَ الرَّجُلُ وَالْجَفْنَةُ مَلأَى عَجِينًا، وَفِي التَّنُورِ الشِّوَاءُ، وَالرَّحَى تَطْحَنُ، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ هَذَا؟ قَالَتْ: مِنْ رِزْقِ اللهِ، فَكَنَسَ مَا حَوْلَ الرَّحَى، فَقَالَ رسول الله ﷺ: (لَوْ تَرَكَهَا لَدَارَتْ أَوْ طَحَنَتْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) .

تخريج الحديث

أورد الشيخ ناصر الدين الألباني هذا الحديث في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (١٠٥١/٦) ورقمه: ٢٩٣٧ .

وعزاه إلى الطبراني في معجمه الأوسط، والبيهقي في الدلائل، والبزار في مسنده، وأحمد في مسنده، وأورد قول الهيثمي فيه في مجمع الزوائد: رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط بنحوه، ورجالهم رجال الصحيح، غير شيخ البزار، وشيخ الطبراني، وهما ثقتان .

غريب الحديث

الجفنة: إناء كبير يعجن به، ويقدم به الطعام.

شرح الحديث

أخبرنا الرسول ﷺ قصة زوجين صالحين، أصابهما جوع شديد، ولم يطق الرجل أن يمكث في منزله لشدة جوعه، فخرج إلى البرية، فدعت زوجته ربها، أن يرزقها طحينا تعجنه عجينا وتخبزه، وقد استجاب الله دعاءها، فعندما عاد الرجل إلى زوجته، كانت الجفنة، وهي وعاء كبير يعجن فيه ـ ملأى عجينا، والرحى التي يطحنون بها الحب تدور تطحن الحب، والتنور مليء باللحم الصالح للشواء.

فقال لها: من أين هذا ؟ قالت: من رزق الله، فكنس الرجل الطحين الذي حول الرحى، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الرجل لو ترك الرحى تطحن لبقيت كذلك إلى يوم القيامة.

إن بعض الناس قد ينكر مثل هذا الخبر، زاعما أن العقل يرفضه، ونسي هؤلاء أن هذا رزق رزقه الله لبعض عباده الصالحين كرامة لهم، والله على كل شيء قدير، وقد وقع للرسول ﷺ وأصحابه وقائع كثيرة، كَثَّر الله فيها طعامهم وشرابهم، فأكلوا وشربوا وهم كثيرون من طعام وشراب لا يكفي إلا القليل من الناس.

عبر الحديث وفوائده

١ ـ إثبات الكرامة لعباد الله الصالحين، وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة، تبلغ مبلغ التواتر، والإيمان بكرامات الأولياء من عقيدة أهل السنة والجماعة.

ولكن لا تكون الكرامة إلا للأولياء الأتقياء، فخوارق العادات قد تجري على

يد أفسد أهل الأرض، ومن ذلك ما أخبرنا به الرسول عن الدجال .

ولا يجوز الإخبار بكرامة لعبد من عباد الله إلا بخبر صادق أو رؤية ومشاهدة، فقد كثر الكذب في هذا الباب من الدجالين والأفاكين الذين يلعبون بعقول الناس، ويدّعون الكرامة لهم أو لشيوخهم كذبا وزورا .

٢ ـ عظم فضل الدعاء، فالله استجاب دعاء هذه المرأة، ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

٣ ـ وجود الصالحين في الأمم من قبلنا .

٤ ـ عرفنا هذا الحديث أن الناس منذ القدم كانوا يعرفون العجين والخبز، وكانوا يعرفون الرحى التي يطحن فيها الحب، والآنية التي يعجن فيها، والفرن الذي يخبز فيه ويشوى .

القصة الثالثة والعشرون

الذين أحيا الله لهم ميتا

تمهيد

هذه قصة طائفة من بني إسرائيل أحبوا أن يعلموا شيئا عن الموت وشدته ممن ذاقه، وعانى سكراته، فطلبوا من الله أن يحيي لهم ميتا من أموات مقبرة من مقابرهم، فأحيا الله لهم رجلا أخبرهم بأن حرارة الموت لم تسكن عنه حتى يومه ذاك، وقد مضى على موته مائة عام.

نص الحديث

عن جابر بن عبدالله: أن رسول الله ﷺ قال: (خَرَجَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى أَتَوا مَقْبَرَةً لَهُم مِنْ مَقَابِرِهِمْ، فَقَالُوا: لَوْ صَلَّيْنَا رَكْعَتَيْنِ، وَدَعَوْنَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُخْرِجَ لَنَا رَجُلاً مِمَّنْ قَدْ مَاتَ نَسْأَلُهُ عَنِ الْمَوْتِ، قَالَ: فَفَعَلُوا فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَطْلَعَ رَجُلٌ رَأْسَهُ مِنْ قَبْرٍ مِنْ تِلْكَ الْمَقَابِرِ؛ خِلاسِيٌّ، بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرُ السُّجُودِ، فَقَالَ: يَا هَؤُلاءِ مَا أَرَدْتُمْ إِلَيَّ؟ فَقَدْ مِتُّ مُنْذُ مَائَةِ سَنَةٍ، فَمَا سَكَنَتْ عَنِّي حَرَارَةُ الْمَوْتِ حَتَّى كَانَ الآنَ، فَادْعُوا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لِي يُعِيدُنِي كَمَا كُنْتُ).

تخريج الحديث

قال الشيخ ناصر الدين الألباني في تخريج هذا الحديث سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٠٢٨/٦) ورقمه: ١٢٠٩ :

أخرجه **أحمد** في الزهد (١٦ - ١٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦٢/٩) دون القصة، وكذا البزار في مسنده (١٠٨/١ / ١٩٢ ـ كشف الأستار)، والحديث أخرجه عبد بن حميد في المنتخب من المسند (ق ١٥٢/١) بتمامه، وكذا وكيع في الزهد (٢٨٠/١ /٥٦)، وابن أبي داود في البعث (٥/٣٠) .

وللجملة الأولى منه شاهد من حديث أبي هريرة مرفوعا .

أخرجه أبو داود (١٢٦/٢)، والطحاوي في مشكل الآثار (٤٠/١ - ٤١)، وابن حبان (١٠٩ - موارد) .

غريب الحديث

خِلاسي: أسمر اللون، يقال: وَلَدٌ خِلاسي، إذا ولد بين أبوين: أبيض وأسود .

شرح الحديث

شرع لنا رسولنا ﷺ التحديث عن أخبار بني إسرائيل، وعلل لذلك بقوله: (فإنّه كَان فيهم الأعاجيب) .

ثم حدثنا عن قصة من قصصهم التي فيها إحدى أعاجيبهم، وهي قصة طائفة من بني إسرائيل خرجت إلى مقبرة من مقابرهم، فاقترح بعضهم أن يصلوا ركعتين، ثم يدعوا الله ﷻ أن يخرج لهم أحد الموتى ليسألوه عن الموت، ومرادهم أن يزدادوا علما ويقينا، فإن الذي يزور القبور، ويتفكر في حال الموتى يتعظ، فهو

صائر إلى مثل ما صاروا إليه، وهؤلاء الموتى كانوا أحياء كحياته قبل أن يفارقوا الحياة .

ويجد المرء العبرة إذا تفكر في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية المخبرة عن الموت وسكراته، وعما يعانيه الذين تنزع أرواحهم، وعما يجري لهم في قبورهم، وعندنا في ذلك عن ربنا ورسولنا ﷺ نصوص كثيرة، فيها العبرة والعظة، لمن رزقه الله الفقه والتدبر .

وإذا شاهد المرء إحياء الموتى، وخاطبهم وخاطبوه، فإن إيمانه يزداد إن أراد الله به الخير، ورزقه قلبا منيبا مخبتا، وقد شاهد كثير من الناس عبر القرون إحياء الموتى، فقتيل بني إسرائيل ضربه قومه ببعض البقرة التي أمرهم الله بذبحها فأحياه الله، وأخبر عن قاتله .

والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وتعجب من إحياء الله هذه القرية بعد موتها، أماته الله وحماره مائة عام، ثم أحياه الله، فنظر إلى العظام كيف ينشزها الله، ثم يكسوها لحما، فإذا اكتمل الخلق عادت إليه الروح .

وأمر الله إبراهيم عليه السلام عندما سأله أن يريه كيف يحيي الموتى أن يقطع أربعة طيور بعد ذبحها، ويفرقها على رؤوس الجبال، ثم يدعوها، فإذا بأجزائها تتجمع، وترد إليها أرواحها، وتنطلق مسبحة ربها .

وقد شاهد الناس في زمن عيسى إحياءه للموتى، وأحيا الله الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، بعد موتهم .

ومن ذلك إحياء هذا الميت الذي أحياه الله بعد طلب هؤلاء الرفقة من بني إسرائيل أن يحيي الله لهم ميتاً ليسألوه عن الموت .

وقد استجاب الله دعاءهم فأخرج لهم رأسه من قبره، وقد وصف الرسول ﷺ ذلك الرجل، كأنما كان حاضرا معهم، فقد كان أسمر اللون، بين عينيه أثر السجود، فناداهم وخاطبهم منكرا عليهم ما فعلوه به، فقد أخبرهم أنه مات منذ

مائة عام، ولم تسكن حرارة الموت عنه حتى كان هذا الوقت الذي أحياه الله فيه، وطلب منهم أن يدعوا ربهم كي يعيده كما كان .

إن الذي حَدَّثَ به عن آثار الموت التي استمرت هذه الفترة الطويلة يدل على شدة معاناة الإنسان في موته، حتى لو كان صالحا، فهذا الرجل كان من الصالحين، بدلالة أنه كان يكثر من الصلاة، فأثر السجود كان ظاهرا بين عينيه .

عبر الحديث وفوائده

١ ـ مشروعية التحديث عن أخبار بني إسرائيل وقصصهم، فإن كانت هذه الأخبار مما جاء في الكتاب والسنة، فلا إشكال في التحدث بها، وإن كان مما يتناقل في الكتب، فإن كان يتضمن ما يخالف ما ثبت عندنا في حق الله وفي حق رسله، فلا يجوز التحدث به، إلا مبينا ما فيه من التحريف، وإن كان خبرا مجردا فلا بأس بالتحدث به .

٢ ـ قدرة الله على إحياء الموتى، فقد أحيا لأولئك النفر ذلك الرجل الذي حدثهم عن الموت .

٣ ـ يستحب لمن أراد أن يدعو بأمر عظيم أن يصلي قبل دعائه ركعتين، كما فعل الذين قص علينا الرسول ﷺ قبل دعائهم .

٤ ـ إثبات الكرامة للصالحين من عباد الله، فقد أحيا لهم رجلا أخبرهم عن الموت.

٥ ـ قد يجيب الله دعوة الصالحين، وإن كان في إجابتهم وقوع أمور مخالفة للمعهود من أمور البشر .

القصة الرابعة والعشرون

القرد الذي ألقى نصف المال في البحر

تمهيد

هذه قصة قرد كان يتبع تاجرا غشاشا، يشوب الخمر الذي يتاجر فيه بالماء، فأخذ القرد يوما مال التاجر الذي باع به الخمر، وصعد به ساري السفينة، وقسمه قسمة عدل، فكان يلقي بدينار في البحر، وآخر في السفينة، حتى قسمه نصفين، فأغرق المال الذي استحقه التاجر في مقابل الماء الذي شيب به الخمر، وأبقى المال الذي استحقه في مقابل الخمر.

نص الحديث

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ رَجُلاً كَانَ يَبِيعُ الخَمْرَ فِي سَفِينَةٍ وَكَانَ يَشُوبُ الخَمْرَ بِالْمَاءِ وَمَعَهُ قِرْدٌ، فَأَخَذَ الْكِيسَ فَصَعِدَ الدَّقَلَ، فَجَعَلَ يُلْقِي دِينَاراً فِي الْبَحْرِ وَدِينَاراً فِي السَّفِينَةِ، حَتَّى جعلَهُ نِصْفَيْنِ).

تخريج الحديث

أورد الشيخ ناصر الدين الألباني هذا الحديث في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٨٢٦/٦) حديث رقم: ٢٨٤٤ وقال في تخريجه : رواه الحربي في الغريب (٢/١٥٥/٥): حدثنا موسى: حدثنا حماد عن اسحاق بن أبي طلحة عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً .

قلت: وهذا سند صحيح، ورواه أحمد (٢/٣٠٦ و ٣٣٥و ٤٠٧) ، والحارث في مسنده (٥٠/٢ ــ زوائده) ، والبيهقي في " شعب الإيمان (٥٣٠٧/٣٣٢/٤) » من طرق .

وقد أطال الشيخ في ذكر طرق الحديث ، وبيان أسانيدها ، فراجعه إن شئت.

غريب الحديث

الدقل: خشبة يمد عليها شراع السفينة، ويسميها أصحاب الصنعة: الصاري.

شرح الحديث

هذه قصة تاجر كان يشوب الخمر بالماء، فأخذ قرده المال الذي باع به الخمر، وقذف بنصفه في البحر ونصفه في السفينة على النحو المذكور في الحديث.

والحديث في هذا يشير إلى الهلاك الدنيوي الذي يصاب به الذين يغشون في تجارتهم، فيخلطون الجيد بالرديء، أو يخلطون الشيء بغيره مما ليس له قيمة، أو له قيمة قليلة، كالذين يشوبون الحليب بالماء، أو يخلطون البنزين بالكاز، أو يخلطون الكاز بالماء.

وهؤلاء يأكلون أموال الناس بالباطل، وما يأخذونه من المال سحت يحاسبون عليه .

وفي الحيوانات أسرار لا نعرف عنها إلا القليل، فالقرود وخاصة المستأنسة تأتي بالعجائب، ومنها ما قام به هذا القرد في رميه دينارا في البحر وآخر في السفينة على النحو الذي ذكر في الحديث.

قد يقال: كيف ذُمَّ هذا الرجل لغشه في الخمر، ولم يلم لأنه باع الخمر التي

حرمها الله .

والجواب: أن الخمر لم تكن حراما في شريعة ذلك الرجل، وقد كانت الخمر في أول الأمر حلالاً في المدينة، ثم ذمت من غير تحريم، ثم حرم شربها قرب وقت الصلاة، مع عدم تحريم بيعها، ثم حرم شربها .

وقد كان المسلمون أيام كانت حلالا يبيعونها ويشترونها من غير نكير، وكان الغش فيها في ذلك الوقت حراما معاقبا عليه .

عبر الحديث وفوائده

١ ـ التحذير من الغش كخلط الحليب بالماء، فإن المال الذي يكسب من وراء ذلك قد يهلك في الدنيا قبل الآخرة .

٢ ـ التعجب من فعل القرد الذي حكم في مال الرجل بالعدل والإنصاف .

٣ ـ حل الخمر للقوم الذين منهم هذا الرجل .

٤ ـ جواز ركوب البحر والاتجار في السفن .

٥ ـ وجود السفن والدنانير المضروبة منذ عصور بعيدة .

القصة الخامسة والعشرون

قصة البقرة التي كلمت راكبها والذئب الذي كلم الراعي

تمهيد

هذا خبر من الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى عن أمر فيه عجب لمخالفته لمألوف الناس، فقد أخبر أن بقرة كلمت صاحبها عندما خالف مألوف الناس وعاداتهم في امتطائه ظهرها، وأنكرت عليه مخالفته لسنة الله فيها.

وحدثنا نبينا عن مخاطبة الذئب للراعي الذي أخذ الشاة منه بعد أن كاد يفترسها.

والتصديق بهذا واجب، لأنه من الإيمان بالغيب الذي مدح الله المتصفين به ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، والمراد بالغيب الممدوح أصحابه الغيب الذي صح الإخبار به عن الله وعن رسول الله ﷺ.

نص الحديث

روى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: (بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ. فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ، بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ!! فَقَالَ: فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَمَا هُمَا ثَمَّ.

وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ، فَطَلَبَ حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ: هَذَا اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ، يَوْمَ لا

رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي، فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ، ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ، قَالَ: فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا، أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَمَا هُمَا ثَمَّ».

تخريج الحديث

روى البخاري هذا الحديث في مواضع من صحيحه أتمها ما رواه في كتاب أحاديث الأنبياء، ٥١٢/٦. ورقمه: ٣٤٧١.

ورواه في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي: (لو كنت متخذا خليلاً): ١٨/٧. ورقمه: ٣٦٦٣.

ورواه في كتاب الحرث والمزارعة، باب استعمال البقر للحراثة. ٨/٥، ورقمه: ٢٣٢٤.

وذكر في باب فضائل عمر من كتاب فضائل الصحابة قصة الذئب المتكلم مع الراعي دون البقرة. ٤٢/٧. ورقمه: ٣٦٩٠.

غريب الحديث

عدا الذئب على غنمه: أي هاجم غنمه يريد افتراسها.

يوم السبع: بضم الباء وسكونها، والسبع هو الأسد، أو الحيوانات المفترسة.

شرح الحديث

حدثنا رسولنا ﷺ في هذا الحديث عن بعض العجائب والغرائب التي وقعت لبعض الناس من قبلنا، حدثنا عن رجل امتطى ظهر بقرة كما يمتطي الناس ظهور الخيل والحمير والبغال، فتباطأت به، فضربها لتسرع في سيرها، فإذا بالبقرة تلتفت إليه، وتكلمه بكلام البشر قائلة له مستنكرة ركوبه لها مخالفا سنة الله في خلقه

فيها: إنا لم نخلق لهذا، وإنما خلقنا للحرث، وكأنها تقول له: أنت ظالم لي بركوبك لي، لأنك استعملتني فيما لم يخلقني الله له، ذلك أن الظلم وضع الشيء في غير موضعه.

فقال الصحابة متعجبين، وإنه لموضع تعجب: سبحان الله، بقرة تتكلم !! ولكن تعجبهم لم يكن تكذيبا للرسول، فحاشاهم أن يكذبوه، ولكنهم سمعوا منه ما هو مخالف للمألوف المشاهد المعروف، فقال لهم مؤكدا الخبر، ومقررا إياه، إنه يؤمن بذلك، ويؤمن به أبو بكر وعمر، و لم يكونا موجودين في ذلك اليوم معه في المسجد عندما حدث بهذا الحديث، قال ذلك عنهما في غيبتهما، لعلمه بعظيم تصديقهما لربهما، وعظيم يقينهما وإيمانهما بقدرة الله على كل شيء، ومن ذلك إقدار البقرة على الكلام.

وحدثهم عن قصة أخرى كان المتكلم فيها ذئب، فقد عدا ذلك الذئب على غنم لأحد الرعاة، فأخذ منها شاة، وكان الراعي قويا شجاعا، فتبع الذئب واستنقذ شاته منه، فالتفت الذئب إلى الراعي مستنكرا عليه أخذ الشاة منه وقال له: ها أنت استنقذت هذه الشاة مني، فمن لها يوم السبع يوم لا راعي لها غيري؟ وهو يشير بيوم السبع إلى واقعة تقع في مقبل الزمان، تترك فيها الأنعام والمواشي وتهمل، فتعيث السباع فسادا فيها، لعدم وجود من يحميها ويحرسها، ويبدو أن ذلك يقع قرب وقوع الساعة، عند اشتداد الفتن.

وكما تعجب الناس من البقرة التي تتكلم، تعجبوا أيضا من الذئب الذي تكلم، وقالوا ما قالوه أولا، ورد عليهم، بما رده عليهم في القصة الأولى.

وما استغربه الصحابة هو تكليم الحيوانات للبشر بكلام البشر، أما أن يكلم البشر الحيوان بلغته فذاك أمر آخر، فقد كان نبي الله سليمان يفقه لغة الطير والحيوان، وقد أخبرنا أن جيش سليمان عندما أتى وادي النمل ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٨ - ١٩].

وعندما تفقد جنوده، ومنهم الطيور المجندة في جيشه، لم يجد الهدهد وهو أحد جنوده المجندة، فتوعده بالذبح إن لم يأته بما يبرر به غيبته، فلما حضر عنده، ووقف بين يديه خاطبه قائلا ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ، إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل : ٢٢ - ٢٣] إلى آخر ما قاله لسليمان.

ومن ذلك إخبار الهدهد سليمان بأخبار ملكة سبأ وقومها، وما هم عليه من الشرك وتكليف سليمان له بحمل رسالة منه لملكة سبأ، وتكليفه بحمل ردها على رسالته.

ومن ذلك أن بعض الحيوانات كلمت الرسول ﷺ، وفقه عنها ما تكلمت به، فقد شكا جمل إلى الرسول ﷺ أن أهله يتعبونه ويجيعونه.

أما تكليم الحيوانات للبشر بلغة البشر، فقد وقع منه ما أخبر به الرسول ﷺ في هذا الحديث، وقد روى أبو نعيم في دلائل النبوة أنه وقع لأحد أصحاب الرسول ﷺ اسمه أهبان بن أوس، فقد عدا الذئب على غنمه، فشد الذئب على الشاة، فصاح بالذئب، فأقعى على ذنبه، وخاطب الراعي قائلا: من لها يوم تشغل عنها ؟ تمنعني رزقا رزقنيه الله تعالى، قال فصفقت بيدي، وقلت: والله ما رأيت شيئا أعجب من هذا، وكان وقوع هذا بعد البعثة النبوية، فقال الذئب: أعجب من هذا، هذا رسول الله ﷺ بين هذه النخلات يدعو إلى الله، فأتى أهبان إلى النبي ﷺ فأخبره وأسلم.

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الساعة لا تقع حتى تكلم السباع الإنس، أي بلغتهم، وذلك كائن لإخبار الرسول ﷺ به.

ونحن وإن كنا نعجب من تكليم الحيوان للإنسان بلغته فإننا نؤمن به تصديقا لخبر الصادق المصدوق، وإيمانا منا بقدرة الله تعالى، وقد أخبرنا الله أن أعضاء الإنسان في يوم القيامة تكلمه وتشهد عليه، ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ ﴾[فصلت: ٢١].

عبر الحديث وفوائده

١ ـ استحباب وعظ الناس بالوقائع الدالة على عظيم قدرة الله، فقد جاء في هذا الحديث أن الرسول ﷺ حدث بهذا الحديث أصحابه بعد صلاة الصبح.

٢ ـ يجوز وعظ الناس بعد الصلاة.

٣ ـ بيان عظيم قدرة الله في خلقه، فالله قادر على أن يعلم الحيوان التكلم بلسان الإنسان.

٤ ـ يجب على المسلم أن يصدق بالأخبار التي جاء القرآن بها أو صح بها السند إلى رسول الله ﷺ، مهما كان الخبر مستغربا، لا فرق في ذلك بين الحديث المتواتر والآحاد، أما القصص الموضوعة والمكذوبة التي لم تصح الأحاديث بها فلا تجوز روايتها إلا لبيان كذبها وضعفها.

٥ ـ لا يجوز استعمال الحيوان في غير ما خلقه الله له، كأن تستعمل الأغنام في الحراثة، والأبقار في الركوب ونقل الأثقال، فالله خلق كل حيوان ليقوم بمهمات تناسب خلقه وقدراته.

٦ ـ فضل أبي بكر وعمر، فقد أخبر الرسول ﷺ عن عظيم إيمانهما، وقوة يقينهما، وكمال معرفتهما لعظيم سلطان الله وكمال قدرته، وأنهما يصدقانه فيما أخبر به من غير تردد على الرغم من غيابهما عن صلاة الصبح، وأغلب الظن أنهما ما غابا إلا لأنهما كانا خارج المدينة في سرية أو مهمة بعث بهما رسول الله ﷺ إليها، فقد علم من سيرتهما أنهما لا يتخلفان عن الصلاة مع الرسول ﷺ إذا كانا في المدينة.

القصة السادسة والعشرون

قصة المتكلم في المهد الذي دعا الله أن لا يجعله كالجبار

تمهيد

أخبرنا الرسول ﷺ أن الذين تكلموا في المهد في تاريخ البشرية ثلاثة، الأول عيسى عليه السلام، وخبره مفصل في القرآن، والثاني صاحب جريج، وسيأتي ذكر قصته، والثالث هذا الطفل الذي خالف أمه فيما دعت به.

نص الحديث

روي البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (كَانَتِ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْنًا لَهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ رَاكِبٌ ذُو شَارَةٍ، فَقَالَتِ: اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا، وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهَا يَمَصُّهُ). قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: « كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَمَصُّ إِصْبَعَهُ ».

(ثُمَّ مُرَّ بِأَمَةٍ، فَقَالَتِ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذِهِ، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَقَالَتْ: لِمَ ذَاكَ؟ فَقَالَ: الرَّاكِبُ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، وَهَذِهِ الأَمَةُ يَقُولُونَ سَرَقْتِ زَنَيْتِ وَلَمْ تَفْعَلْ).

ونص الحديث عند مسلم: (بَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ الثَّدْيَ، وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ، قَالَ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ فِي فَمِهِ، فَجَعَلَ يَمُصُّهَا، قَالَ: وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ

سَرَقْتِ، وَهِيَ تَقُولُ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرَّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا.

فَهُنَاكَ تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ، فَقَالَتْ: حَلْقَى، مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ، فَقُلْتَ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهَذِهِ الأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا، فَقُلْتَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، قَالَ: إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا: زَنَيْتِ وَلَمْ تَزْنِ، وَسَرَقْتِ وَلَمْ تَسْرِقْ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا).

تخريج الحديث

تخريج الحديث سيأتي في قصة جريج، فالقصتان جاءتا في حديث واحد.

غريب الحديث

ذو شارة حسنة: الشارة الحسنة تعني جمال المظهر في الهيئة والملبس والمركب.

الجبار: العاتي المتكبر القاهر للناس.

فارهة: قوية.

حلقي: دعاء مفاده: أصابه الله بوجع في حلقه، وهو دعاء يقوله الإنسان عندما يستثار، لا يريد به الإضرار بالمدعو عليه.

شرح الحديث

حدثنا الرسول ﷺ في هذا الحديث عن الثلاثة الذين تكلموا في المهد، فعيسى أولهم، وجريج ثانيهم، وثالثهم هذا الطفل الرضيع كانت أمه تجلس به على قارعة الطريق ترضعه، فمر بها وهي في تلك الحال فارس تدل هيأته ولباسه ودابته التي يركبها على أنه صاحب نعمة وثراء مع ما أوتي من مظهر يدل على القوة والصحة والفتوة، فأعجب المرأة، ودعت الله أن يجعل ابنها مثله، فترك الرضيع الثدي، وقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم عاد إلى ثدي أمه يمصه، ويرضعه، وحكى لنا رسول الله ﷺ هيأة ارتضاع الطفل بوضع إصبعه الشريفة في فمه، ومصه إياها، وهذا يدل على أن ارتضاع ذلك الطفل كان رضاعاً حقيقاً، ولم يقصد الرسول ﷺ به معنى مجازياً .

ولم يمض وقت طويل حتى مر على تلك المرأة جمع من الناس يَجُرُّون جارية ويضربونها، ويقولون لها: زنيت، سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل.

فدعت تلك المرأة أن لا يكون ابنها مثل تلك الجارية، فترك رضيعها الثدي، ودعا بأن يجعله الله مثلها.

هناك قام حوار بين الرضيع وأمه، وسألته أمه عن السبب في دعائه ربه مخالفا لما دعت به، فأعلمها بإعلام الله له أن الأول كان كافرا طاغية جبارا، وأما الثانية فكانت امرأة صالحة، وقد اتهموها بما اتهموها به كذبا وزورا.

عبر الحديث وفوائده

١ ـ قد يطلب البشر ما فيه مضرتهم، وينفرون مما فيه صلاحهم، فقد طلبت تلك المرأة أن يكون ابنها مثل ذلك الجبار الكافر، وهي لا تعلم أن في ذلك هلاكه، ودعت أن لا يكون ابنها مثل تلك المرأة الصالحة، وكان الخير أن يكون ابنها مثلها في صلاحها وتقواها، وإن اتهمت بما اتهمت به زورا وبهتانا.

٢ ـ ينبغي على الدعاة أن يستعملوا الوسائل التعليمية لإيضاح العلم وبيان الخير وإقراره في النفوس كما فعل الرسول ﷺ حين وضع إصبعه في فمه حاكيا رضاعة ذلك الصغير، ويوجد لهذا نظائر في الأحاديث الشريفة، فقد شرح الرسول ﷺ قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام : ١٥٣] بأن رسم خطا في الرمل، وقال: هذا صراط الله مستقيما، ورسم عن يمينه وشماله خطوطا، وقال: هذه السبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه.

٣ ـ يوجد الله في كل عصر آيات تدل عليه، وتعرف به، وتظهر القيم التي يحبها الله، والقيم التي يبغضها، ومن ذلك كلام هذا الغلام، وعدم رضاه بحال ذلك الجبار، ورضاه بأن يكون مثل الجارية.

القسم الثالث

القصص
الدالة على فضائل الأعمال

القصة السابعة والعشرون

الثلاثة الذين آواهم الغار

تمهيد

هذه القصة ترشدنا إلى سبيل الخلاص عندما تحيط بنا الكربات، وينقطع حبل الرجاء من العباد، ففي هذه الأحوال هناك باب من لا ينقطع منه الرجاء، فهو حاضر أبدا، وقادر أبدا، يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ في هذا الحديث بقصة أصحاب الغار الذين وقعت صخرة على فم غارهم فأغلقته، فتوسل كل واحد منهم إلى ربه بأرجى عمل عمله، ودعا الله به، فاستجاب الله دعاءهم، وكشف بلاءهم، وفرج كربهم .

نص الحديث

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: (بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ. فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللهَ تَعَالَى بِهَا، لَعَلَّ اللهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ .

فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ

أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ.

وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ، أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ، اتَّقِ اللهَ، وَلا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، فَفَرَجَ لَهُمْ.

وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ، فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي، فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ، وَلا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا فَخُذْهَا، فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ، وَلا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ: إِنِّي لا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللهُ مَا بَقِيَ) .

وهذا السياق لمسلم .

تخريج الحديث

هذه القصة رواها البخاري في مواضع من صحيحه، فقد رواها في كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئا لغيره، بغير إذنه فرضي . ٤٠٨/٤ . ورقمه ٢٢١٥.

ورواها في كتاب الحرث والمزارعة . باب إذا زرع بمال قوم بغير إذنهم، وكان في ذلك صلاح لهم . ١٦/٥ . ورقمه: ٢٣٣٣ .

وفي كتاب أحاديث الأنبياء . باب حديث الغار . ٥٠٥/٦ . ورقمه:

٣٤٦٥ . وفي كتاب الأدب، باب إجابة دعاء من بر والديه . ١٠/٤٠٤ .ورقمه: ٥٩٧٤ .

ورواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء . باب قصة أصحاب الغار الثلاثة . ٤/٢٠٩٩ . ورقمه: ٢٧٤٣ .

غريب الحديث

الغار: النقب في الجبل . وقد يسمى كهفا كقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩].

نأى: النأي البعد، والمراد أنه أبعد في طلب المرعى لغنمه .

الحلاب: الإناء الذي يحلب فيه، وهو القدح كما جاء في بعض روايات الحديث.

يتضاغون: يبكون من الجوع .

الغبوق: شراب المساء (العشاء) والصبوح: شراب الصباح (الفطور) .

ألمت بها سنة: أصابها الجدب والقحط .

لا تفض الخاتم إلا بحقه: نهي له عن مواقعتها بالحرام، ويبدو أنها كانت بكرا، وحقه أن يكون بطريق الحلال، وهو الزواج .

التحرج: الهرب من الحرج، وهو الإثم والضيق .

الفرق: مكيال يسع ثلاثة آصع .

انساحت: انفسحت، وزالت من مكانها .

مكان القصة وزمانها:

تتبع العلامة ابن حجر العسقلاني ألفاظ هذا القصة ورواياتها في كتب السنة، وبين أنه لم يصح حديث في بيان مكان القصة وزمانها، إلا أنه ورد حديث ضعيف رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر في الدعاء أن الثلاثة الذين ذكروا في القصة كانوا من بني إسرائيل[1] .

وما دل عليه الحديث هو الراجح لدي، لا اعتمادا على الحديث الضعيف، وإنما استنتاجا مما ورد في روايات الأحاديث الصحيحة، فالثلاثة المذكورون في القصة كانوا مسلمين موحدين، وأقوامهم كانوا كذلك، يدلك على ذلك ما كان من ابنة عم ذلك الرجل من النفور من الفاحشة ومخافتها من الله، ومخاطبة الأجير لصاحب المال بقوله: يا عبدالله، واتصاف أولئك الثلاثة بتلك الأخلاق العالية، التي تدل على استقامة وتقى وصلاح، وتصريح كل واحد من الثلاثة أنه فعل ما فعله من أجل الله، ولم يهيأ لأمة أن تتصف بالخير والصلاح قبل أمتنا كبني إسرائيل .

ويترجح لدي أن الأرض التي وقعت القصة فيها هي أرض فلسطين، ذلك أنها أرض ذات جبال وسهول وغيران، وهؤلاء الثلاثة أووا إلى غار والغيران لا تكون إلا في الجبال، والصخرة قد انحدرت إليهم من الجبل .

وعلى كل، فسواء أكان هؤلاء الثلاثة من بني إسرائيل أم من غيرهم، وسواء أكانت القصة في فلسطين أو غيرها، وسواء أعرفنا أسماء الثلاثة الذين آواهم الغار أم لم نعرف فلا يقلل ذلك من قيمة القصة، فإن العبرة العظمى في القصة هي إنجاء الله لمن توسل إليه بصالح الأعمال، وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا، وهذا واضح من القصة، بغض النظر عن معرفة الزمان والمكان، والله المستعان .

ولا يقبل ما ذهب إليه بعض أهل العلم من أن الغار الذي أوى إليه الثلاثة

(١) فتح الباري: ٥٠٦/٦، ٥١٠ .

هو الغار الذي أوى إليه أصحاب الكهف المذكورون في القرآن، استدلالاً بالحديث الذي رواه البزار والطبراني بإسناد حسن عن النعمان بن بشير أنه سمع النبي ﷺ يذكر الرقيم، قال: (انطلق ثلاثة فكانوا في كهف، فوقع الجبل على باب الكهف، فأوصد عليهم ...) الحديث[1] .

فهذا الغار غير ذلك الغار، وليس في الحديث ما يدل على أن هذا الغار هو غار أصحاب الكهف، يدلك على ذلك اختلاف القصتين، واختلاف أحداثهما .

شرح الحديث

هذه القصة تحدثنا عن ثلاثة رجال خرجوا من ديارهم ليتنزهوا أو يرتادوا لأهلهم، ويطلبون لهم القوت، وبينما هم في سيرهم تلبدت السماء بالغيوم، وتساقط المطر غزيرا مما أحوجهم إلى أن يبحثوا عن مكان يأويهم من المطر، فوجدوا طلبتهم في غار قريب منهم، ولكن الغار الذي دخلوه محتمين به من الأمطار أصبح لهم قبرا، فقد جرفت السيول الشديدة التي شكلتها الأمطار الصخور من أعالي الجبال، وانحدرت صخرة عظيمة من الجبل، ومضت في طريقها حتى استقرت على فم الغار فسدته، وكانت من العظم بحيث لا تجدي قوتهم شيئاً في دفعها وتحريكها .

لقد أصبحوا بعد انطباق الصخرة عليهم في حال أشد من الحال التي كانوا فيها، فقد كانوا يستطيعون الصبر على الأمطار التي كانت تتساقط عليهم، أما هذه الحال فإنها تؤدي إلى هلاك محقق .

لقد أصبحوا محصورين في هذا الغار الذي لا حيلة لهم باختراقه بقوتهم الذاتية، ولا سبيل عندهم لإخبار أقوامهم، فوسائل الاتصال الحديثة غير موجودة في تلك الأيام، ولو أراد أقوامهم أن يبحثوا عنهم عندما تطول غيبتهم فلن يهتدوا

---

(١) فتح الباري: ٥٠٦/٦ .

إلى مكانهم، فالآثار التي تتركها أقدام الضائعين والتي كان قصاص الأثر ولا يزالون يتتبعون بها من يريدون البحث عنه ضاعت، فإن الأمطار الشديدة، والسيول التي تشكلها تزيل آثار الأقدام، كما تزيلها الرياح السوافي من الرمال، وحتى لو مر بعض الناس بقربهم فإنهم لا ينتبهون إليهم، ولا يعرفون بمكانهم، وصراخهم لن يصل صداه إلى أبعد من جدران الكهف الذي يحيط بهم.

في مثل هذا الموقف يعلم العباد يقينا أنه لا نجاة لهم إلا با لله، وأن الله وحده العالم بمكان وجودهم، وهو يراهم ويسمعهم، فالله لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

ومثل هؤلاء مثل الذين أحاطت بسفينتهم أمواج البحر في يوم عاصف، ترفعهم موجة، وتهبط بهم أخرى، وهم لا يملكون من أمرهم شيئا .

ومثلهم مثل الذين حدث خلل في بعض محركات طائرتهم، فأخذت تتأرجح بهم في الفضاء، تستقيم مرة، وتميل أخرى، تسكن مرة، وتضطرب أخرى .

ومثلهم مثل الذين خسفت بهم الأرض أو زلزلت وخرت فوقهم عروش بيوتهم، وأصبحوا مأسورين في مساحة ضيقة تحت الأنقاض، إن العباد في مثل هذه الأحوال حتى لو كانوا فجرة فاسقين، فإنهم يجأرون إلى ربهم يطلبون عونه ورعايته، فهو القادر حيث لا تعمل قدرة العباد، وهو الحافظ حيث لا تصل الوسائل التي يحفظ بها العباد العباد ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣١]، ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢].

وبعض العباد في مثل هذه المواقف يكتفي بالدعاء، وآخرون يتوسلون إلى الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، وآخرون يتوسلون إلى الله بصالح أعمالهم، وهذا ما أشار أحدهم به فقد طلب من صاحبيه أن يتوسل كل منهم بأرجى ما عمله قاصدا فيه

وجه الله .

وقد ذكر كل واحد منهم عملا صالحا عمله لله، وشفع ذلك بدعاء ربه أن يفرج عنهم شيئا مما هم فيه إن كان صادقا فيما أخبر به، وكانت الصخرة تنفرج شيئا كلما ذكر واحد منهم عمله ودعا بالتفريج، حتى إذا أتم الثالث خبره ودعاءه انزاحت الصخرة، وخرجوا يمشون .

وكان في ذلك أعظم دلالة على أن الله كان يسمع شكاتهم، ويعلم حالهم، وصدقهم فيما قالوه، فأزال ضرهم، وفرج كربهم، وكان خبرهم عبرة لغيرهم، ممن أصابه الضر كما أصابهم .

وكان فيما حدثوا به من صالح أعمالهم التي أنجاهم الله بها ما يدل على صلاحهم وتقواهم من جهة، ويدل من جهة أخرى على عظم هذه الأعمال وأنها محبوبة عند الله تعالى .

وقد توسل أولهم ببره بوالديه، وكان يعمل راعيا، وأهل الرعي يعتمدون على حليب أغنامهم وأبقارهم وجمالهم، وكان من أمره أن يحلب بعد عودته مواشيه، ثم يبدأ بوالديه فيسقيهما قبل أولاده وزوجته .

وفي أحد الأيام ابتعد في طلب المرعى، فلم يعد إلا بعد مضي هزيع من الليل، فحلب كما كان يحلب، وجاء بالحلاب إلى والديه، فوجدهما قد ناما، فكره أن يوقظهما، وكره أن يسقي صغاره قبلهما، فبقي ليله ساهرا، إناء الحليب على يده، وصغاره يبكون عند رجليه يريدون طعامهم، وهو يكره إيقاظ والديه، حتى طلع الفجر، فسقاهما، ثم سقى صغاره وأهله بعدهما .

ولا يعلم أحد غير الله مدى المشقة التي عاناها هذا الرجل في تلك الليلة، فالأمر لم يكن سهلا عليه، فهو رجل يرعى الغنم، وقد سار بعيدا عن الديار، فأجهده المسير وأرهقه، وزاده رهقا أنه لم يتناول عشاءه، أضف إلى هذا وذاك أن صغاره يبكون، وكم يألم الآباء إذا رأوا صغارهم جوعى باكين .

إنها صورة فريدة لما يصنعه الإيمان، فالمبادئ الأرضية، والتعاليم البشرية لا يمكن أن ترتقي بالإنسان ليبلغ هذا المبلغ من قوة الاحتمال، ونبل العواطف، وتقدير الآباء وتوقيرهم .

وتوسل الثاني إلى ربه بمخافته من الله، تلك المخافة التي دفعته إلى ترك الفاحشة، وكبت الشهوة، وكان من أمره أنه أراد ابنة عم له على نفسها، وكانت أحب الناس إليه، فكان يعصمها إيمانها منه، فتأبى عليه، حتى أصابتها فاقة وحاجة اضطرتها إلى موافقته على رأيه والخضوع لرغبته، بعد أن دفع لها مبلغا كبيرا من المال اشترطت عليه أن يدفعه لها قبل أن تمكنه من نفسها، ولكنه عندما قدر عليها وقعد منها مقعد الرجل من زوجته انتفضت وارتجفت، فلما استعلم منها عن سبب رجفتها وانتفاضتها أخبرته أن ذلك من مخافة الله، فإنها لم ترتكب هذه الفاحشة من قبل .

فقام عنها مخافة الله، وترك لها الذي أعطاها إياه .

وقد حدثت مثل هذه الواقعة مع رجل من بني إسرائيل كان فاجرا منتهكا للحرمات، وكان من شأنه أن يفجر بمن استطاع الوصول إليه من النساء، وقدر مرة على امرأة ، فارتجفت، وخافت، فلما استعلم منها عن سبب ذلك، وجد أن خوفها كان من الله، فتاب وأناب، وعاهد ربه على الإقلاع عن الذنوب، ومات من ليلته، فغفر الله ذنبه، وأدخله رحمته وجنته.

روى الترمذي في سننه عن ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إلا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، حَتَّى عَدَّ سَبْعَ مَرَّاتٍ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ : (يَقُولُ كَانَ الْكِفْلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِينَارًا عَلَى أَنْ يَطَأَهَا، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنِ امْرَأَتِهِ أَرْعَدَتْ وَبَكَتْ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكِ؟ أَأَكْرَهْتُكِ؟ قَالَتْ: لا، وَلَكِنَّهُ عَمَلٌ مَا عَمِلْتُهُ قَطُّ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَيْهِ إلا الْحَاجَةُ.

فَقَالَ: تَفْعَلِينَ أَنْتِ هَذَا، وَمَا فَعَلْتِيهِ، اذْهَبِي فَهِيَ لَكِ. وَقَالَ: لا واللهِ، لا

أَعْصِي اللهَ بَعْدَهَا أَبَدًا، فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ، فَأَصْبَحَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِهِ، إِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لِلْكِفْلِ).

وقَالَ الترمذي هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، قَدْ رَوَاهُ شَيْبَانُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ عَنِ الأَعْمَشِ نَحْوَ هَذَا، وَرَفَعُوهُ، وَرَوَى بَعْضُهُمْ عَنِ الأَعْمَشِ فَلَمْ يَرْفَعْهُ .

وَرَوَى أَبو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ هَذَا الْحَدِيثَ عَنِ الأَعْمَشِ فَأَخْطَأَ فِيهِ. وَقَالَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، وَهُوَ غَيْرُ مَحْفُوظٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ الرَّازِيُّ هُوَ كُوفِيٌّ، وَكَانَتْ جَدَّتُهُ سُرِّيَّةً لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الرَّازِيِّ عُبَيْدَةُ الضَّبِّيُّ، وَالْحَجَّاجُ بْنُ أَرْطَاةَ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ كِبَارِ أَهْلِ الْعِلْمِ[1] .

وتوسل الرجل الثالث بحفظه لأموال أجير ترك ماله وذهب، فثمر له ماله حتى أصبح مالا عظيما، فلما جاءه الأجير بعد غيبة طويلة يطلب ذلك الأجر القليل، أعطاه كل المال الذي نتج عن ماله، فأخذه، ولم يترك منه شيئا .

إن ما قاموا به نماذج راقية، لا يعرفها العالم المتحضر اليوم، إلا من رحم الله، وقد فرج الله عن هؤلاء الأخيار كربهم، وكشف عنهم، وأطلق أسرهم .

عبر الحديث وفوائده

١ ـ مشروعية التوسل إلى الله بصالح الأعمال، كما توسل هؤلاء الثلاثة إلى الله بأعمالهم الصالحة التي عملوها فأنجاهم الله .

٢ ـ أثر التقوى في تخليص العبد من كربه وبلائه، ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

٣ ـ مشروعية الدعاء عند حلول الكرب والبلاء، وقد أمر الله بدعائه، فمن لا يدعو الله يغضب عليه ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

(١) سنن الترمذي: ٦٥٨/٤ , ورقمه: ٢٤٩٦ .

٤ ـ بر الوالدين من أعظم الأعمال الصالحة التي يحبها الله وتقرب إليه، وتخلص العبد من كرب الدنيا، وكرب يوم القيامة .

٥ ـ مخافة الله من العبادات العظيمة التي تدفع النقم، وتقي الفواحش، وتقرب من الله، فقد كان الخوف من الله السبب في ترك ذلك الرجل الفاحشة، وكان ذلك أحد الأسباب في خلاصهم من الغار .

٦ ـ ليس كل من قارف ذنبا فقد هوى، واستحق غضب الله عليه، فقد يسعى المرء إلى الذنب كالذي سعى للزنا بابنة عمه، ولكنه تاب وارتدع قبل تمام المعصية خوفا من الله، فهذا مأجور مثاب على نهي النفس عن الهوى، وقد يقع الذنب من العبد فيتوب وينيب ، ويتقبل الله توبته، ويكون حاله بعد التوبة أحسن من حاله قبلها كما وقع للكفل.

٧ ـ قد تلجئ الحاجة والضرورة الرجل الصالح والمرأة الصالحة إلى الوقوع في الفاحشة، كما ألجأت الحاجة تلك المرأة إلى القبول بالفاحشة، ويدل على صلاحها تلك الرجفة التي أخذتها عندما قارب الرجل أن يواقعها، فأحدث الله في قلبه توبة نجاها ونجاه بها .

٨ ـ فضل محافظة العبد على حقوق العباد وأموالهم، فقد حافظ صاحب المال على أجرة ذلك الأجير ونماه له، ودفع إليه كل ما نتج عنه عندما جاء يطلب حقه .

٩ ـ مشروعية تصرف الإنسان بما تحت يده من مال لغيره إذا تصرف فيه تصرفا له فيه صلاح، وقد اختلف أهل العلم في هذه المسألة بين مجيز ومانع[1] .

١٠ ـ كان البشر في وقت وقوع القصة يعرفون التجارة والزراعة والصناعة والرعي، يدل على هذا أن الثلاثة كانوا خارجين يرتادون لأهلهم، واستأجر أحدهم أجراء ليعملوا في أرضه، وزرع أجرة العامل وكانت

---

(١) راجع: شرح النووي على مسلم: ٢١٧/١٦ . فتح الباري: ٢٠٩/٤، ١٦/٥ .

حبا، وباع ما أنتجه، واشترى به بقرا وغنما، وكان للبار بوالديه غنم يرعاها، وحلب الحليب في قدح، وصاحب الأرض أعطى الأجير (فرقا) من أرز، والفرق مكيال يكال به، والقدح والفرق يحتاجان إلى من يصنعهما، والرجل أعطى ابنة عمه مائة دينار، والدنانير تحتاج إلى من يضربها ويصنعها، ودل الحديث على أن الأرز كان معروفا في ذلك الوقت الذي وقعت القصة فيه .

١١ ـ بركة العمل في الزراعة وتربية الأنعام والمواشي، فقد عمل صاحب الأرض لعامله في أجره، فأصبح المال القليل كثيرا، وبارك الله فيه فأصبح أضعافا مضاعفة .

١٢ ـ كان صاحب العمل محسنا إلى العامل بتنمية ذلك المال، ولكن الأجير لم يحسن إلى رب العمل، فكان الواجب عليه أن يترك له من المال مقدار جهده وتعبه .

١٣ ـ دعوى بعض أهل العلم أن الكفل المذكور في الحديث هو ذو الكفل المذكور في القرآن غير صحيحة، فذو الكفل نبي معصوم لا تقع منه الفاحشة، والكفل المذكور في الحديث رجل مسرف في الذنوب قبل الله توبته، وذاك اسمه ذو الكفل والثاني الكفل .

١٤ ـ مدى تأثير الفقر في إشاعة الفاحشة، فكل من المرأتين المذكورتين في الحديثين وافقتا على ارتكاب الفاحشة لشدة الفقر والحاجة، ولذا فإن المنفقين من أموالهم، والساعين على الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام يمنعون أمثال هؤلاء من السقوط في الجريمة بسبب الفقر والحاجة .

القصة الثامنة والعشرون

قصة السحابة التي أمرت أن تسقي حديقة الرجل

تمهيد

إن هذا الكون ملك الله، فالله ربه وخالقه والمتصرف فيه، وإذا استقام العبد على أمر الله، أمر الله الكون برعايته، والتصرف بما فيه خيره وصلاحه، وهذا الحديث فيه خبر مزارع صالح أمر الله السحاب بسقي مزرعته، لاستقامته على أمر الله فيها، وهذا ليس خاصا به، فكل من كان كذلك بارك الله له فيما أعطاه .

نص الحديث

روى مسلم في صحيحه عن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ، يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلانٌ لِلاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ.

فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ لاسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟

قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ).

وحَدَّثَنَاه أَحْمَدُ بْنُ عَبْدَةَ الضَّبِّيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي

سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ كَيْسَانَ بِهَـذَا الإِسْنَادِ، غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ: (وَأَجْعَلُ ثُلُثَهُ فِي الْمَسَاكِينِ وَالسَّائِلِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ).

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد والرقائق، باب الصدقة على المساكين: ٢٢٨٨/٤. ورقمه: ٢٩٨٤.

غريب الحديث

حديقة: القطعة من النخيل، ويطلق على الأرض ذات الشجر .

تنحى ذلك السحاب: مال وقصد .

الحرة: أرض بها حجارة سود كثيرة .

شرجة: مسائل الماء في الحرار .

المسحاة: آلة من الآلات اليدوية التي تستعمل في استصلاح الأرض .

شرح الحديث

يحدثنا الرسول ﷺ عن رجل سمع عجبا، فقد كان يسير في أرض خالية، فمرت سحابة من فوقه، فسمع فيها صوتا يأمر آخر بأن يسقي حديقة رجل سماه.

ونحن نعلم أن الله أقام على السحاب ملائكة توجهه، وهي مأمورة أن تنزله في المواقع المحددة له، وهذا الصوت الذي سمعه ذلك الرجل صوت ملك بلا شك، وسنة الله أننا لا نسمع خطاب الملائكة إلا لحكمة، والحكمة في سماع ذلك الرجل أن الله يريد تعريفنا بالخير والبركة التي يجلبها استقامة صاحب الزرع لزرعه .

وقد استثار ذلك الصوت الرجل الذي سمعه، فأحب أن يعرف هذا الرجل الذي ذكر اسمه في السحاب، فنظر حيث أفرغت السحابة ماءها، فإذا هي قد أمطرته في حرة من الحرار، وهي أرض كثيرة الحجارة، حجارتها سوداء، ونظر الرجل إلى الأمطار التي نزلت على الأرض، فوجدها تشكل قنوات ومسائل تتجه اتجاها محددا، فتتبع مسائل الماء، وسار معها حتى رآها تصل إلى حديقة، ورأى رجلا قائما في الحديقة يحول الماء بمساحته في قنوات حديقته، هنا وهناك، وتوقف ذلك الرجل عند صاحب الحديقة، وسأله عن اسمه، فوجده الاسم الذي سمعه في السحاب .

واستغرب صاحب الحديقة سؤال السائل، فأعلمه عن خبره، وعن سماعه اسمه من السحاب، وأن أمرا صدر للموكلين بتلك الغمامة بسقي حديقته، وهنا سأله عن السبب الذي استحق به أن يؤمر السحاب بسقي حديقته، إذ لا شك في أنه يعمل عملا أرضى به ربه، فأخبره أنه ينظر إلى نتاج مزرعته، فيقسمه إلى ثلاثة أقسام: قسم يتصدق به على الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجة، وقسم يجعله لمعاشه ومعاش عياله، والقسم الثالث يرده في حديقته .

ونحن نعلم أن الصدقة تحفظ المال وتزكيه وتباركه، ونفقة المرء على عياله واجب أوجبه الله عليه، ورعاية البستان بالحرث والتسميد والسقي من أسباب الحفظ، وبذلك يظهر لك أن هذا الرجل كان يمثل المزارع المسلم، الذي يعرف حق ربه عليه، كما يعرف حق نفسه وأهله، وهو في الوقت ذاته خبير بالطريقة العلمية لإصلاح الأرض واستثمارها .

فوائد القصة وعبرها

١ ـ رعاية الله وحفظه للصالحين من عباده الذين يستقيمون على أمره، فقد أمر الله السحاب بسقي حديقة ذلك الرجل الصالح المتصدق بثلث الخارج من حديقته .

٢ ـ يحب الله العبد المتزن في أموره وتصرفاته، الذي يعطي كل ذي حق حقه، ومن ذلك ما فعله هذا الرجل من قسمته نتاج بستانه إلى ثلاثة أقسام، فلم يطغ قسم من هذه الأقسام على القسمين الآخرين .

٣ ـ قيمة العمل، فقد خلد الله ذكر هذا الرجل بعمله وتصدقه، وليس الرجل الصالح هو ذلك المنقطع للعبادة، التارك للعمل، المتعبد عن الزواج، المهمل للذرية، كما يظنه بعض من لا علم عنده .

٤ ـ إذا رضي الله عن العبد سخر له ما شاء من الأرض والسماء، فقد أمر الله السحاب أن يسقي حديقة ذلك الرجل الصالح .

القصة التاسعة والعشرون

قصة الذي أحبه الله لحب أخيه

تمهيد

هذه قصة رجل ارتحل من بلده إلى بلد أخرى، ليس له من قصد إلا أن يزور أخا له في الله يسكن في القرية التي يقصدها، فأرسل الله إليه على طريقه ملكا في صورة رجل يخبره بحب الله له، لمحبته لأخيه .

نص الحديث

روى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : (أَنَّ رَجُلا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عز وجل، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ).

تخريج الحديث

رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الحب في الله . (١٩٨٨/٤) . ورقمه: ٢٥٦٧ .

غريب الحديث

فأرصد: أي أقعده يرقبه .

على مدرجته: المدرجة هي الطريق، سميت بذلك لأن الناس يدرجون عليها، أي يمضون ويمشون .

تربُّها: أي تقوم بإصلاحها، وتنهض بسبب ذلك .

شرح الحديث

هذه قصة رجل رحل من قريته إلى قرية أخرى، ليس له فيها أرب ولا حاجة، إلا أن يزور أخا أحبه في الله، والحب في الله إحدى خصال الإيمان، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن المتحابين في الله على منابر من نور يوم القيامة، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله، وقد أرسل الله لهذا الرجل المسافر لزيارة أخيه ملكا في صورة رجل يسأله عن هدفه وغايته، والسبب الذي أخرجه من قريته، فأخبره أنه يريد زيارة أخ له في الله، لا تجمعه به إلا المحبة في الله، فأخبره بأن الله أرسله إليه يخبره أن الله يحبه كما أحب أخاه في الله، ومن أحبه ربه فقد سعد في الدنيا والأخرى .

عبر الحديث وفوائده

١ ـ فضل الحب في الله والتزاور في الله، فإن الله أحب هذا الرجل بحبه لأخيه ورحلته إليه لزيارته .

٢ ـ مشروعية السفر لزيارة الأخ لأخيه في الله .

٣ ـ قد يرسل الله إلى بعض عباده ملائكة لإبلاغهم بعض الأمور، ولا يكون المبلغ بذلك نبيا ولا رسولا .

٤ ـ قدرة الملائكة على التشكل في صـورة البشـر، فـالملك جـاء ذلـك الرجـل في صورة رجل، لا في صورته الملائكية .

٥ ـ فضل الإخلاص، فإن هذا الرجل نال ما ناله لحبه لذلك الأخ في الله، لا من أجل إنعامه عليه، ولا من أجل مصالح بينه وبينه .

القصة الثلاثون

قصة من سقى كلبا عطشا فغفر الله له

تمهيد

هاتان قصتان لرجل وامرأة، رأى كل منهما كلبا عطشا، فرحمه وسقاه، فشكر الله لكل منهما، وغفر له ذنوبه، وهكذا الإحسان إلى الحيوان تغفر به الذنوب، ويقرب العبد إلى ربه .

نص الحديثين

روى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ).

وروى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: (أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا، فَغُفِرَ لَهَا).

وفي رواية عند البخاري عن أبي هريرة: (غُفِرَ لامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ يَلْهَثُ، قَالَ: كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، فَنَزَعَتْ خُفَّهَا، فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا، فَنَزَعَتْ لَهُ مِنَ الْمَاءِ فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ).

تخريج الحديثين

حديث الذي سقى كلبا رواه البخاري في كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، ٥/٤٠ . ورقمه: ٢٣٦٣.

ورواه في كتاب المظالم، باب الآبار التي على الطريق إذا لم يتأذ بها الناس، ٥/١١٣ . ورقمه: ٢٤٦٦ .

وحديث غفران الله للبغي بسقيها الكلب رواه البخاري، في كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في إناء أحدكم، ٦/٣٥٩ . ورقمه: ٣٣٢١ .

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم، ٤/١٧٦١ . ورقمه: ٢٢٤٤، ٢٤٤٥ .

غريب الحديث

يلهث: أي أخرج لسانه من شدة العطش، واللهاث: ارتفاع النفس من الإعياء .

الثرى: التراب الندي .

في كل كبد رطبة أجر: أي في كل صاحب كبدة رطبة، وهو الحي من الإنسان والحيوان، والمراد الإحسان إلى الأحياء بالسقي والإطعام .

بغيا: البغي الزانية .

يطيف: يدور حولها .

أدلع لسانه: أخرجه لشدة العطش .

نزعت له بموقها: الموق الخف، فارسي معرب، ونزعت له بموقها، أخرجت له الماء من البئر بخفها .

بركية: الركية، البئر .

شرح الحديث

هاتان قصتان لرجل وامرأة، سقى كل واحد منهما كلبا عطشا فغفر لهما برحمتهما الكلب الذي سقاه كل منهما .

أما الرجل فإنه كان يسير خارج دياره، بعيدا عن المساكن، فعطش عطشا شديدا، فمر ببئر لا يوجد عليها سقاء، فنزل إلى أسفل البئر، فشرب حتى ارتوى، وصعد، فوجد كلبا قد عطش عطشا شديدا، ولشدة عطشه كان يمد لسانه فيضعه على التراب الرطب الذي بجوار البئر، ليخفف العطش الذي به .

لقد ميز الله الإنسان بخصائص لا تملكها كثير من الحيوانات، ومن ذلك قدرة الإنسان على الاستسقاء من البئر بالدلو إن وجد، أو بالنزول إلى أسفل البئر كما فعل ذلك الرجل، أما هذا الكلب فلا يستطيع أن يفعل شيئا من ذلك، وكان سيهلك عطشا إن لم يسقه أحد.

نظر الرجل إلى ذلك الكلب العطش، وتذكر حاله قبل أن يروي ظمأه، فقد بلغ العطش بالكلب مثل الحال التي كانت به، ولكن أنى له أن يسقي الكلب، ولا دلو عنده ينزع به الماء، لقد نزل بنفسه إلى البئر فشرب، أما الكلب فلا بد من حمل الماء إليه ليشرب، ولم يجد وسيلة لإخراج الماء من البئر إلا بنزع خفه ونزول البئر ، ونقل الماء بها إلى الكلب، وبما أنه لا يستطيع أن يمسك الخف بيديه لحاجته إلى يديه طليقتين كي يتمكن من نزول البئر وصعوده باستعماله لهما .

والإنسان يأنف أن يحمل خفه بفمه، فالخف لباس الرجل، يدوس الإنسان به الأرض، وقد يكون قذرا، وقد تفوح منه روائح عفنة، ولا يكاد الإنسان يقرب في العادة خفه أو نعله من فمه وأنفه، فضلا عن أن يحمله بفمه .

ولكن قوة الرحمة التي حلت في قلبه دفعته إلى فعل ما فعله، فسقى الكلب بهذه الطريقة، فشكر الله له فعله، وغفر له ذنبه، وأدخله رحمته .

أما المرأة التي سقت كلباً فغفر لها، فإنها إحدى بغايا بني إسرائيل اللواتي كنّ

يتعاطين الزنا، ويجعلنه مهنة يرتزقن منها، وعلى الرغم من مشاركتها للرجل في رحمتها للكلب العطش، ومغفرة الله لها بفعلها ذاك، فإن بينهما فروقا بينة .

فقد كانت المرأة أعظم ذنبا من الرجل، لأنها كانت مومسا تتعاطى الزنا، و لم يذكر مثل ذلك في الرجل، فذنبها أشد وأعظم من هذه الجهة، و لم تكن قبل سقيها الكلب عطشه لبعدها عن ديارها كما كان الرجل، وهذا الفرق بينهما يجعل دافع سقي الكلب عند المرأة دافعا ذاتيا، لأن الرجل عندما رأى حال الكلب كان قد عانى من العطش مثل الذي عاناه الكلب، أما المرأة فلم يقع لها ذلك، ولذا فإن الدافع لها هو تألمها لرؤية الكلب العطش ورحمتها إياه، و لم تمر بتجربة مشابهة لحالة الكلب في عطشه كما حصل مع الرجل .

ولكن معاناة الرجل في سقيه الكلب كانت أشد من معاناة المرأة، فالمرأة جاءت إلى البئر، وكان ماؤه قريبا، فلما لم تجد دلوا تخرج الماء به خلعت موقها، وهو الحذاء أو الخف، وربطته بخمارها، وجعلته بذلك سقاء تستقي به من البئر، فأخرجت الماء بهذه الطريقة، وسقت الكلب .

أما الرجل فيبدو أن ماء البئر كان بعيدا، وليس عنده من الثياب ما يكفي لربط خفه، ونزع الماء بالطريقة التي تحدثنا عنها آنفاً، ولذا فإنه بذل جهدا مضاعفا، وحَمَلَ الماء بطريقة يأنف كثير من الرجال والنساء أن يحمل الماء بها.

وعلى الرغم من الفروق التي بين حالي الرجل والمرأة إلا أن الله غفر لكل منهما، وقد اشتركا في عمل واحد، فقد رحم كل منهما كلبا عطشا، وسقاه، فرحمه الله برحمته للكلب، وغفر له .

عبر الحديث وفوائده

١ ـ عظم أجر من أحسن إلى الحيوان، فقد غفر الله لكل واحد من المذكورين في الحديثين بإسقاء كل واحد منهما كلبا عطشا، وإذا كانت هذه المغفرة بسبب سقي كلب، فكيف بمن سقى إنساناً إذا كان عطشا، وأطعمه إن كان جائعا، وكساه إن كان عاريا !!

٢ ـ عظم فضل الله وسعة رحمته، فهو يعطي العطاء الجزيل على العمل القليل، فقد غفر الله لهذين بهذا العمل القليل، وهو سقي الكلب .

٣ ـ انتشرت في بني إسرائيل في بعض الأزمنة الموبقات، ومنها الزنا، فقد كانت المرأة المذكورة في الحديث مومسا تتعاطى الزنا .

٤ ـ لا يكفر المسلم بارتكابه الموبقات من الذنوب، وقد يفعل الإنسان من الحسنات ما يغفر الله له بها ذنوبه العظام من غير توبة، فالمرأة الزانية غفر لها بسقيها الكلب، لا بتوبتها، كما هو ظاهر من الحديث وعدم تكفير المسلم بالذنب كان مقرراً في شريعة التوراة كما هو مقرر في شريعتنا .

٥ ـ جواز حفر الآبار على الطرقات العامة، فالرجل الذي سقى الكلب، وجد الماء في بئر على الطريق الذي كان يسلكه، ومن حفر بئرا على الطرقات ليستقي منه الناس فهو مأجور مثاب، وإن كان حفره ليسقي زرعه فعمله مشروع، ولكن يجب الاحتياط بوضع العلامات التي تحذر الناس من السقوط في البئر .

القصة الحادية والثلاثون

الذي أمر أولاده بحرقه بعد موته

تمهيد

هذه قصة رجل غرق في الذنوب طيلة حياته، ولم يفق إلا وملك الموت يقرع بابه، ويدعوه إلى إجابة ربه، ففزع فزعا شديدا من عذاب الله، وعلم أنه لن ينجو من ربه متى وقف بين يديه، فذنوبه كثيرة، وحسناته مفقودة، فأراد أن يهرب من عذاب الله، ولم يجد سبيلا لتحقيق ذلك إلا بأن يُحْرَقَ بعد موته، ثم يذرى رماده في البر والبحر، وهو تفكير ساذج يدل على أمرين متناقضين، عظم خوفه من عذاب الله، وهذا من أعظم العبادات، وجهله بعظم قدرة الله، وهذا من أعظم الذنوب، وقد تجاوز الله عن جهله، وغفر له بخوفه منه.

نص الحديث

روى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ لأَهْلِهِ: إِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ، ثُمَّ اذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ، وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ، فَأَمَرَ اللهُ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَغَفَرَ اللهُ لَهُ).

تخريج الحديث

هذه الرواية في صحيح مسلم: ٢١١١/٤، وقد رواه مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ورقمه: ٢٧٥٦، ٢٧٥٧، وهو في شرح النووي على مسلم: ٢٢٦/١٧.

ورواه البخاري في مواضع من صحيحه، فقد رواه عن حذيفة رضي الله عنه في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٤٩٤/٦. ورقمه: ٣٤٥٢، (٥١٤/٦) ورقمه: ٣٤٧٩، وفي كتاب الرقاق، باب الخوف من الله: (٣١٢/١١). ورقمه ٦٤٨٠.

ورواه عن أبي سعيد الخدري في كتاب الأنبياء، ٥١٤/٦. ورقمه: ٣٤٧٨. وفي كتاب الرقاق، باب الخوف من الله ٣١٢/١١. ورقمه: ٦٤٨١، وفي كتاب التوحيد، باب قول الله ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، ٤٦٦/١٣. ورقمه: ٧٥٠٨، ورواه في هذا الباب عن أبي هريرة: ٤٦٦/١٣. ورقمه: ٧٥٠٦.

روايات الحديث في الصحيحين :

جاء في بعض روايات الحديث أن هذا الرجل كان ذا مال وأولاد، ففي صحيح البخاري (أن رجلا كان قبلكم رغسه الله مالا) [١] ومعنى (رغسه) أي كثر الله له من المال والولد.

وجاء في رواية أخرى: (أعطاه الله مالا وولدا)[٢] ، وفي رواية (آتاه) بدل أعطاه. وفي رواية عند مسلم (راشه الله مالا وولدا)[٣]، ومعنى راشه أعطاه.

---

(١) صحيح البخاري ٥١٤/٦، صحيح مسلم: ٢١١٢/٤.
(٢) صحيح البخاري: ٤٦٦/١٣.
(٣) صحيح البخاري: ٣١٢/١١، صحيح مسلم: ٢١١١/٤.

وجاء في بعض الروايات أنه قال ما قال عندما حضرته الوفاة[١] وفي رواية (إن رجلا لما حضره الموت، لما أيس من الحياة)[٢].

وفي بعض الروايات أن هذا الرجل (أسرف على نفسه[٣]) أو (كان يسرف على نفسه[٤])، أي بالغ في الذنوب وأسرف في المعاصي. وفي بعض الروايات (أنه لم يعمل حسنة قط[٥]) أو (لم يعمل خيرا قط)[٦].

وجاء في رواية أنه (قال لبنيه: أي أب كنت لكم ؟ قالوا خير أب.

قال: فإنه لم يبتئر أو لم يبتئز عند الله خيرا قط)[٧].

وقد فسر قتادة قوله يبتئز عند الله خيرا: أي لم يدخر عند الله خيرا. وفي رواية (ما امتأر[٨]) أبدل التاء ميما. وفي رواية (لم يبتهر خيرا قط) [٩]، أبدلت الهمزة هاء.

وأمرهم في الرواية التي سقتها بأن يحرقوه، ثم يذروا نصفه في البر والنصف الآخر في البحر، وفي رواية أمرهم بإحراقه، ثم سحقه[١٠]، وجاء في صحيح مسلم أنه أمرهم بتذريته في الريح في البحر[١١]. وفي صحيح البخاري أمرهم بتذريته في البحر في يوم عاصف[١٢].

---

(١) صحيح البخاري: ٤٦٦/١٣.
(٢) صحيح البخاري: ٥١٤/٦.
(٣) صحيح مسلم: ١١٠/٤.
(٤) صحيح مسلم: ٥١٤/٤.
(٥) صحيح مسلم: ٢١٠٩/٤.
(٦) صحيح البخاري: ٤٦٦/١٣.
(٧) صحيح البخاري: ٤٦٦/١٣. وصحيح مسلم: ٢١١٢/٤.
(٨) صحيح مسلم: ٢١١٢/٤.
(٩) صحيح مسلم: ٢١١١/٤.
(١٠) صحيح البخاري ٢١١٠/٤. وصحيح مسلم: ٢١١٠/٤.
(١١) صحيح مسلم: ٢١١٠/٤.
(١٢) صحيح البخاري: ٥١٤/٦.

وفي رواية عند البخاري (في يوم صائف) [1] وفي رواية أنـه تهددهـم إن لم يعطوه ميثاقهم بما طلب منهم أن يوصي بميراثه لغيرهم (لتفعلن مـا آمركـم بـه أو لأولين ميراثي غيركم) [2].

وفي رواية أنه فصل لهم القول فيما يصنعون بـه (إذا مـت فـاجمعوا لي حطبـا كثيرا، ثم أوْرُوا نـارا، حتـى إذا أكلـت لحمـي، وخلصـت إلى عظمـي، فخذوهـا فاطحنوها، فذروني في اليم في يوم حار، أو راح)[3].

وفي رواية (إذا مت فأحرقوني حتى إذا صـرت فحمـا فاسـحقوني، أو قـال اكسحوني اسهكوني، فإذا كان يوم ريح عاصف فأذروني فيها) وفي رواية (فإذا كان ريح عاصف فاذروني فيها)[4].

وقد بين في بعض روايات الحديث أن غرضه من وراء حرقه وتذريته الهروب من عذاب الله، (فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا)[5].

وجاء في الرواية التي سقتها (فأمر الله البر فجمع ما فيه، وأمر البحـر فجمـع ما فيه) وجاء في رواية أخرى ذكر ما قاله الله للأرض: (فأمر الله الأرض فقـال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت)[6].

وفي رواية مسلم (فقال للأرض أدي ما أخذت)[7].

وفي رواية (فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه)[8].

---

(١) صحيح البخاري: ٣١٢/١١.
(٢) صحيح مسلم: ٢١١١/٤.
(٣) صحيح البخاري: ٥١٤/٦.
(٤) صحيح البخاري: ٤٦٧/١٣.
(٥) صحيح البخاري: ٥١٥/٦.
(٦) صحيح البخاري: ٥١٥/٦.
(٧) صحيح مسلم: ٢١١٠/٤.
(٨) صحيح البخاري: ٤٦٦/١١.

شرح الحديث

هذه قصة رجل أنعم الله عليه في الدنيا بالمال الكثير، ورزقه الأولاد، ولكنه لم يشكر ربه على نعمه التي أولاه إياها، بل كان غارقا في الذنوب والمعاصي طيلة عمره، فلما حضره الموت تذكر حاله مع ربه وعصيانه له، فخاف خوفا شديدا، وعلم أنه متى قدم على الله فإنه معذبه عذابا شديدا، فزينت له نفسه أن يهرب من عذاب الله، وتفتق تفكيره عن طريقة ظن أنه يهرب بها من ذلك العذاب، فجاء بأولاده، وخاطبهم مذكرا إياهم بإحسانه ورعايته لهم، وخاطبهم قائلاً: أي أب كنت لكم؟ فقالوا: خير أب.

فحدثهم بالذي يقلقه ويؤرقه، وأخبرهم بكثرة معاصيه وذنوبه، وأن الله إن قدر عليه، فإنه معذبه عذابا لا يعذبه أحدا، وطلب منهم أن يحرقوه ويذروه في الهواء، كي يتخلص من عذاب الله، ظانا أنه إن فعلوا به ذلك لا يقدر الله على جمعه وإحيائه.

ورسم لهم الطريق التي يسلكونها به بعد وفاته، وخلاصة ما طلبه منهم، أن يجمعوا له حطبا، ويشعلوا فيها النار، ثم يتركوه فيها حتى يصبح فحما، ثم يسحقون ما تبقى من رفاته، حتى يصبح رمادا، ثم ينظرون يوما صائفا حارا، ذا ريح عاصف، فيأخذون نصف رماده، فيذرونه في البحر، ونصفه الآخرَ فيذرونه في البر، وهو يظن أنه بذلك قد أحكم التدبير، فلا يستطيع ربه إعادته وإحياءه بعد كل ما فعله أولاده به.

لقد غفل هذا المسكين عن أن الله على كل شيء قدير، وأنه يبعث عباده في يوم القيامة، ومنهم الذي أكلته أسماك البحار، ومنهم الذي أكلته الطيور المفترسة أو وحوش البراري، ومنهم الذي تحول إلى تراب، وقد يكون تغذت بترابه الأشجار، ومع ذلك فإن الله قادر على بعثهم وإحيائهم، وجمعهم من بطون الأسماك، وحواصل الطير، وبطون السباع، كما قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ ءَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا، لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا، وَكُلُّهُمْ

ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

وطلب ذاك الرجل من أولاده أن يعطوه عهودهم ومواثيقهم على فعل ما طلبه منهم، وتهددهم إن لم يعطوه العهود والمواثيق بحرمانهم من ميراثهم بالإيصاء به إلى غيرهم، فعاهدوه على أن يفعلوا به ما طلب، وأقسموا له على ذلك.

وقد فعلوا ما طلبه أبوهم بعد موته، فأمر الحق – تبارك وتعالى – الأرض والبحر بجمع ذراته، وقال لها كوني فلانا، فإذا هو قائم، ولما سأله عن السبب الذي جعله يأمر بما أمر به، قال - وهو أعلم به -: خشيتك والخوف منك، فغفر له ذنوبه بمخافته منه، وعذره في ظنه عدم قدرته على إعادته بجهله، وسبحان الغفور القادر.

فوائد القصة وعبرها

١ - الخوف من الله من أعلى مقامات الصالحين، يغفر الله به الذنوب الكثيرة، فقد غفر الله لهذا الرجل ذنوبه العظيمة، لما وقع في قلبه من مخافة ربه.

٢ - قد يعذر الله المرء بجهله كما عذر هذا الذي ظن أن الله لا يقدر عليه إن ذرى أولاده رماده في يوم عاصف، ودعوى بعض أهل العلم أن هذا الرجل كان مدهوشا لا يدري ما يقول، مثله مثل الذي أخطأ من شدة الفرح، فقال: أنت عبدي وأنا ربك، غير صحيح.

يدل على عدم صحته ما وصى به أهله بذلك الترتيب الذي يدل على أنه كان واعيا لما يقول، فقد رسم لأولاده ما يفعلونه من الحرق والسحق والتذرية بدقة، وحاور أولاده، وأخذ عليهم العهود والمواثيق، وكل ذلك ينفي الزعم بأنه كان لا يدري ما يقول، والصواب أن الله عذره بجهله، ولا يجوز تكفير الجاهلين بمثل هذا الذي ظنه هذا الرجل، وأمر به.

٣ ـ قدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ على البعث والإحياء، فقد أمر الله الأرض والبحر بجمع ما تفرق من ذرات رماده، وأمر الله تلك الذرات فعاد ذلك الرجل كما كان، وكذلك يحيي الله في يوم القيامة الخلائق بعد أن بليت عظامهم، وتقطعت أوصالهم.

٤ ـ لا يجوز تكفير العباد بالذنوب، فالمؤمن المذنب الذي لم يتب أمره إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء غفره له، كما يقول أهل السنة والجماعة، خلافا للخوارج والمعتزلة ، وهذا ثابت في شريعتنا كما هو ثابت عند أهل الكتاب من قبلنا ، ومن ذلك غفران الله لهذا الرجل الذي أسرف على نفسه في الذنوب .

٥ـ العاصي المسرف على نفسه في الذنوب قد يكون حفيا بأولاده ، حريصاً على رعايتهم، وتقديم الخير لهم، فقد أقر أبناء هذا الرجل أن أباهم كان خير أب لهم .

٦ـ كان الواجب على أولاد هذا الرجل أن لا يطيعوه، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأبوهم أمرهم بمعصية .

القصة الثانية والثلاثون

الذي تجاوز الله عنه لتجاوزه عن عباد الله

تمهيد

هذه قصة رجل لم يجد عملا صالحا عمله عندما جاءته ملائكة الموت تنزع روحه إلا أنه كان يتجاوز في مبايعته عمن يبايعهم، فإذا داين الناس، وحل الأجل، فينظر الموسر إلى أن يجد سدادا، ويتجاوز عن المعسر، وكان يرجو من وراء عمله أن يتجاوز الله عنه، فتجاوز الله عنه، وغفر له ذنوبه بتجاوزه في تعامله.

نص الحديث

روي البخاري في صحيحه عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ رَجُلا كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَتَاهُ الْمَلَكُ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ، فَقِيلَ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُ. قِيلَ لَهُ: انْظُرْ. قَالَ: مَا أَعْلَمُ شَيْئًا، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا وَأُجَازِيهِمْ، فَأُنْظِرُ الْمُوسِرَ، وَأَتَجَاوَزُ عَنِ الْمُعْسِرِ، فَأَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ).

وفي رواية عن حذيفة أيضاً: (تَلَقَّتِ الْمَلائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَالُوا: أَعَمِلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا الموسر وَيَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُعسرِ، قَالَ: قَالَ فَتَجَاوَزُوا عَنْهُ).

ورواه أيضاً عن أبـي هريرة، ونصه: (كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفِتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُ).

تخريج الحديث

الرواية الأولى رواها البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٤٩٤/٦. ورقمه: ٣٤٥١ .

والرواية الثانية في صحيح البخاري في كتاب البيوع، باب من أنظر موسرا، ٣٠٧/٤. ورقمه: ٢٠٧٧.

ورواه أيضا عن أبي هريرة في كتاب البيوع باب من أنظر معسرا .

والرواية الثالثة في الصحيح، في كتاب البيوع، باب من أنظر معسرا. ٣٠٨/٤. ورقمه: ٢٠٧٨.

ورواه مسلم في صحيحه عن حذيفة وأبي هريرة وأبي مسعود، في كتاب المساقاة، باب فضل إنظار المعسر، ١١٩٤/٣. ورقمه: ١٥٦٠، ١٥٦١.

غريب الحديث

يتجوزوا: التجاوز، والتجوز: المسامحة في الاقتضاء والاستيفاء، وقبول ما فيه نقص يسير.

شرح الحديث

أخبرنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أن العبد عندما ينزل به الموت، ويحين أجله، تتنزل عليه الملائكة، أما المؤمن فإنها تبشره، وأما الكافر فإنها تسأله وتوبخه وتعذبه، وتبشره بالنار، قال تعالى في حق المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت : ٣٠].

وقال في حق الكفرة المجرمين عندما يكونون في النزع: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ

الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء : ٩٧].

ويحدثنا رسولنا ﷺ في هذا الحديث عن رجل ممن كان قبلنا أتاه ملك الموت ليقبض روحه، فسألته الملائكة عن أعماله الخيرة التي عملها في دنياه، فلم يجد لنفسه عملا من أعمال الخير، فلما أجاب بالنفي، طلبوا منه أن يمعن النظر، فلم يجد لنفسه عملا خيرا إلا أنه كان يعمل تاجرا، فيوصي فتيانه الذين يعملون عنده أن ينظروا الموسر، ويتجاوزا عن المعسر، وكان يعلل لهم ما يأمرهم به قائلا: لعل الله يتجاوز عنا، فحقق الله رجاءه فيه، فتجاوز عنه، وغفر له.

إن هذا النمط من التعامل يمثل النمط الذي يريده الإسلام، وهو يقوم على التساهل في البيع والشراء، والتسامح حين التعامل، وإنظار الموسرين، والتجاوز عن المعسرين، وقد دعا الرسول ﷺ لمن يتصف بهذه الصفات فقال: (رحم الله عبدا سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذا قضى، سمحا إذا اقتضى).

عبر الحديث وفوائده

١ ـ فضل إنظار الموسر والتجاوز عن المعسر، فإن المتجاوز المخلص موعود بتجاوز الله عنه عندما يلقاه.

٢ ـ سعة رحمة الله، فبالعمل القليل ينال العبد الأجر العظيم، فهذا الرجل غفر له، وتجاوز الله عنه بهذا العمل على الرغم من قلته.

٣ ـ لا يكفر العبد بفعله الموبقات إذا كان مؤمنا، فهذا الرجل لم يفعل من الصالحات إلا هذا العمل، فهو تارك للواجبات المفروضة، ومع ذلك فإن الله غفر له، وتجاوز عنه.

٤ ـ سؤال الملائكة العبد عندما تأتي لتقبض روحه، كما سئل هذا الرجل، وكما

أخبر الحق في محكم التنزيل في النص القرآني الذي سقناه في الشرح.

٥ ـ فيه دلالة على القاعدة العظيمة في صفات الله تبارك وتعالى التي تقول: كل كمال ثبت للمخلوق من غير نقص فالله أولى به، ومنه التجاوز عن العباد في التعامل، (قال الله عز وجل نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه) وهذه الرواية في صحيح مسلم.

٦ ـ جواز المبايعة إلى أجل، فالرجل المذكور في الحديث كان يبايع إلى أجل، فينظر الموسر، ويتجاوز عن المعسر.

القصة الثالثة والثلاثون

الذي دخل الجنة بتنحيته الأذى عن طريق المسلمين

تمهيد

أخبرنا رسول الله ﷺ أن الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، ويخبرنا رسولنا ﷺ في قصة هذا الحديث أن رجلا أدخله الله الجنة بتنحيته غصن شوك عن طريق المسلمين حتى لا يوذيهم.

نص الحديث

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ، فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ).

وجاء في بعض الروايات عند مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ، فَقَالَ: وَاللهِ لأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لا يُؤْذِيهِمْ، فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ).

وفي رواية أخرى عنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ، فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ، كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ).

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب الأذان، باب فضل التهجير إلى الظهر (١٣٩/٢)، ورقمه: ٦٥٢. وفي كتاب المظالم باب من أخذ الغصن وما يؤذي الناس في الطريق فرمى به، ١١٨/٥، ورقمه: ٢٤٧٢.

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة والآداب، ٢٠٢١/٤ ورقمه: ١٩١٤، وفي كتاب الإمارة، ١٥٢١/٣ ورقمه: ١٩١٤.

غريب الحديث

فأخّره: أي نحاه، وفي بعض روايات الحديث: فأخذه.

فشكر الله له: رضي بفعله وقبل منه.

يتقلب في الجنة: أي يتنعم بملاذها.

شرح الحديث

هذا الحديث يحكي قصة رجل كان مارا في إحدى الطرقات، فوجد غصن شجرة ذات شوك يمتد على طريق المسلمين، فيتأذى منه المارون، فعزم على قطع ذلك الغصن، وإبعاده عن الطريق، وكان هدفه ـ الذي صرح به ـ تنحية الأذى عن طريق المسلمين، فغفر الله له عمله، وأدخله جنته، ورآه الرسول ﷺ يتقلب في الجنة بعمله هذا.

لقد عمل هذا الرجل قليلا، وأجر كثيرا، ورحمة الله واسعة، وفضله عظيم، وما فعله هذا الرجل حث عليه ديننا، فقد أمرنا رسولنا ﷺ بمثل فعله، فقال: (نح الأذى عن طريق المسلمين)[1] وحذرنا تحذيرا شديدا من إيذاء المسلمين في طرقهم، وفي ذلك يقول ﷺ: (من آذى المسلمين في طرقهم، وجبت عليه لعنتهم)[2].

والنصوص الواردة في هذا الموضوع كثيرة، وهي تدل على الخلق الراقي الذي يتصف به المسلمون العاملون بالإسلام، فهم يحرصون على نظافة طرقاتهم، وعدم تقذيرها وتوسيخها، ورفع الأذى عنها، يتصفون به دينا يدينون الله به، ويرجون منه عليه الأجر والثواب، ولا يتكلفونه تكلفا.

عبر الحديث وفوائده

١ ـ بيان فضل تنحية الأذى عن طريق المسلمين، وما فيه من أجر عظيم، وثواب جزيل.

٢ ـ سعة رحمة الله، وعظم أجره، فقد أثاب هذا الرجل الكثير بإدخاله الجنة بالعمل القليل، وهو إماطة الأذى عن الطريق.

٣ ـ مدى مخالفة المسلمين لتعاليم دينهم، فترى بعضهم لا يكتفي بعدم تنحية الأذى عن طريق المسلمين، بل يرمي مخلفات منزله، وبقايا ما يأكله في طريق المسلمين.

---

(١) عزاه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٥/٤٨٧) ورقمه: ٢٣٧٣ إلى أبي بكر بن أبي شيبة في الأدب، وأبي يعلى في مسنده، والضياء في المنتقى، وأخرجه مسلم بمعناه، وأخرجه أحمد.

(٢) عزاه الألباني في السلسلة (٥/٣٧٢) ورقمه: ٢٢٩٤ إلى الطبراني، وأبي نعيم في أخبار أصبهان، وأبي بكر الشافعي في مسند موسى بن جعفر.

٤ ـ الشجرة التي يجوز قطعها هي المؤذية للمسلمين، أما إذا كانت نافعة للمسلمين كالشجرة التي يستظل الناس في ظلها، فلا يجوز قطعها، وقد تهدد الرسول ﷺ قاطعها بالنار، ففي الحديث: (قاطع السدر يصوب الله رأسه في النار)[1] .

(١) عزاه الألباني في سلسلة الصحيحة إلى (٢/١٧٥) ورقمه: ٦١٥ إلى البيهقي وغيره.

القصة الرابعة والثلاثون

الذي قتل مائة نفس

تمهيد

هذه قصة رجل أسرف على نفسه في الذنوب، وكان من أمره أنه قتل مائة نفس، وقتل النفس أمره عند الله عظيم، ووزره كبير، ولكن لا يوجد ذنب لا تسع صاحبه رحمة الله، فالله يغفر الذنوب جميعا إذا أناب العباد وتابوا، وعندما طرق هذا الذي أسرف في سفك الدماء باب ربه بصدق، وعاد إليه تائبا منيبا، غفر له ذنبه ورحمه.

نص الحديث

روى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا، فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لا فَقَتَلَهُ.

فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ، فَغُفِرَ لَهُ).

ورواه مسلم في صحيحه، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟

فَقَالَ: لا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً.

ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ، فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ.

فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَقَالَتْ مَلائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ، فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ).

قَالَ قَتَادَةُ: فَقَالَ الْحَسَنُ: (ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ).

تخريج الحديث

الحديث رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، ٥١٢/٦ . ورقمه: ٣٤٧٠. ورواه مسلم في كتاب التوبة، باب قبول توبة التائب. (٢١١٨/٤) ورقمه: ٢٧٦٦ . وهو في شرح النووي على مسلم: ٢٣٥/١٧.

غريب الحديث

ومن يحول بينه وبين التوبة: أي لا أحد يحول بينه وبينها.

فناء بصدره: أي مال، أو نهض مع تثاقل.

نأى: ابتعد بصدره .

شرح الحديث

هذه قصة تفتح باب الأمل لكل عاص، مهما عظم ذنبه، وكبر جرمه، قصة رجل أسرف على نفسه في المعاصي والذنوب، فقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن هذا الرجل قتل مائة نفس، ولكن هذه الذنوب لم تقتلع من نفسه كل نوازع الخير ودوافعه، بل بقي في أعماق نفسه بصيص من نور، وبقية من مخافة ربه، ولعله تساءل فيما بينه وبين نفسه، هل انقطعت علاقته بربه، فلا يمكنه أن يعود إليه، ويرجع إليه، أم أن هناك أملا، وأين هو من ربه إن آب إليه ؟

لم يستطع أن يفتي نفسه، فمثله من الغرقى في الذنوب لا علم عندهم، ولذا خرج من بيته يبحث عن عالم يفتيه، ويجيب عن سؤاله، وهو يعلم أن مسألته كبيرة، لا يستطيع أن يفتيه فيها إلا من عظم علمه، ولذا فإنه لم يسأل عن عالم، بل سأل عن أعلم أهل الأرض.

و لم يقدر لمن دله على من يفتيه أن يدله على أعلم أهل الأرض فعلا، وإنما دلوه على رجل راهب، والرهبان كثيرو العبادة، قليلو العلم، والعوام قد يخدعون بأمثال هؤلاء، فيظنون أن كثرة العبادة، تعني كثرة العلم، فيقبلون على هؤلاء يتعلمون منهم، ويستفتونهم، ويخطئ أمثال هذا الراهب إن خُدِعَ بإقبال الناس عليه، فأفتاهم بغير علم، والواجب على هؤلاء أن يصرحوا للناس بحقيقة أمرهم، ويقولوا لهم فيما لا يعلمونه، الله أعلم، اسألوا غيرنا ممن عنده علم.

أقبل ذلك الرجل إلى ذلك الراهب الذي دل عليه، واستمع الراهب لمسألته، فاستعظم ذنبه، وظن أن رحمة الله تضيق عنه، وأن مثل هذا الرجل لا تسعه رحمة الله، وحسبك بذلك جهلا.

ولو كان الأمر على ما ظنه ذلك الراهب لازداد أهل الفجور جرما، فالمجرم عندما ييأس من رحمة الله، ويعلم أنه لا سبيل له للعودة إلى الله، فإن ذلك يغريه بالإيغال في الإفساد والإجرام، يدلك على صدق هذا فعل هذا الرجل، فعندما

علم منه أن التوبة محجورة عنه، وأن رحمة ٱللَّه لا تسعه ازداد طغيانا، ومد يـده إلى هذا الراهب فقتله، وأتم بقتله المائة.

ويبدو أن ذلك الراهب كان مع قلة علمه، غير عارف بطبائع الرجـال، ولـو كان عالما بذلك لما سارع بالإجابة قبل أن يحتـاط لنفسـه بالحيطـة المناسـبة، كـأن يحضر حوله بعض أتباعه من الرجال الأشداء، أو يجيبه من وراء جدران صومعتـه، فأمثال هذا الرجل لا يبالون بالقتل لأتفه الأسباب، لاعتيـادهم القتـل والولـوغ في الدماء.

قتل ذلك الرجل الراهب، ولكنه لم يقتنع بجوابه، فالأمل عنـده بـا لله عظيـم، وهذا الـذي أفتـاه جـاهل بـا لله، ولكنـه يحتـاج إلى مـن يؤكـد لـه ذلـك، ويعرفـه بالصواب، وبحث مرة أخرى عن عالم يعرض عليه معضلته، فدل على عالم بـا لله، وكان عالما حقا، ولذلك قال العالم لذلك الرجل مستغربا: ومن يحول بينك وبـين التوبة ؟! وهذا السؤال الذي يحمل معنى الاستنكار والاستغراب يدل على أن هذا العلم كان عنده بدهيا لا يحتاج إلى كثير تفكـير، ولا يحتـاج إلى سـؤال، إن رحمـة ٱللَّه واسعة، تسع هذا وأمثاله، ولا يعظم على ٱللَّه ذنب أبدا مهما عظم وكثر.

ولم يكن هذا الرجل عالما فحسب، بل وكـان مربيـا ومرشـدا، ولـذا فإنـه لم يكتف بإجابته بأن باب التوبة مفتوح على مصراعيه، بل دلـه علـى الطريـق الـذي يجب عليه أن يسلكه، فالغارق في الذنوب يجب أن يغير منهج حياته، فيترك القـوم الضالين الذين يصحبهم ويعيش معهم، وعليه أن يترك مـا كـان عليـه، وينتقـل إلى بيئة صالحة، تفعل الخيرات، وتنأى عن المنكرات، وقد أمر ذلك العالم هذا التـائب بأن يترك دياره فإنها بلاد سوء، ويهاجر إلى أرض أخـرى حددهـا لـه، فيهـا قـوم يعبدون ٱللَّه، فيصحبهم، ويعبد ٱللَّه معهم.

ولم يضع هذا الرجل وقته، فقد مضى إلى تلك الديار، يطلب حيـاة جديـدة، حياة الطهر والصلاح والاستقامة، ليغسل نفسا تقذرت بالذنوب، ويحييها بالإيمـان والصلاح.

وعندما وصل منتصف الطريق حضر أجله، ودنت ساعته، ولشدة رغبته في التوبة ناء بصدره جهة الأرض الطيبة وهو في النزع الأخير، ومات مقبلاً على الله، راحلاً إلى الديار الصالحة ليعبده، تاركا وراءه حياة مليئة بالخطايا والذنوب، فما مصيره ؟ وما موقعه من ربه ؟

أخبرنا الرسول ﷺ أن ملائكة الرحمة وملائكة العذاب اختصموا فيه، كل واحد من الفريقين يريد أن يلي أمره، ويتكفل به، هؤلاء يقولون هذا قتل مائة نفس، وأولئك يقولون: لقد تاب وأناب، وجاء مقبلا.

فأرسل الله لهم ملكا في صورة إنسان، فأمرهم أن يقيسوا ما بين الأرضين: أرض الظلم والفساد، وأرض الأخيار الصلحاء، فأمر الله الأرض الخيرة أن تتقارب، والأرض الظالم أهلها أن تتباعد، فوجدوه أقرب إلى أرض الصالحين بشبر، ولعله الشبر الذي تحركه عندما ناء بصدره وهو في النزع، فتولته ملائكة الرحمة، وغفرت له ذنوبه العظيمة، ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فوائد الحديث وعبره

١ ـ سعة رحمة الله بقبول توبة التائبين، مهما كثرت ذنوبهم، وكثرت خطاياهم، ولذا فإن الذين ييأسون من رحمة الله جهلاء بالله، لا يعلمون سعة رحمته.

٢ ـ قبول توبة القاتل إن تاب توبة صادقة، وقد نازع في ذلك بعض أهل العلم، والحديث صريح في قبول توبته، وهذا ليس قصرا على الأمم السابقة، ويدل له قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا، إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠]، فقد استثنى الله التائبين الذين يعملون

الصالحات من الذين يضاعف لهم العذاب من المشركين والقتلة المجرمين والزناة.

وعقيدة أهل السنة والجماعة أن كل ذنب دون الشرك فهو قابل للمغفرة، إن شاء الله عذب صاحبه، وإن شاء غفر له ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء: ٤٨].

٣ ـ على العالم أن يرشد التائبين إلى الأعمال التي ترسخ الإيمان في قلوبهم، وتخلصهم من الشرور التي كانوا يعيشونها كما دل هذا العالم الرجل التائب إلى ترك أرضه والرحيل إلى قوم صالحين يعبد الله معهم.

٤ ـ فضل العالم على العابد، فقد أفتى العالم بعلم، وأفتى الراهب بجهل.

٥ ـ الملائكة الموكلون ببني آدم قد يختلف اجتهادهم في الحكم عليهم، وقد يرفعون الأمر إلى ربهم للقضاء بينهم فيما اختلفوا فيه.

٦ـ خصص الله ملائكة يتولون أرواح المؤمنين حين تقبض أرواحهم يسمون بملائكة الرحمة، أما الملائكة الذين يتولون أرواح الفجرة الظالمين فهم ملائكة العذاب .

٧ ـ قدرة الملائكة على التشكل في صورة البشر، كما فعل ذلك الملك الذي قضى بين ملائكة الرحمة وملائكة العذاب.

٨ـ فضل بني آدم حيث أرسل الله الملك الذي قضى بين الملائكة في صورة رجل من بني آدم .

٩ـ لا يجب على العالم الذي لم يتول منصب القضاء أن يقيم حكم الله في المجرمين، فهذا العالم اعترف له هذا الرجل بقتل مائة نفس فلم يسجنه، ولم يحقق في أمره، بل أرشده إلى التوبة والهجرة.

القصة الخامسة والثلاثون

الذي أضلته ناقته بأرض فلاة

تمهيد

هذه قصة رجل أضاعته ناقته بأرض قفر خالية، فأيقن بالهلاك، فنام نومة فإذا هي عند رأسه، فقال من شدة فرحه: أنت ربي وأنا عبدك، وقد أخبر الرسول ﷺ أن الله أشد فرحا بتوبة التائب من هذا الرجل بعودة ناقته.

نص الحديث

روى مسلم في صحيحه عَنْ سِمَاكٍ قَالَ: خَطَبَ النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ، فَقَالَ: (لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ حَمَلَ زَادَهُ وَمَزَادَهُ عَلَى بَعِيرٍ ثُمَّ سَارَ، حَتَّى كَانَ بِفَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ، فَأَدْرَكَتْهُ الْقَائِلَةُ، فَنَزَلَ فَقَالَ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ وَانْسَلَّ بَعِيرُهُ، فَاسْتَيْقَظَ فَسَعَى شَرَفًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، ثُمَّ سَعَى شَرَفًا ثَانِيًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، ثُمَّ سَعَى شَرَفًا ثَالِثًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَأَقْبَلَ حَتَّى أَتَى مَكَانَهُ الَّذِي قَالَ فِيهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ قَاعِدٌ إِذْ جَاءَهُ بَعِيرُهُ يَمْشِي حَتَّى وَضَعَ خِطَامَهُ فِي يَدِهِ، فَلَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنْ هَذَا حِينَ وَجَدَ بَعِيرَهُ عَلَى حَالِهِ).

قَالَ سِمَاكٌ: فَزَعَمَ الشَّعْبِيُّ أَنَّ النُّعْمَانَ رَفَعَ هَذَا الْحَدِيثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَمَّا أَنَا فَلَمْ أَسْمَعْهُ .

تخريج الحديث

هذا الحديث بهذا السياق رواه مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير في كتاب الدعوات، باب الحض على التوبة، ٢١٠٣/٤. ورقمه: ٢٧٤٥.

ورواه البخاري عن عبدالله بن مسعود مرفوعا، في كتاب الدعوات، باب التوبة: ١٠٢/١١ ورقمه: ٦٣٠٨.

ورواه مسلم في كتاب التوبة، باب الحض على التوبة: ٢١٠٣/٤. ورقمه: ٢٧٤٤. ورواه مسلم أيضا عن البراء بن عازب، وأنس بن مالك.

غريب الحديث

زاده ومزاده: الزاد الطعام، والمزادة: القربة العظيمة.

بفلاة من الأرض: الأرض الخالية.

القائلة: الإخلاد إلى النوم في الظهيرة.

غلبته عينه: أي نام.

وانسل بعيره: أي ذهب في خفية.

شرفاً: أي مقدارا أو مسافة.

شرح الحديث

هذه قصة رجل ضرب به الرسول ﷺ المثل لفرح الرب بتوبة عبده، وكان من قصة هذا الرجل أنه سافر وحده، حاملا على بعيره طعامه وشرابه، وانطلق مخترقا برية لا يستطيع الوصول إلى مقصده إلا باختراقها، وقد دلت روايات الحديث على أن هذه البرية لا ينجو منها إلا من كان عارفا بمعابرها وطرقاتها،

وكان معه من الماء والطعام ما يكفي للمدة التي يحتاج المسافر لاختراقها، فقد وصفت الأحاديث هذه البرية بأنها فلاة، أي خالية، وأنها دَوِّيَّة بتشديد الواو والياء وهي التي لا نبات فيها، وأنها قفر، وأنها مهلكة أي لعدم وجود الماء والطعام فيها.

ورأى ذلك المسافر في وقت الظهيرة شجرة في تلك البرية، وكان التعب أخذ منه كل مأخذ، فنزل وقال في ظلها، ونوم الظهيرة يرغب فيه كثير من الناس، وخاصة الذين أرهقهم التعب كما أرهق هذا المسافر.

وما إن أغمض عينيه، حتى ذهبت راحلته، فلما قام ولم يجدها، فزع فزعا شديدا، لا لخسارة راحلته وطعامه، فذلك أمره سهل، بل لأن ضياعها في هذه الفلاة القفر يعني هلاكه، ولذا فإنه أخذ يركض هاهنا وهاهنا، ينظرها فلم يجدها.

وعاد إلى الموضع الذي كان فيه تعبا عطشا، ولشدة معاناته أخذه النوم مرة أخرى، فلما أفاق وجد راحلته فوق رأسه، ففرح فرح الذي نجا من الموت والهلاك، ولشدة فرحه أخطأ فقال وهو يخاطب ربه: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، كما ورد في بعض روايات الحديث.

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن الله أشد فرحا بتوبة التائب من هذا الذي أضلته ناقته على الصفة التي ذكرها الرسول ﷺ.

عبر الحديث وفوائده

١ ـ فضل التوبة، فالتوبة ترضي الرب تبارك وتعالى، والله أشد فرحا بتوبة التائب من هذا الذي وجد ناقته بعد فقده إياها في أرض مهلكة.

٢ ـ إثبات صفة الفرح لله، وفرح الله صفة تليق بجلاله وكماله، لا تشبه فرح المخلوقين، على حد قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٣ ـ لطف الله بعباده ورحمته بهم، حيث رد لهذا الرجل ناقته بعد أن أيس منها.

٤ ـ على المرء أن يحتاط لأمره، فلو عقل هذا الرجل راحلته لما وقع له ما وقع.

٥ ـ عدم مؤاخذة الله المدهوش الذي فقد قدرته على التفكير لخوف أو فرح أو غضب، فقال مالا يقصده، كما لم يؤاخذ الله هذا الرجل لمقالته التي قالها، ولو كان يقصد ما قاله لكفر بالله.

٦ ـ يجوز أن يحكي المرء ما وقع من غيره من الألفاظ التي لا يقر عليها، كما حكى الرسول ﷺ مقالة هذا الرجل، وكما أخبر القرآن بقول الذين قالوا الكفر، كقولهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١]. وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ [المائدة: ٦٤].

القسم الرابع

قصص

النماذج الإيمانية الراقية

القصة السادسة والثلاثون

الذي استلف ألف دينار

تمهيد

هذه قصة رجلين من أصحاب المال، كانا يعيشان في مدينة تقع على شاطئ البحر، يعمل كثير من أهلها بالتجارة، احتاج أحدهما أن يقترض من الآخر ألف دينار، فأقرضه المال من غير شهود ولا كفلاء، اكتفاء بشهادة الله وكفالته، وسافر المستدين بالمال عبر البحر، ليقضي أعمالا تجارية له، فلما اقترب أجل السداد، لم يجد سفينة تحمله إلى دياره، فأخذ خشبة فنقرها، وحشاها بالمال الذي استقرضه، وأصلح موضع النقر، ورمى بها في البحر داعيا الله أن يوصلها إلى صاحبها، وقد أجاب الله دعاءه، وحقق رجاءه .

نص الحديث

روى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : (أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ، فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، قَالَ: فَأْتِنِي بِالْكَفِيلِ، قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلاً، قَالَ: صَدَقْتَ.

فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ عَلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ، فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً، فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ، وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ.

فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلانًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلاً، فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ، فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا.

فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا، يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا، وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ.

ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لآتِيَكَ بِمَالِكَ فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ، قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ، فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا).

تخريج الحديث

هذه الرواية رواها البخاري في صحيحه تامة بالسياق الذي ذكرته في كتاب الكفالة، باب الكفالة والقرض: (٤٦٩/٤) ورقمه: ٢٢٩١.

ورواه مختصرا في مواضع من صحيحه، فرواه في كتاب الزكاة، باب ما يستخرج من البحر، ٣٦٢/٣ . ورقمه: ١٤٩٨.

ورواه في كتاب البيوع، باب التجارة في البحر: (٢٩٩/٤) ورقمه: ٢٠٦٣.

ورواه في كتاب الاستقراض، باب إذا أقرضه إلى أجل مسمى، ٦٦/٥ . ورقمه: ٢٤٠٤.

ورواه في كتاب اللقطة باب إذا وجد خشبة في البحر أو سوطا، ٨٥/٥ . ورقمه: ٢٤٣٠ .

ورواه في كتاب الشروط، باب الشروط في القرض (٣٥٢/٥) ورقمه: ٢٧٣٤ .

ورواه في كتاب الاستئذان، باب بمن يبدأ في الكتاب . (٤٨/١١) ورقمه: ٦٢٦١ .

والحديث رواه البخاري معلقا في جميع رواياته في الصحيح، إلا في كتاب البيوع (٢٩٩/٤)، فإنه وصله في آخره، فقال: حدثني عبد الله بن صالح، حدثني الليث به.

وذكر ابن حجر الذين وصلوه في الصحيح وفي غيره من كتب السنن[1] .

غريب الحديث

نقرها: حفرها .

زجج موضعها: سوى موضع النقر وأحكم إغلاقه .

نشرها: قطعها بالمنشار .

شرح الحديث

حدثنا رسولنا ﷺ في هذا الحديث عن رجل من بني إسرائيل احتاج في تجارته إلى مال، فجاء إلى رجل من أصحاب الأموال الذين عرف عنهم أنهم يسلفون الناس، فطلب منه أن يسلفه مبلغا كبيرا: ألف دينار، فطلب منه إحضار شهود يشهدون على الدين الذي سيقرضه إياه، فقال له: كفى بالله شهيدا، وطلب منه

(١) راجع: فتح الباري: ٣٦٣/٣، ٤٧٠/٤ .

الإتيان بكفيل يضمنه إذا عجز عن السداد، فقال المقترض: كفى بالله كفيلا .

لقد كان الرجل الذي يسلف الناس صالحا، فلم يراجع المقترض عندما قال له ما قال، وقال له: صدقت، وبذل له المال الذي طلبه، من غير شهود ولا كفيل، ورضي بشهادة الله وكفالته، واتفق الرجلان على أجل السداد .

ومضى المستلف بالمال، وركب البحر، وقضى حاجته، وعندما قارب حلول الأجل لم يجد سفينة تحمله إلى صاحب المال، فآلمه أشد الألم أن يخلف الوعد الذي قطعه على نفسه، كيف وقد أشهد ربه على نفسه، واكتفى به كفيلا، وقطع على نفسه عهدا بالسداد !!.

وقد تفتق ذهنه عن طريقة يبعث بها المال إلى صاحبه، فقد حشى ذلك المال في خشبة بعد أن نقرها، مرفقا بها رسالة توضح بها حقيقة الحال، والمانع له من الحضور، ثم أحكم إغلاقها، وقذف بها في البحر، واستودعها ربه تبارك وتعالى .

لم يكن يوجد في وقته هذه الحوالات التي تصل إلى المرسل إليه بواسطة التلكس أو الفاكس أو الهاتف في أيام أو ساعات، ولم يكن في عهده طائرات وسيارات، أما الوسائل المعروفة في تلك الأيام فقد فقدت، فأرسل المال في هذه الصورة الفريدة النادرة .

لم يكن هذا الرجل غبيا ولا مخبولا، ولكنه فعل ما قدر على فعله، ووكل أمره إلى ربه، وتوجه إلى الله بصدق ليتولى إيصال المال إلى صاحبه، وهو يعلم أن الله على كل شيء قدير، وأنت ترى هذا اليقين والإيمان والثقة بالله والتوكل عليه من خلال ذلك الدعاء الذي توجه به إلى ربه، وهو يقذف بالخشبة التي فيها المال في البحر: « اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلانا ألف دينار، فسألني كفيلا، فقلت: كفى بالله كفيلا، فرضي بك، وسألني شهيدا، فقلت: كفى بالله شهيدا، فرضي بك بذلك، وإني جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعكها » .

ولا شك أن الله - تبارك وتعالى - تولى حفظ هذه الخشبة التي تحمل المال في جوفها، فهو الذي وجه أمواج البحر كي تقذف بها إلى المدينة التي فيها صاحب المال، وهو الذي أوجد فيه همة كي يخرج إلى شاطئ البحر في ذلك اليوم، وفي تلك الساعة التي وصلت فيها الخشبة، وهو الذي أوجد فيه الدافع لالتقاطها، وأمر أهله بكسرها بعد وصوله إلى المنزل، ولو تخلف احتمال من هذه الاحتمالات، وهي كثيرة وعديدة فإنها ما كانت لتصل إلى ذلك الرجل . كان من الممكن أن تغوص الخشبة في أعماق البحر، وخاصة أنها تحمل في جوفها ثقلا كبيرا، والخشب يغوص في مثل هذه الحال، ولا يطفو على وجه الماء، وكان يمكن أن تلتقطها بعض السفن المارة في ذلك المكان، كما كان من الممكن أن تقذفها الأمواج إلى بقعة بعيدة نائية عن مدينة الرجل المقرض، ولو أن الرجل لم يخرج مطلقا إلى شاطئ البحر، أو خرج إليه قبل وصول الخشبة أو بعد وصولها بفترة من الزمن لما وصلت إليه .

إنه الله، هو الذي حفظها، وسير بها الأمواج، ووقّت وصولها في اليوم الذي بعث صاحب المال على الخروج إلى شاطئ البحر، وهو اليوم الذي يحل فيه سداد الدين .

وعندما هيئت الفرصة لذلك المستدين عاد سريعا إلى صاحب المال بعد أن أحضر معه ألفاً أخرى، خشية أن يكون المال لم يصل إليه، وجاءه يشرح عذره، ويبين له سر تخلفه عن الموعد، فأخبره بما سر نفسه وطمأن قلبه، وجعله يحمد الله على فضله ونعمائه، وأخبره، ويالروعة ما أخبره به، لقد وصل المال الذي أرسله، وقد جاءت به الأمواج في الموعد المحدد للسداد، وكان ذلك من لطف الله ورعايته وتدبيره .

عبر الحديث وفوائده

١ ـ وجود الصالحين الأتقياء الذين يخشون الله ويخافونه في الأمم الماضية، فأحد الرجلين كان يسلف الناس، يريد بذلك الأجر والثواب، وقد رضي بكفالة الله وشهادته حين دفع المال إلى المقترض، والثاني كان منه ما كان من إيداع ربه المال ليوصله إلى صاحبه، وقذفه به في البحر في جوف تلك الخشبة .

٢ ـ مشروعية الاستدانة والقرض، وقد دلت على مشروعيته نصوص كثيرة من القرآن والحديث .

٣ ـ مشروعية الإشهاد والكفالة في الديون، وهو مما جاء شرعنا بإقراره، وقد اختلف العلماء في وجوب الإشهاد أو استحبابه على قولين، وقد أمر الله بتوثيق الدين بالكتابة، كما أمرنا بالإشهاد عليه .

٤ ـ أثر التوكل على الله في تحقيق المراد، فهذا الرجل دفع الخشبة في البحر متوكلا على الله في إيصالها إلى صاحبها، فوصلت إليه بقدرة الله .

٥ ـ وجوب الوفاء بالقرض عندما يحل أجل الدين، وعدم المماطلة في السداد .

٦ ـ مشروعية ركوب البحر، والسفر فيه للتجارة .

٧ ـ مشروعية التجارة، وتعامل الناس بها منذ القدم، ومشروعية الاستدانة من أجل التجارة إذا علم الإنسان قدرته على السداد .

٨ ـ مشروعية التقاط ما له قيمة قليلة مثل الخشبة والسوط، والانتفاع به من غير تعريف له، أما إذا لم يكن له قيمة مثل نوى التمر، وما يرمى به من مخلفات البيوت، فيجوز أخذه بلا خلاف[١] .

وقد ورد في الصحيح أن الرسول ﷺ كان يجد الحبة من التمر، فما يمنعه من أكلها إلا خشيته أن تكون من تمر الصدقة[٢] .

---

(١) راجع في هذه المسألة: فتح الباري: (٥/٨٥) .

(٢) صحيح البخاري: ٥/٨٦ . ورقمه: ٢٤٣١، ٢٤٣٢ .

القصة السابعة والثلاثون

المتصدق الذي وضع الصدقة في غير موضعها

تمهيد

إذا فعل العبد ما أمره به ربه، فلا حرج عليه إن هو أخطأ فيما فعل، ولن ينقصه الله أجره، ولن يضيع ثوابه، فقد أخبرنا الرسول ﷺ في هذا الحديث عن رجل عزم على التصدق سرا، فتصدق ثلاث ليال، فوقعت صدقته في يد سارق مرة، وفي يد زانية أخرى، وفي يد غني ثالثة، وقد ساءه ذلك وآلمه، فأتي في المنام، وأخبر أن صدقته قد قبلت، وبين له أن في صدقته على هؤلاء الذين لا يستحقون الصدقة عظات وعبراً .

نص الحديث

روى البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ : (قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لأَتَصَدَّقَنَّ، بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ.

فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، لأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ! لأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ.

فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى سَارِقٍ، وَعَلَى زَانِيَةٍ، وَعَلَى غَنِيٍّ!!! فَأُتِيَ، فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ، فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ).

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب الزكاة، باب إذا تصدق على غني وهو لا يعلم، ٢٩٠/٣ . ورقمه: ١٤٢١ .

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة، باب ثبوت أجر المتصدق، وإن وقعت الصدقة في غير أهلها، ٧٠٩/٢ . ورقمه: ١٠٢٢ .

وهو في شرح النووي على مسلم: ٩٠/٧ . ورواه النسائي في سننه: ٥٥/٥.

شرح الحديث

في كل جيل وعصر يوجد فيه الإسلام يوجد الأخيار الذين يشتاقون إلى العمل بطاعة الله، وينبعثون إلى العمل عن طواعية ورضا، لا يطلبون من العباد من وراء عملهم جزاء ولا شكورا .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن رجل أراد أن يتصدق بصدقة خفية، لا يطلع على صاحبها إلا علاّم الغيوب، فصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصدقة السر أفضل من صدقة العلانية .

خرج ذلك الرجل في جوف الليل يبحث عن من يضع صدقته في يده، فوجد رجلا ظنه فقيرا، فدفع إليه ذلك المال الذي أراد التصدق به، وكان ذلك الرجل سارقا، وتندر الناس في مجامعهم وأسواقهم في صبيحة اليوم التالي بالمتصدق الذي وضع ماله في يد سارق .

لقد حدّث اللص بما جرى معه، وهذه الأخبار تذيع في المجتمعات الصغيرة، وتنتشر فيها بسرعة مذهلة، وبلغ الخبر صاحبنا من الناس الذين تحدثوا به، وهم لا يعرفون صاحبه، فآلمه ذلك وأحزنه، وعبر عن حزنه وألمه بقوله: « اللهم لك الحمد، على سارق !! ».

وعزم على أن يعيد الكرة في الليلة التالية، لأنه كان يظن أن صدقته قد ذهبت هباءً منثوراً، و لم تقع موقعها عند ربه، فخرج في الليلة الثانية بعد أن أظلم الليل وستره بظلامه، ووضع صدقته في يد امرأة ظنها فقيرة فإذا هي زانية، وتحدثت الزانية كما تحدث السارق، وشاع الخبر وذاع، وبلغ صاحبنا، فازداد عجبه وألمه، وقال كما قال بالأمس: اللهم لك الحمد، على زانية !!!

وعزم على أن يتصدق مرة ثالثة احتسابا للأجر، وطلبا للثواب، فوقعت صدقته في الليلة الثالثة في يد غني، ولك أن تتصور مدى حزن هذا الرجل الذي لم يصب فيما كان يطمح إليه ثلاث مرات، ولك أن تتخيل مشهده وهو يخاطب ربه متألما متعجبا قائلا: اللهم لك الحمد، على سارق، وعلى زانية، وعلى غني!!!.

لم يكن يعلم هذا الرجل أن الله كتب له الأجر والمثوبة، فالذي يبذل من ماله يبتغي الثواب من الله، يرزقه الله الثواب، وإن كان المتصدق عليه لا يستحق الصدقة .

وقد جاءه في منامه من بشره بأن الله قبل صدقته، وأثابه عليها، وأعلمه بحكمة عظيمة من وراء التصدق على هؤلاء الثلاثة، فلعل السارق أن يستعف بها عن السرقة، ولعل الزانية أن تستعف بها عن الزنا، ولعلها تدفع الغني إلى الإنفاق تأسيا بهذا الرجل الذي يتصدق بالليل ساتراً نفسه عن العباد، طالبا الأجر من رب العباد .

وقد جاء في الأحاديث أن الصدقة مقبولة، وإن وقعت في يدي من لا يريد المتصدق أن تقع في يده، فقد روى مسلم في صحيحه أن يزيد بن الأخنس وضع دنانير عند رجل في المسجد، ووكله بصرفها إلى مستحقيها، فجاء ابنه معن فأخذها، وهو لا يعلم أن مصدرها والده، وجاء بها إلى أبيه، فرفض الوالد أخذه إياها، وقال والله ما إياك أردت، فخاصمه الابن إلى رسول الله ﷺ، فقال الرسول ﷺ مفتيا وحاكما: (لك ما نويت يا يزيد، ولك ما أخذت يا معن)[1].

---

(١) صحيح مسلم: ٢٩١/٣ . ورقمه: ١٤٢٢ .

عبر القصة وفوائدها

١ ـ وجـود رجـال صـالحين في الأمـم مـن قبلنـا يفعلـون الخـيرات، ويرغبـون في الصدقات، ويسعون في ظلمة الليل يبحثون عن الفقراء والمساكين والمحتاجين.

٢ ـ سعة رحمة الله في قبول الصدقة، ولو وقعت في غير موضعها .

٣ ـ قد ينتج عن فعل الإنسان آثار طيبة لم يردها يؤجره الله عليها، فهـذا الرجـل قد ينتفع بفعله السارق والزانية والغني على النحو المذكور في الحديث .

٤ ـ فضل التسليم لقضـاء الله وقـدره، فهـذا الرجـل لمـا قـدر الله لـه أن لا تصـل صدقته إلى من يستحقها من الفقراء والمساكين، استسـلم لقضـاء الله ورضـي به، فأعقبه الله خيرا .

٥ ـ الرؤيا الصادقة من المبشرات، وهي جزء من ست وأربعين جزءا مـن النبـوة، ومن ذلك رؤيا هذا الرجل الذي بشره ربه فيها بقبول صدقته، وبين له وجـه ما لم يعرفه، ولم يعلمه منها .

القصة الثامنة والثلاثون

قصة جرة الذهب

تمهيد

في التاريخ الإنساني نماذج راقية، يتدافع أصحابها المال، ولا يحرصون عليه، خشية أن يكون حراما، وفي هذه القصة خبر رجلين تدافعا جرة فيها ذهب، كل واحد منهما يزعم أنها لصاحبه دونه، وقد قضى الذي حكّماه بينهما بحكم لطيف إذ أشار عليهما بتزويج ولد أحدهما بابنة الآخر، والإنفاق عليهما من ذلك المال .

نص الحديث

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ: (اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأَرْضَ، وَلَمْ أَبْتَعْ مِنْكَ الذَّهَبَ.

وَقَالَ الَّذِي لَهُ الأَرْضُ: إِنَّمَا بِعْتُكَ الأَرْضَ وَمَا فِيهَا، فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ، فَقَالَ الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ قَالَ أَحَدُهُمَا: لِي غُلامٌ، وَقَالَ الآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ، قَالَ: أَنْكِحُوا الْغُلامَ الْجَارِيَةَ، وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا).

تخريج الحديث

هذا الحديث في صحيح البخاري، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب من غير ترجمة، ٥١٢/٦ . ورقم الحديث: ٣٤٧٢ .

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الأقضية، باب استحباب إصلاح الحاكم بين المتخاصمين . ١٣٤٥/٣ ورقمه: ١٧٢١ . وهو في شرح النووي على مسلم: ٣٨٢/١٢ .

غريب الحديث

عقارا: العقار الأرض وما يتصل بها . وحقيقة العقار الأصل، سمي بذلك من العقر، بضم العين وفتحها، وهو الأصل، ومنه عقر الدار، بالضم والفتح .

جرة: إناء من خزف، له بطن كبير، وعروتان، وفم واسع .

شرح الحديث

أخبرنا رسولنا ﷺ في هذا الحديث عن رجلين اشترى أحدهما من الآخر أرضا، فوجد فيها جرة فيها ذهب، فكان حالهما عجبا، فالمعهود بين الناس أن يختصم مثل هذين للحصول على الذهب، فيطالب كل واحد منهما به ليحوزه دون الآخر، مدعيا أنه صاحبه، هذا لأنه اشترى الأرض بما فيها، والآخر لأنه باعه الأرض، و لم يبعه الذهب .

إن حب الأموال من الذهب والفضة وغيرهما مغروس في أعماق النفوس البشرية ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران:١٤].

وقد حمل حب المال الناس على التحاسد والتباغض والتدابر، وحملهم على استحلال الحرمات، وسفك الدماء، والتخاصم لأكل أموال الناس بالباطل .

وقد أعلمنا ربنا أن هذا الداء وهو أكل المال بالباطل وصل إلى الذين يحملون وحيه، ويقومون على شرعه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ... ﴾ [التوبة: ٣٤].

ولا شك أن هذين الرجلين ورعين صالحين، والإيمان القوي والتقى والصلاح يكون غالبا وراء الزهد في المال، وبخاصة إذا كان المال حراما، أو غير متأكد صاحبه من أن المال له، فالأتقياء الصالحون يعلمون أن المال الحرام يهلك الحلال، ويجلب غضب الرب وانتقامه، وقد يكون سببا في دخول صاحبه النار، أضف إلى هذا أن الذين سلبت أموالهم يأخذون من حسنات السالب بمقدار ما أخذ من أموالهم ولذا فإن الأتقياء الصالحين يبذلون كل جهد ممكن كيلا يأكلوا مالا حراما، كما يحرصون إلى دفع الأموال إلى أصحابها، وهذا الصنف كثير في هذه الأمة، وخاصة في أوائلها، فقد كان المجاهدون يأتون بالأموال العظيمة، ويدفعونها إلى أمير الجيش، ولا يأخذون منها شيئا .

وكما كانت قصة هذين الرجلين عجبا، فإن قضاء القاضي الذي حكم بينهما كان أعجب وأغرب، فقد سألهما عما عندهما من الذرية ؟ فقال أحدهما: عندي غلام، وقال الثاني: عندي جارية، فأشار عليهما أن يزوجا الغلام الجارية، وينفقا عليهما من المال الذي عثرا عليه، لقد ربط هذا القاضي بمشورته بين هاتين الأسرتين برباط المصاهرة، فالمصاهرة بين الأخيار تقوي رباط الإيمان، وتمتن العلاقة بين الصالحين، والزوجان الصالحان يكونان أسرة صالحة، ويرجى أن ينجبا ذرية صالحة .

عبر الحديث وفوائده

١ ـ مشروعية البيع والشراء عند الأمم السابقة وفي الشرائع السابقة، خلافاً لمن يزعم أن الملكية كانت معدومة عند البشر قديما .

٢ ـ وجود الصالحين الأتقياء الذين يحرصون على الحلال، ويجتنبون الحرام في كل العصور .

٣ ـ مشروعية التحاكم إلى من يظن فيه القدرة على الحكم من أهل العلم، وأصحاب الرأي .

٤ ـ الصناعات موجودة منذ القدم، بدلالة وجود هذه الجرة، ووجود الذهب فيها .

٥ ـ إذا وجد الإنسان مالا مدفونا يمكن معرفة أصحابه، بأن يكون مدفونا من عهد ليس بالبعيد، فحاله حال اللقطة يجب البحث عن أصحابه، ودفع المال لهم، فإن كان العهد بعيدا، ولا يعرف أصحابه بحال، فهو كنز يملكه من عثر عليه بعد أن يخرج منه الخمس .

القصة التاسعة والثلاثون

جريج العابد

تمهيد

قصة جريج قصة عظيمة، فيها دروس وعظات، فقد كان جريج رجلا عابدا صالحا من عباد بني إسرائيل، أغضب أمه، لأنها جاءته ثلاثة أيام لتمتع ناظريها برؤيته، وتشنف آذانها بسماع حديثه، وفي كل مرة ترجع خائبة، لأنه كان مشغولا بصلاته وعبادته، فدعت عليه دعوة استجاب الله لها فيها، دعت عليه أن لا يموت حتى يرى وجوه المومسات، فاتهمته امرأة زانية بالفجور والزنا، وادعت أنه والد طفل ولدته، وقد نجى الله جريجا بصلاحه وتقاه، فأنطق الطفل الوليد، فأخبر بأبيه الذي خلق من مائه، وبذلك استجاب الله دعاء أمه فيه، وبرأه بصلاحه مما رمته به تلك الفاجرة .

نص الحديث

روى البخاري في صحيحه عن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إلا ثَلاثَةٌ: عِيسَى، وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: جُرَيْجٌ، كَانَ يُصَلِّي فجَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ، فَقَالَ: أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّي، فَقَالَتِ: اللَّهُمَّ لا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ الْمُومِسَاتِ، وَكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ، وَكَلَّمَتْهُ، فَأَبَى، فَأَتَتْ رَاعِيًا فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَلَدَتْ غُلامًا، فَقَالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ، فَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ، وَأَنْزَلُوهُ، وَسَبُّوهُ، فَتَوَضَّأَ، وَصَلَّى، ثُمَّ أَتَى الْغُلامَ، فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ يَا غُلامُ؟ قَالَ: الرَّاعِي، قَالُوا: نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: لا إِلا مِنْ طِينٍ).

وروى مسلم في عن صحيحه أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ جُرَيْجٌ يَتَعَبَّدُ فِي صَوْمَعَةٍ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ.

قَالَ حُمَيْدٌ: فَوَصَفَ لَنَا أَبُو رَافِعٍ صِفَةَ أَبِي هُرَيْرَةَ لِصِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُمَّهُ حِينَ دَعَتْهُ، كَيْفَ جَعَلَتْ كَفَّهَا فَوْقَ حَاجِبِهَا، ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا إِلَيْهِ تَدْعُوهُ، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، أَنَا أُمُّكَ كَلِّمْنِي، فَصَادَفَتْهُ يُصَلِّي، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلاتِي، فَاخْتَارَ صَلاتَهُ، فَرَجَعَتْ، ثُمَّ عَادَتْ فِي الثَّانِيَةِ، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، أَنَا أُمُّكَ فَكَلِّمْنِي، قَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلاتِي، فَاخْتَارَ صَلاتَهُ، فَقَالَتِ: اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا جُرَيْجٌ، وَهُوَ ابْنِي، وَإِنِّي كَلَّمْتُهُ، فَأَبَى أَنْ يُكَلِّمَنِي، اللَّهُمَّ فَلا تُمِتْهُ، حَتَّى تُرِيَهُ الْمُومِسَاتِ، قَالَ: وَلَوْ دَعَتْ عَلَيْهِ أَنْ يُفْتَنَ لَفُتِنَ.

قَالَ: وَكَانَ رَاعِي ضَأْنٍ يَأْوِي إِلَى دَيْرِهِ، قَالَ: فَخَرَجَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْقَرْيَةِ، فَوَقَعَ عَلَيْهَا الرَّاعِي، فَحَمَلَتْ، فَوَلَدَتْ غُلامًا، فَقِيلَ لَهَا: مَا هَذَا؟ قَالَتْ مِنْ صَاحِبِ هَذَا الدَّيْرِ، قَالَ: فَجَاءُوا بِفُؤُوسِهِمْ وَمَسَاحِيهِمْ، فَنَادَوْهُ فَصَادَفُوهُ يُصَلِّي، فَلَمْ يُكَلِّمْهُمْ.

قَالَ: فَأَخَذُوا يَهْدِمُونَ دَيْرَهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ نَزَلَ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُ: سَلْ هَذِهِ، قَالَ: فَتَبَسَّمَ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَ الصَّبِيِّ، فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: أَبِي رَاعِي الضَّأْنِ، فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْهُ قَالُوا: نَبْنِي مَا هَدَمْنَا مِنْ دَيْرِكَ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، قَالَ: لا وَلَكِنْ أَعِيدُوهُ تُرَابًا كَمَا كَانَ، ثُمَّ عَلاهُ).

وفي رواية عند مسلم أيضا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلا ثَلاثَةٌ، عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلا عَابِدًا فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً، فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، أُمِّي وَصَلاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاتِهِ، فَقَالَتِ اللَّهُمَّ لا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ

الْمُومِسَاتِ.

فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ، قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا، فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ، قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ، وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ، فَوَلَدَتْ مِنْكَ، فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيُّ؟ فَجَاءُوا بِهِ، فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ، فَصَلَّى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ، فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلامُ، مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلانٌ الرَّاعِي، قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: لا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا).

تخريج الحديث

رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، عن أبي هريرة، وهو في صحيح البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ [مريم: ١٦]، (٤٧٦/٦) ورقمه: ٣٤٣٦ .

ورواه في باب بدون ترجمة (٥١١/٦) ورقمه: ٣٤٦٦ .

ورواه تعليقا في كتاب العمل في الصلاة، باب إذا دعت الأم ولدها في الصلاة، ٧٨/٣ . ورقمه: ١٢٠٦ .

ورواه في كتاب المظالم، باب إذا هدم حائطا فليبن مثله: ١٢٦/٥ .

ورواه مسلم في كتاب البر والصلة، باب تقديم بر الوالدين على التطوع في الصلاة، ١٩٧٦/٤ . ورقمه: ٢٥٥٠.

غريب الحديث

الصومعة: بناء مرتفع محدد أعلاه، ووزنها فوعلة من صمعت إذا دققت، لأنها دقيقة الرأس .

الدير : كنيسة منقطعة عن العمارة، ينقطع فيها رهبان النصارى، لتعبدهم وهي بمعنى الصومعة .

أمي وصلاتي: أي هل أجيب أمي، أو أستمر في صلاتي ؟

المومسات: الزواني البغايا المتجاهرات بذلك والواحدة مومسة .

بغي يتمثل بحسنها: أي يضرب به المثل لانفرادها به .

فولدت غلاما: فيه حذف تقديره: فحملت فولدت غلاما .

شرح الحديث

يؤخذ من مجموع روايات هذا الحديث أن جريجا كان أحد عباد بني إسرائيل الصالحين، وكان في بداية أمره تاجرا، ثم زهد في التجارة، وحبب إليه العبادة فاتخذ صومعة يعبد الله فيها، ويعتزل الناس، وهذه هي الرهبنة التي نهانا ربنا ورسولنا عن اتخاذها .

وكان لجريج أم صالحة، تأتي في بعض الأيام لزيارة ولدها، ومحادثته. وجاءته يوما فنادته، وكان يصلي، فآثر الاستمرار في صلاته على إجابة نداء أمه، وقد مثل لنا رسولنا ﷺ هيأة الأم في مناداتها ابنها، فقد وضع الرسول ﷺ كفه فوق حاجبه حاكيا هيأتها وهي ترفع رأسها حين مناداتها إياه، والناس يفعلون ما فعلته أم جريج عندما يكون الذي ينادونه في مكان مرتفع، وهم يريدون تدقيق النظر، ليروا المنادي حين يطل عليهم، ولعل أشعة الشمس المبهرة كانت تقع في عينيها، حين ترفع بصرها لترى ولدها، فكانت تضع كفها فوق عينيها لتحجب أشعة

الشمس عن عينيها .

لقد كان الواجب على جريج أن ينصرف من صلاته، ويجيب نداء أمه، فإجابة الأم أولى من صلاة النافلة، وكان يمكنه أن يخفف صلاته، ويبادر بإجابة أمه، ولكنه قدم صلاته على إجابة أمه، ويبدو أنه كان يجد للصلاة حلاوة في قلبه، تغريه بعدم ترك الصلاة لأي أمر من الأمور .

وعاودت أمه الكرة في اليوم الثاني، ثم في اليوم الثالث، وكان حظها في المرتين التاليتين ليس بأحسن من حظها في المرة الأولى، فأغضبها ذلك منه، فدعت عليه، فاستجاب الله دعاءها فيه، دعت عليه أن لا يميته الله حتى يريه وجوه المومسات، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنها لو دعت عليه بالفتنة لفتن، وإذا شاء الله شيئا كان، وهيأ له أسبابه .

وقد هيأ أسبابه بأن بعث بغيا للتعرض له وفتنته، والسبب في ذلك أن بني إسرائيل تحدثوا عن جريج وصلاحه وعبادته، فهونت هذه المرأة من شأنه وصلاحه وتقاه، وزعمت أنها لو تعرضت له، لفتنته، ولسقط كما سقط غيره .

وقد كانت مغرورة بنفسها، مدلة بجمالها، فقد ذكر الحديث أن الناس كانوا يضربون بها المثل في الحسن والجمال .

والساقطون في أوحال الرذيلة يظنون أن كل الناس كمن عرفوا، ولا يظنون أن في عباد الله من يستعلي على المتع الدنيوية العارضة الزائلة، وأن بعض عباد الله عندهم من الدين والتقى والصلاح ما يعصمهم من الوقوع في الرذيلة، والولوغ في الفاحشة، من هؤلاء الذين ضربوا المثل في هذا المجال نبي الله يوسف، وقد حدثنا القرآن عن قصته، ومنهم جريج العابد الذي تعرضت له هذه الغانية اللعوب، فلم يلتفت إليها، ولم ينشغل بها، واستمر في عبادته وصلاته كأن لم يرها، ولم يشاهدها .

والذي يعلم طبائع الناس يدرك مدى الحنق والأسى الذي يتركه مثل هذا

الإعراض في نفوس الفاجرات، فإنه بإعراضه عنها تكون قد خسرت المعركة، ذلك أنها تعهدت لمن ذكروا جريجا بالصلاح بفتنته، وإيقاعه في حبائلها، وها هي رجعت خائبة خاسرة، لم تفز ببغيتها، و لم تحقق مطلوبها .

وقد شق عليها هذا الذي وقع لها، فمكرت لجريج مكرا عظيما، فقد رأت راعيا يأوي إلى صومعة جريج، فباتت معه في المكان الذي أوى إليه، ومكنته من نفسها، وحملت منه في ليلتها تلك، فلما ولدته ادعت أن هذا الولد من جريج العابد، فهو الذي فعل معها هذه الفعلة الشنعاء، ومعنى ذلك أنه غير صادق في تعبده، وأن صلاحه الذي يظهره كذب ورياء .

وكم يأسى الناس ويألمون عندما يضعون ثقتهم في الذين يظهرون الصلاح والتقى والتدين، ثم يكتشفون أن الذين وثقوا بهم، وائتمنوهم إنما هم ذئاب تلبس جلود الضأن، أو ثعالب يظهرون اللين ليخدعوا المساكين، فينقضون عليهم عندما تسنح لهم الفرصة، كما فعلوا بالراهب الذي حدث سلمان الناس أنه كان يأخذ أموالهم ويكنزها، فصلبوه بعد موته، وأبوا أن يدفنوه .

وقد جاء أهل القرية إلى جريج والغضب يغلي في قلوبهم وعروقهم، وأمروه بالنزول إليهم، وترك التعبد الكاذب الذي يظهره، فلم يسمع لندائهم، لأنه كان ماض في صلاته وتعبده، عند ذلك أعملوا فؤوسهم ومساحيهم في الصومعة هدما، فلما رأى ذلك منهم نزل إليهم، فأخذوا يصيحون به ويضربونه، ولما استعلم منهم عن سبب هياجهم، أخبروه بما كان منه، وطالبوه أن يسأل تلك المرأة التي زعمت ما زعمته .

تبسم جريج لمقالتهم، فقد كان صادقا في عبادته، واثقا من استقامته، وهو يعلم يقينا أنه لم يفعل هذا الذي يقولونه، وأن دعوى هذه الفاجرة كذب صراح، وقد طلب جريج من الجموع الثائرة أن يعطوه فرصة ريثما يتوضأ ويصلي، ولما أتم صلاته جاء الغلام الذي لم تمض على ولادته ساعات أو أيام، وطعنه في بطنه بإصبعه، وخاطبه قائلا ـ والناس ينظرون صامتين ـ : من أبوك ؟

وكانت آية من آيات الله الدالة عليه، وعلى عظيم قدرته، فقد نطق الغلام بصوت مسموع، وكلام واضح مفهوم، وقال: أبي فلان راعي الضأن، فأدرك الناس عظم الجريمة التي ارتكبوها في حق العبد الصالح، وعلموا أن جريجا لم يكن من الصنف الذي ظنوه، لم يكن مرائيا ولا مخادعا، بل كان صادقا في تعبده وصلاحه، وأن هذه البغي كانت كاذبة فيما رمته به، وعلموا أنهم تسرعوا في تصديق التهمة، كما تسرعوا في إيذاء الرجل، وهدم صومعته، وحاول هؤلاء المتعجلون أن يكفروا عما وقع منهم في حق جريج، فعرضوا عليه أن يعيدوا له بناء صومعته من الذهب أو الفضة، ولكنه أبى، وأصر على إعادتها من الطين كما كانت، وكذلك فعلوا، فلما أتموا بناءها، علاها جريج عائداً إلى عبادة ربه .

لقد استجاب الله في جريج دعاء أمه، فحقق ما طلبته، ولكن الله نجاه بصلاحه وتقاه، وكان في استجابة الله دعاء أمه ثم نجاته بعد ذلك درسان عظيمان .

عبر الحديث وفوائده

١ ـ بيان أثر عقوق الوالدين وترك برهما والاستجابة لأمرهما، وأن ذلك قد يكون سببا لمصائب تحل بالإنسان، كما وقع لهذا العابد الصالح .

٢ ـ إنجاء الله للعبد بصلاحه وتقاه، كما أنجى جريجا وبرأه من التهمة التي رُمي بها .

٣ ـ قدرة الله على إنطاق من لم يعهد النطق من أمثالهم، كما أنطق هذا الغلام الصغير، فبرأ جريجاً .

٤ ـ كان في قوم عيسى رجال أخيار صالحون، فهذا الرجل من أتباع عيسى عليه السلام، فالنصارى هم الذي ابتدعوا الرهبنة .

٥ ـ يجب على المصلي ترك صلاة النافلة إذا دعى المصلي أحد والديه لغرض مشروع، فالحديث يفيد أن جريجا عصى ربه بعدم إجابة أمه .

٦ ـ عاقبة الابتلاء إلى خير إذا صبر العبد واتقى ربه، فجريج بعد بلائه كان أفضل عند الناس وعند رب الناس منه قبل الابتلاء .

٧ ـ قد يوجد عند العباد الصالحين من الثبات واليقين وحسن الظن بالله ما يجعله يواجه الأمور العظام بشجاعة ورباطة جأش، كما فعل جريج .

٨ ـ في الحديث إثبات كرامات الأولياء .

٩ ـ كان الوضوء مشروعا لدى الأمم من قبلنا، فقد توضأ جريج وصلى، ثم طعن في بطن الغلام .

١٠ ـ شأن الصالحين أن يفزعوا إلى الصلاة عند نزول الكرب والبلاء .

١١ـ محاولة أهل الفجور تشويه صفحة الصالحين الأخيار، كما فعلت هذه البغي بجريج.

١٢ـ لا يجوز المسارعة بتصديق التهمة من غير دليل ولا برهان، كما فعل أهل القرية عندما صدقوا ما قالته المرأة الفاجرة في جريج، وكان الواجب عليهم أن يتحققوا من مقولتها، قبل مهاجمة جريج وسبه وضربه .

القصة الأربعون

آسيا ملكة مصر

تمهيد

وقفت بعض النساء مواقف إيمانية متميزة عبر التاريخ، وبعض هذه المواقف يعجز عنها الرجال، ومن هؤلاء آسيا ملكة مصر امرأة فرعون، فقد جادت بنفسها لله ﷻ، وآثرت ما عنده، وتخلت عن الدنيا، وصبرت على عذاب زوجها لها حتى فاضت روحها إلى بارئها.

وفي هذا الحديث طرف من أخبارها.

نص الحديث

روى أبو يعلى في مسنده عن أبي هريرة قال: (إنَّ فِرْعَونَ أَوْتَدَ لِامْرَأَتِهِ أَرْبَعَةَ أَوْتَادٍ فِي يَدَيْها وَرِجْلَيْها، فَكَانَ إِذَا تفرَّقُوا عَنْها ظَلَّلَتْهَا المَلائِكَةُ، فَقَالَتْ: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]، فَكَشَفَ لَهَا عَنْ بَيْتِهَا فِي الجَنةِ) .

تخريج الحديث

أورد الشيخ ناصر الدين الألباني هذا الحديث في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦/٣٥) ورقمه: ٢٥٠٨ وقال في تخريجه: « أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤/١٥٢١ - ١٥٢٢) حدثنا هدبة، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي

رافع، عن أبي هريرة، أن فرعون ... وهكذا وقع فيه موقوفا عليه غير مرفوع، وهو في حكم المرفوع، لأنه لا يقال بمجرد الرأي مع احتمال كونه من الإسرائيليات [(١)] .

قلت: وإسناده صحيح على شرط مسلم، وقد أورده السيوطي في الدر المنثور (٢٤٥/٦) موقوفا أيضا، وقال: أخرجه أبو يعلى والبيهقي بسند صحيح عن أبي هريرة .

ثم عزاه لعبد بن حميد عن أبي هريرة موقوفا أيضا نحوه .

وقال الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٣٩٠/٣): صحيح موقوف .

وقال الهيثمي (٩ / ٢١٨): ورجاله رجال الصحيح، وله شاهد من حديث سلمان رضي الله عنه، قال: كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة .

أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨ / ١١٠)، والحاكم (٤٩٦/٢)، وقال: صحيح على شرط الشيخين . ووافقه الذهبي، وهو كما قالا .

وعزاه السيوطي لابن أبي شيبة أيضا وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان .

قلت: ثم طبع شعب الإيمان هذا فرأيته قد أخرجه (٢٤٤/٢ /١٦٣٧) من طريقين عن يزيد بن هارون: أنبأنا سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن سلمان به موقوفا أيضا، وإسناده صحيح .

ثم أخرجه (١٦٣٨) من طريق معمر، عن ثابت، عن أبي رافع قال: (وتد فرعون لامرأته أربعة أوتاد . ثم حمل على بطنها رحى عظيمة حتى ماتت) وهذا صحيح، لكنه مع وقفه مرسل » .

---

(١) الراجح عندي أن هذا الحديث من قول الرسول ﷺ وليس من الإسرائيليات ، فلا ذكر في التوراة لامرأة فرعون ، وهم يزعمون أن الذي ربى موسى وتبناه ابنة فرعون ، وليس زوجته. انظر الخروج . الإصحاح : ٢ . فقره : ٥- ١٠ .

شرح الحديث

من سنة الله في خلقه أن يفضحهم إن هم تجاوزوا حدودهم، وبخاصة إذا اعتدوا على ربوبية الله وألوهيته، ومن ذلك ما وقع لطاغية مصر الذي ادعى الألوهية والربوبية، وقد فضحه الله في مواقف كثيرة، آخرها إهلاكه وجنده بالغرق .

ومن ذلك أنه كان يبحث عن الطفل الذي سيكون هلاكه على يديه، فأرسله الله إليه في قصره، وألقى حبه في قلب الملكة، فربي في قصر فرعون، فكان يرعاه ويحفظه، وينفق المال على أمه جزاء إرضاعها له .

ومن ذلك إدخال الإيمان بـا لله الواحد الأحد في قلب مشاطة ابنته، فقد كفرت بألوهيته وربوبيته وآمنت بالله الواحد الأحد .

ومن ذلك إيمان زوجة فرعون بالله وبما جاء به رسول الله موسى، فعذبها عذابا شديدا، وطلبت من الله تبارك وتعالى أن ينقذها من عذابها، ويختارها إلى جواره ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم /١١] .

وقد أخبرنا هذا الحديث أن فرعون عندما اكتشف إيمان زوجته، أوتد لها أربعة أوتاد في يديها ورجليها، وهذا يعني أنه دق في كل طرف من أطرافها وتدا، ويحتمل أن يكون أمر بأن يشد كل طرف من أطرافها بحبل إلى وتد من تلك الأوتاد .

وعلى كل فإن هذا النوع من التعذيب مؤلم وشديد، ولذلك فإنها دعت ربها أن يخلصها من فرعون وعمله، وأن ينجيها من القوم الظالمين، بنقلها إلى دار البقاء في جنات النعيم .

وأخبرنا هذا الحديث أن الملائكة كانت تظل هذه المرأة الصالحة عندما يتفرق

عنها زبانية فرعون الذين يعذبونها، كما أخبرنا أن الله كشف لها عن بيتها في الجنة، وهي تحت العذاب.

لقد أثبتت هذه المرأة لفرعون تفاهته وحقارته، فقد آمنت با لله إلها وربا، وكفرت بألوهيته وربوبيته، ولو كان إلها كما ادعى لما خرجت زوجته عن طوعه، ولاستطاع أن يعيدها إلى الإيمان به، ولكنها اختارت مفارقته إلى الرب الذي آمنت به.

عبر الحديث وفوائده

١ ـ أثر الإيمان الصادق في مواجهة العذاب والهوان الذي يصبه الظالمون فوق رؤوس المؤمنين، حتى المرأة الرقيقة المرفهة المنعمة صبرت على العذاب لتنال رضوان الله ورحمته وجنته.

٢ ـ مدى حقد أهل الكفر على أهل الإيمان، ففرعون لم يرع حق الصحبة للزوجة التي عاشت معه، وأذاقها أشد ألوان العذاب، ولم يرحم ضعفها.

٣ ـ رعاية الله لعباده المؤمنين عندما يصيبهم البلاء، فقد أرسل لآسيا امرأة فرعون الملائكة تظلها وهي مشدودة إلى الأوتاد، وكشف لها عن المنزلة المعدة لها في جنات النعيم، وفي ذلك تثبيت لها على الإيمان.

٤ ـ اختيار بعض عباد الله نعيم الآخرة على نعيم الدنيا، ولو نالوا منه أعلى مراتبه، فهذه المرأة كانت المرأة الأولى في البلاط الملكي في قصر فرعون.

٥ ـ عظيم حلم الله تبارك وتعالى، فلو شاء لأنجى آسيا من محنتها، ولأهلك فرعون وزبانيته، ولكنه حليم، يمهل ولا يهمل.

القصة الحادية والأربعون

العالم الذي احتال للخلاص

تمهيد

هذه قصة عالم من علماء بني إسرائيل أراده الضالون من بني قومه أن يعتمد كتاباً اختلقوه بديلا عن كتابهم المنزل من عند الله، فأوهمهم أنه رضي بذلك الكتاب الباطل، بينما كان يشير إلى كتاب الله الذي علقه في عنقه على صدره تحت ثيابه .

نص الحديث

روى البيهقي في شعب الإيمان عن عبدالله (إنَّ بني إسْرائِيلَ لَمَّا طَالَ الأَمَدُ، وَقَسَتْ قُلُوبُهمْ اخْتَرَعُوا كِتَاباً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسُهُم، استهْوَته قُلُوبُهم، واسْتَحَلَّتْهُ أَلْسِنَتُهُمْ، وَكَانَ الحَقُّ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ كَثِيرٍ مِنْ شَهَوَاتِهِمْ، حَتَّى نَبَذُوا كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُم لا يَعْلَمُونْ .

فَقَالَ: اعْرِضُوا هَذَا الكِتَابِ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ، فَإِنَّ تَابَعُوكُمْ عَلَيْهِ، فَاتْرُكُوهُمْ، وَإِنْ خَالَفُوكُم فَاقْتُلُوهُمْ . وَقَالَ: لا، بَلْ ابْعَثوا إِلى فُلانٍ ـ رَجُلٍ مِنْ عُلَمَائِهِمْ ـ فَإِنَّ تَابَعَكُم فَلَنْ يَخْتَلِفْ عَلَيْكُم بَعْدَهُ أَحَدٌ .

فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَدَعُوهُ، فَأَخَذَ وَرَقَةً فَكَتَبَ فِيها كِتَابَ اللهِ، ثُمَّ أَدْخَلَهَا فِي قَرْنٍ، ثُمَّ عَلَّقَهَا فِي عُنُقِهِ، ثُمَّ لَبسَ عَلَيْهَا الثِّيَابَ، ثُمَّ أَتَاهُمْ، فَعَرَضُوا عَلَيْهِ الكِتَابَ، فَقَالُوا: تؤْمِنُ بهَذَا ؟ فَأَشَارَ إِلى صَدْرِهِ ـ يَعْنِي الكِتَابَ الَّذِي فِي القَرْنِ ـ فَقَالَ: آمَنْتُ بِهَذا، وَمَالِي لا أُؤمِنُ بِهَذا ؟ فَخَلُّوا سَبِيلَهُ .

قَالَ: وَكَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَغْشَوْنَهُ فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاة أَتَـوهُ، فَلَمَّـا نَزَعُـوا ثِيَابَـه وَجَدُوا الْقَرْنَ فِي جَوْفِهِ الكِتَابَ، فَقَالُوا: أَلا تَرَوْنَ إلى قَوْلِهِ: آمَنْتُ بِهَذا، وَمَالِي لا أُؤمِنُ بِهَذا، فَإِنَّمَا عَنِيَ بـ (هَذَا) هَذَا الكِتَابَ الَّذِي فِي الْقَرْنِ . قَالَ فَاخْتَلَفَ بَنُـو إِسْرائِيلَ عَلى بَضْعٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةٍ، خَيْرُ مِلَلِهِم أَصْحَابُ أَبِي الْقَرْنِ) .

تخريج الحديث

قال الشيخ ناصر الدين الألباني في تخريج هذا الحديث في سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٤٣٦/٦ . ورقمه: ٢٦٩٤، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٣٩/٢/ ١ ـ ٢).وسنده صحيح بلا ريب، ولكن عندي وقفة في رفعه، لأنه ليس صريحاً فيه، ولكنه على كل حال في حكم المرفوع . والله أعلم.

وله شاهد مختصر جداً من رواية أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ : (إن بني إسرائيل كتبوا كتاباً فاتّبعوه، وتركوا التوراة) .

شرح الحديث

إن الحق الذي أنزله الله في كتبه عصمة للأمة التي أنزل فيها من الانحراف والضلال، ولكن النفوس المريضة تشرق بالحق، وتضيق به، فالذين أشربوا في قلوبهم الشر والفساد يريدون أن يضلوا عباد الله ضلالا بعيدا، ولذلك تراهم جاهدين في تحريف ذلك الكتاب، فإن لم ينجحوا في ذلك حرفوا معانيه في عقول العباد وقلوبهم .

وقد حدثنا الرسول ﷺ أن بني إسرائيل عندما ضعف الإيمان في قلوبهم، وكثر الفساد في مجتمعاتهم، وتسلط على رقابهم أهل الظلم والفساد أرادوا أن يبدلوا دين بني إسرائيل، ويغيروه ويحرفوه، فكتبوا كتابا وضعوا فيه النظريات والمبادئ المخالفة لما تضمنه كتابهم، وأرادوا حمل بني إسرائيل على اتباعه، وترك

الكتاب الذي أنزل إليهم ربهم.

ودعا بعض الزمرة المتنفذة فيهم إلى تنفيذ ضلالهم بالقوة، فمن وافقهم تركوه، ومن خالفهم ضربوا عنقه، وهكذا أصحاب الكفر والضلال ينفذون مبادئهم بحد السيف، كما فعلت الشيوعية بالدول التي حكمتها في هذا العصر، فقد أزهقت أرواح عشرات الملايين من البشر في سبيل تحقيقها.

ولم يرض أحد الدهاة إلزام بني إسرائيل بالقوة، وقد اقترح عليهم عرض هذا الكتاب على أحد علمائهم، ويبدو أنه كان متبوعا فيهم مطاعا، فإذا عرضوا عليه الكتاب ووافقهم على مرادهم فإن بني إسرائيل سيتابعونه، ويسيرون وراءه.

ويبدو أن ذلك العالم كان على علم بكيدهم ومكرهم، فلما دعوه إليهم احتاط لنفسه، فكتب الكتاب المنزل من عند الله، ووضعه في قرن، وربط القرن في عنقه، ولبس فوقه ثيابه، فلما عرضوا عليه كتابهم الذي اخترعوه، سألوه: تؤمن بهذا ؟ فأشار إلى صدره إلى موضع الكتاب الذي يحمله، وقال: آمنت بهذا، ومالي لا أومن بهذا، فظنوه يقصد كتابهم، ولم يدروا أنه يشير إلى الكتاب المعلق في عنقه على صدره.

وقد فعل مثل هذا النجاشي الذي آمن بالرسول ﷺ، فإنه كتب كتابا فيه معتقده الحق، وعلقه في صدره، فلما جاءه الثائرون من قومه عليه يزعمون أنه غيَّر دينه، وترك معتقده في عيسى، سألهم عن معتقدهم فيه، قال لهم: إن هذا هو دينه ومعتقده مشيرا إلى الكتاب المعلق في صدره.

وقد اكتشف تلامذته حقيقة موقفه عندما توفي وأرادوا غسله، فوجدوا ذلك الكتاب معلقا في صدره، وعلموا حقيقة معتقده، وأنه قصد هذا الكتاب عندما قال: آمنت بهذا، ومالي لا أؤمن بهذا.

وقد تفرق اليهود من بعده على بضع وسبعين شعبة، ويبدو أن هذا الرجل نجا عند الله بفعله هذا، وأن توريته هذه نفعته عند الله تبارك وتعالى.

وقد حاول بعض الذين ينسبون إلى الإسلام أن يضعوا كتبا يحرفون بها كتاب الله، أو يلزمون المسلمين باتباعها وترك القرآن، أو يضعوا مناهج وسبلا تكون بمثابة المعتقد والمنهج الذي يحرف مسار الإسلام وأهله، وقد ضل بسبب ذلك كله أعداد كثيرة من المسلمين، ولكن القرآن بقي محفوظا، لم يبدل كما بدلت الكتب السابقة، وبذا كان القرآن ولا يزال الصخرة الصلدة التي تتحطم عليها موجات الكفر والإلحاد على مر التاريخ .

عبر الحديث وفوائده

١ـ دل هذا الحديث على أن اليهود حرفوا كتابهم متعمدين، وأنهم كتبوا كتابا مخالفا لما في التوراة، وقد دل القرآن على هذا الذي دل عليه الحديث في أكثر من موضع .

٢ ـ يعمل أهل الباطل على إخراج الناس عن دينهم وإفسادهم، كي يطلقوا لأنفسهم العنان في العب من الشهوات وظلم الناس وفعل ما يحلو لهم فعله من غير رقيب .

٣ ـ يُعْذَرُ المسلم الذي يتخلص من الباطل بمثل ما تخلص به هذا العالم، وبمثل ما تخلص به النجاشي، وقد يعذره الله على فعله، وقد شهد ﷺ أن الفرقة التي تابعت هذا العالم خير فرق بني إسرائيل، ويبدو أن الله يعذر مثل هذا العالم بمثل هذا الفعل إذا كان كثر الفساد أو الشر بحيث لا يغني في مواجهته الصدام معه، فلو واجه هذا العالم الفئة المتنفذة لأطيح برأسه، ولو واجه النجاشي قومه لأطيح برأسه وملكه، ولا شك أن بقاء هذا العالم وذلك الحاكم ثابتين على معتقدهما فيه خير كثير، فالعالم كان له فرقة ثبتت على الحق، والنجاشي استخدم سلطانه في نصرة الإسلام والحفاظ على المسلمين .

٤ ـ اختلاف بني إسرائيل على بضع وسبعين شعبة .

القصة الثانية والأربعون

ماشطة ابنة فرعون

تمهيد

هذه قصة امرأة أحرقها فرعون الطاغية، وأحرق أولادها في آلة شبيهة بالأتون، ففاحت رائحة الأجساد المحترقة في كل مكان، فكان جزاؤها أن جعل لها ولأولادها روائح عبقة طيبة تفوح في السموات، وقد شمَّ رسول الله ﷺ تلك الروائح الطيبة عندما عرج به إلى السماء في ليلة الإسراء.

نص الحديث

روى أحمد في مسنده، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: (لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلادِهَا. قَالَ: قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ سَقَطَتِ الْمِدْرَى مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللهِ، فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: لا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ، قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْبَرَتْهُ، فَدَعَاهَا، فَقَالَ: يَا فُلانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ، فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلادُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَتَدْفِنَنَا، قَالَ: ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ.

قَالَ: فَأَمَرَ بِأَوْلادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا وَاحِدًا وَاحِدًا إِلَى أَنِ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى

صَبِيٌّ لَهَا مُرْضَع، وَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ: يَا أُمَّهْ، اقْتَحِمِي فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ فَاقْتَحَمَتْ).

قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ).

تخريج الحديث

رواه أحمد في مسنده عن ابن عباس . (٣٠٩/٣) طبعة المكتب الإسلامي .

(٣٠/٥) طبعة مؤسسة الرسالة . ورقمه فيها: (٢٨٢١ - ٢٨٢٣).

وحسن إسناده محققو مسند أحمد، وعزوه إلى الطبراني، وابن حبان .

وقال الهيثمي فيه بعد سياقه له: رواه أحمد والبزار، والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عطاء بن السائب، وهو ثقة، ولكنه اختلط . مجمع الزوائد: (٦٥/١) .

غريب الحديث

المدرى : أداة من الأدوات يسرح بها الشعر، وهي - كما يقول ابن الأثير - مصنوعة من الحديد أو الخشب على شكل سن من أسنان المشط، وأطول منه، يسرح به الشعر المتلبد، ويستعمله من لا مشط له[1] .

تقاعست: تأخرت .

بقرة : استبعد بعض أهل العلم أن يراد بالبقرة شيئا مصوغا على هيئة البقرة، ولعل المراد بها قدرا كبيرة واسعة سماها بقرة، مأخوذة من التبقر، أي التوسع، أو كان شيئا يسع بقرة تامة، ولا داعي لمثل هذا التأويلات،

---

(١) النهاية لابن الأثير: ١١٥/٢.

فالحديث صريح بأنها بقرة من نحاس، ولا داعي لتأويل الكلمة على غير ظاهر معناها من غير دليل يصار إليه .

شرح الحديث

هذه قصة امرأة علم الرسول ﷺ علمها عندما عرج به إلى السموات العلا في ليلة الإسراء، فقد تنسم الرسول ﷺ في عروجه نسمات طيبة هبت عليه، فسأل جبريل عن مصدرها، فأخبره أن هذه الرائحة الطيبة تنبعث من ماشطة ابنة فرعون ومن أولادها .

كانت هذه المرأة تعيش في قصر الملك، وكانت تعنى بابنته، فتمشط شعرها، وتقوم على أمرها، ومن كان هذا عمله لا بد أن يكون مكرما معززا مرفها، ولكن الإيمان غزا قلبها، وملك عليها أمرها، كما غزا قلب الملكة زوجة فرعون، فالإيمان يجد له طريقا إلى قلوب الأغنياء كما يجده إلى قلوب الفقراء، عندما يريد الله بعبده خيرا .

وقد كتمت هذه المرأة إيمانها كما كتمته زوجة فرعون، وكتمه مؤمن آل فرعون ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُۥٓ ﴾ [غافر :٢٨]، ولكن مهما حاول المرء أن يكتم ما يجري في أعماق نفسه، فلا بد أن تدل عليه تصرفاته، وسمته وحركاته، وأقواله، ففي بعض الأوقات يغفل الإنسان عن نفسه، فيتصرف على سجيته .

وقد حصل هذا لهذه المرأة الصالحة، فقد سقط منها المدرى عندما كانت تسرح لابنة فرعون شعرها، فقالت: بسم الله، وهي مقولة تجري على ألسنة المسلمين من غير قصد، يقولون بسم الله عندما تزل أقدامهم، أو يتعثر أحد أبنائهم، أو يسقط من يد أحدهم سكينه أو قلمه .

وعجبت ابنة فرعون لمقالتها، وكانت جاهلة مغترة بأبيها، تعتقد فيه ما ادعاه

زورا وكذبا من الألوهية والربوبية، فقالت لها مستفهمة: أبي؟ تقول لها: الذي سميت باسمه أبي؟ فأبت تلك المرأة المؤمنة أن تعترف لفرعون وتقر له بالألوهية الكاذبة التي يدعيها، وعزمت على أن تقف الموقف الذي يفرضه الإيمان على الرغم مما سيترتب عليه من النتائج التي قد تقضي عليها وعلى أولادها، ولذلك كانت صريحة في الإجابة، وهي صراحة مقرونة بالتحدي، فلم تكتف بالقول: إنه الله ربي، بل قالت: ربي ورب أبيك الله.

وعند ذلك قالت لها: أخبره بذلك ؟ تسألها إن كانت توافق إخبار الملك بإيمانها بالله، وخروجها عن ألوهية الملك، فقالت: نعم .

ولعل ابنة فرعون كانت تريد من وراء ذلك السؤال أن تجثو هذه المرأة على ركبتيها تتوسل إليها كي لا تخبر الملك بخبرها، كي لا يقضي عليها، ولا على أولادها، ومن الناس من يتنعم بتذلل الناس وخضوعهم لهم .

أو لعلها كانت تريد أن تبقي سرها محفوظا عندها كي تساعدها على تحقيق رغباتها وأغراضها، ففي قصور مثل هذا الطاغوت تتعدد مراكز القوى، وكل يسعى لتحقيق مصالحه ورغباته، ويحتاج هؤلاء إلى الأعوان من الرجال والنساء الذين يتجسسون لصالحهم، ويقومون بتنفيذ مخططاتهم، يدلك على صحة ذلك أنها لم تبادر لإخبار أبيها بما قالته، ولكنها سألتها عن ذلك، ولا بدَّ أن سؤالها إياها يدل على أن لها مأربا من وراء سؤالها .

ولكن المرأة الصالحة حسمت الأمر، فلم تتوسل، ولم تطلب من ابنة الملك كتمان أمرها، ووافقت على إخباره بحالها، ويبدو أنها تعبت من كتمانها إيمانها، فالذي يكتم إيمانه يجد عناء شديدا، فهو يكتم صلاته وصيامه ودعاءه، وإذا ما وقع منه ما يكاد يشي به، يجد عنتا في تبرير ما وقع منه من تصرفات وأقوال وأفعال .

وقد يصل الحال بأمثال هؤلاء إلى التصريح بإيمانهم عمدا، وقد يفرحون إذا اكتشف أمرهم، وتبين حالهم، على الرغم من النتائج الأليمة التي تعقب ذلك .

ولو طلبت منها عدم إخبار أبيها، فإنها ستبقى أسيرة لها، وستبقى تهددها وتتوعدها بإخباره فتعيش في رعب دائم .

وأخبرت الفتاة المغرورة أباها الجبار الطاغية بما كان من شأن ماشطتها، فدعاها واستعلم منها، فصدقته القول، وأن الله هو ربها وربه .

وهذا الموقف الذي وقفته هذه المرأة يمثل إنموذجا يحدث دائما وأبدا، ولكنه فريد، إنه الأنموذج الذي يمثل استعلاء الإيمان أمام الكفر والطغيان، الإيمان المجرد من السلاح والقوى البشرية، يظهره المرء على الرغم من تبعاته الجسام، والمعاناة التي سيعانيها صاحبه، ولكنه يطمع من وراء ذلك أن ينال حياة كريمة عند الله في جنات النعيم .

فما كان من ذلك الطاغية إلا أن استعمل وسيلة من الوسائل التي كان قد أعدها لمن يخرجون عن ألوهيته وربوبيته، فقد جاء بأداة مصنوعة على شكل بقرة، فأشعلت تحتها النار حتى حميت، ثم أمر أن تلقى وأولادها في جوف تلك البقرة النحاسية، بعد أن أصبحت فرنا ذا حرارة شديدة هائلة .

فطلبت منه طلبا، وطلبها لم يكن تذللا ولا خضوعا، ولا رجاء ولا استعطافا، لقد كان الطاغية يظن أن هذا النوع من العذاب يمكن أن يردها عن دينها، أو لعله كان يظن أن هذه المرأة الرقيقة قد تتوسل إليه وترجوه ليصفح عنها، أو لعلها ترجوه لأولادها، فقد تقول له: ما شأن أولادي، أنا المجرمة في نظرك دونهم، ولكنها لم تفعل شيئا من ذلك، وكل الذي طلبته أن يجمع بقاياها المحترقة وبقايا أولادها في ثوب، ثم تدفن بقايا الأجساد المحترقة، وقد وعدها بتحقيق مطلبها .

وقد يظن بعض الناس أن هذه المرأة قد أساءت لأولادها عندما أوقعتهم في هذا البلاء العظيم الذي حل بهم، ولكن لهذه المرأة وأمثالها منطق آخر، فهي تعتقد أن هذا الذي فعل بهم فيه خير عظيم لهم عند ربهم عندما يقدمون عليه، وكذلك كان .

أمر الطاغية برمي أولادها في جوف ذلك الأتون المشتعل واحدا في إثر واحد قبل أن يقذف بها فيه، ولعله أراد بذلك أن ترجع عن دينها، وهي ترى كيف تفعل النار بهم قبلها، ولعله أراد أن يزيد في عذابها برؤيتها أولادها يحترقون بين يديها، والمرأة رقيقة في طبعها، ولذا تؤذيها رؤية المناظر البشعة كالإحراق بالنار وسفك الدماء، ويزيد من ألمها أن يكون الذين يعذبون ويقتلون هم أولادها، فالأم في هذه الحال يتصدع قلبها، وتنفطر مرارتها، ولكن هذا الموقف الذي وقفته، وهذا الصبر والتجلد الذي تحلت به يدل على ذلك المستوى الإيماني الذي بلغته تلك المرأة، ولذا لم يكن عجبا أن يفوح عطرها وعطر أولادها وشذاهم هناك في السموات، وأن يجده الرسول ﷺ، ويلفت نظره في رحلته إلى السموات العلا، وأن يعلم خبرها في تلك الرحلة، إنها عظيمة عند الله، فبمقدار هوانها على فرعون وجنده عظمت عند الله وملائكته.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن تلك المرأة رق قلبها وتألمت ألما شديدا عندما جيء بابنها الرضيع ليقذف به في النار، وأكثر ما تكون المرأة شفقة ورقة عندما يصاب ابنها الرضيع بما يؤذيه في هذا السن، فكأنها تقاعست وفكرت بالنكوص، فثبتها الله بابنها، فأنطقه الله آية لها، ليزيد إيمانها، ويدلل لها على صدق موقفها، فقال لها: ـ وليس من شأن الأطفال أن يتكلموا ـ يا أمه، اقتحمي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة.

لم يطلب منها أن لا تحزن عليه، أو تفكر فيه، وإنما خاطبها في أمر نفسها، وطلب منها أن تصبر على ما أريد بها، فعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، هذا هو العزاء الكبير الذي يعزي من يواجهون الموت والقتل في سبيل الله، ولذا فإنها ــ عندما سمعت كلام وليدها ــ لم تنتظر منهم أن يقذفوها في النار، بل اقتحمت بنفسها النار، وألقت بها في ذلك الأتون المستعر.

ولا شك أن رائحة جسدها المحترق وأجساد أولادها كانت تفوح، شأنها شأن اللحم عندما يوضع في الفرن فيشيط ويحترق، ولذلك كان من إكرام الله لها

أن جعل لها عطرا مميزا يفوح في السموات، لقد ربحت تلك المرأة، وخسر فرعون، لقد ماتت كما مات فرعون، وذهب كل منهما إلى ربه، فرعون وزبانيته في البرزخ يعرضون على النار غدوا وعشيا، وفي يوم القيامة يقدم قومه فيوردهم النار، وهذه وأولادها يتنعمون في الدرجات العلا، ويوم القيامة يدخلهم ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار .

عبر الحديث وفوائده

١ ـ بيان ما يفعله الإيمان بالنفوس، ففي سبيل الله يستروح المؤمنون العذاب، ويواجهون الطغاة، ولا ينفع في مواجهة المؤمن أشد ألوان الظلم وأقسى أنواع التعذيب .

٢ ـ فيه ذكر بعض ما وقع للرسول ﷺ في معراجه إلى السماء ليلة الإسراء، فقد شم عطر هذه المرأة، وأخبره جبريل بقصتها .

٣ ـ إكرام الله لأوليائه الذين بذلوا نفوسهم رخيصة في سبيله، فقد أعلى الله مقام هذه المرأة، وأكرمها إكراما عظيما، هي وأولادها .

٤ ـ عظم كراهية الكفرة أمثال فرعون للمؤمنين، وخلو قلوبهم من الرحمة عندما يواجهون المؤمنين، فقد يسفكون دماءهم، وقد يحرقونهم، غير مفرقين بين البالغين والأطفال الرضع .

٥ ـ لم تكن تلك المرأة منتحرة عندما اقتحمت النار، فقد أرادت أن تغم فرعون وزبانيته، فبدل أن ترضي غرورهم بتمنعها وصياحها ورفضها الإلقاء في النار، اقتحمتها بنفسها، غير هيابة ولا وجلة، فزاد ذلك في غيظهم وقهرهم، وأبانت لهم حقارة أنفسهم، ففي الدنيا من لا يقبل المذلة، ويأبى أن يطأطىء رأسه للظلم والظالمين، وقد يظن بعض الذين ينسبون إلى العلم أن هذا الذي فعلته هذه المرأة انتحار، وهؤلاء بحاجة أن يعرفوا الفرق بين الانتحار وما

فعلته هذه المرأة .

٦ ـ التعرف إلى بعض وسائل التعذيب التي كانت تستخدم في العصور القديمة، منها هذه الآلة المصنوعة على شكل بقرة، يقذف بمن يراد هلاكهم فيها بعد أن تشعل تحتها النار .

٧ـ فيه إخبار ببعض الذين تكلموا في المهد، سبق ذكر ثلاثة منهم في حديث جريج، وهم عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، والطفل الذي حاور أمه رافضاً ما دعت الله به، وذكر هذا الحديث اثنين آخرين هما: شاهد يوسف، وابن مشاطة فرعون، وذكر حديث قصة الأخدود سادساً، وهو الطفل الذي حض أمه على الاقتحام في النار التي أوقدها الطاغية لأصحاب الأخدود .

٨ـ حرص المسلم على رفاته من بعده، فقد طلبت هذه المرأة من فرعون أن يدفن بقاياها وبقايا أولادها من بعدها .

٩ ـ يجوز للمسلم أن يطلب من الطغاة أمرا له فيه صلاح، كما طلبت هذه المرأة من الطاغية دفن رمادها ورماد أولادها .

١٠ ـ الجزاء من جنس العمل، فهذه المرأة لما انبعثت روائح احتراق جسدها وأجساد أولادها، جعل الله لها رائحة طيبة عطرة تفوح منها ومن أولادها في السموات العلا .

١١ ـ تثبيت الله عباده الذين شاء لهم الكرامة في المواقف الصعبة، فقد أنطق الله الطفل الرضيع، فأمر أمه بالثبات، وبذلك قطع ما دار في خلدها من وساوس الشيطان التي كادت تهلكها .

القصة الثالثة والأربعون

الملك الذي فر من الحكم

تمهيد

هذه قصة أحد ملوك بني إسرائيل، اختاره قومه لتولي الحكم والسلطان، فدفعته مخافة الله أن يفر من قومه، تاركا لهم كرسي الحكم، مؤثرا عليه عبادة الله في ديار لا يُعْرَفُ فيها، ينال قوته من عمل يده .

نص الحديث

روى أحمد عَن عبدالله بن مسعود، عن النبي ﷺ ، قال: « إنَّ بني إسْرائِيلَ اسْتَخْلَفُوا خليفَةً عَلَيْهِمْ بَعْدَ مُوسَى ﷺ فَقَامَ يُصَلِّي لَيْلةً فوْقَ بيْت المَقْدسِ فِي القمر، فَذَكَرَ أُمُوراً كَانَ صَنَعَهَا، فَتَدَلَّى بِسَبَبٍ، فأصْبَحَ السبب مُعَلَّقاً فِي الْمَسْجِد، وَقَدْ ذَهَبَ .

قال: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قَوْماً عَلَى شَطِّ البَحْرِ، فَوَجَدَهُمْ يَضْرِبون لَبِنًا، أَوْ يَصْنَعُون لِبْنًا، فَسَأَلَهُمْ: كَيْف تَأْخُذُونَ عَلَى هَذَا اللَّبِن؟ قَالَ: فَأَخْبروهُ، فَلَبَّنَ مَعَهمْ، فكَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِه، فإذا كان حَينَ الصَّلاةِ قَامَ يُصَلِّي، فرفَعَ ذَلكَ العُمَّالُ إلى دَهْقَانهِمْ ؛ أنَّ فِينا رَجُلاً يَفْعَلُ كَذا وَكَذا، فَأَرسَلَ إِلَيْه فأبَى أَنْ يأتيه، ثلاثَ مَرّاتٍ ، ثُمّ إنَّهُ جاء يَسيرُ عَلَى دَابَّتِهِ.

فَلَمَّا رَآهُ فَرَّ، فَاتَّبعهُ فَسبَقَهُ، فَقَالَ: انظُرْنِي أُكَلِّمْكَ، قالَ: فَقَامَ حَتَّى كَلَّمَهُ، فأخبَرهُ خبَره، فلَمّا أَخبَرَهُ أنّه كَانَ مِلِكاً، وأنّه فَرَّ مِنَ رهبة رَبِّهِ، قَالَ إنِي لأظُنُّنِي لاحقٌ بِكَ، قَالَ: فَاتَّبعهُ، فَعَبَدا اللهَ ، حَتَّى مَاتَا بِرُمَيْلَةِ مِصْرَ ، قَالَ عَبْدُاللهِ لَوْ أَنّي

كُنْتُ ثُمَّ لاهْتَدَيتُ إلِى قبرِهِماَ بِصِفَةِ رِسُولِ اللهِ ﷺ التِي وَصَفَ لنا ».

وجاء في رواية في مسند الإمام أحمد : (بَيْنَمَا رَجُلٌ فِيمَنْ كَـانَ قَبْلَكُـمْ كَـانَ فِي مَمْلَكَتِهِ.

فَتَفكَّرَ فَعَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مُنقَطِعٌ عَنْهُ، وَأَنَّ مَا هُوَ فِيهِ قَدْ شَـغَلَهُ عَـنْ عِبَـادَةِ رَبِّـهِ، فَتسرَّبَ فَانْسَابَ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ قَصْرِهِ، فَأَصْبَحَ فِي مَمْلَكَـةِ غَـيْرِهِ، وَأَتَـى سَـاحِلَ الْبَحْرِ، وَكَانَ بِهِ يَضْرِبُ اللَّبِنَ بِالأَجْرِ فَيَأْكُلُ وَيَتصَدَّقُ بِالْفَضْلِ، فَلَمْ يَـزَلْ كَذَلِـكَ حَتَّى رَقِيَ أَمْرُهُ إِلَى مَلِكِهِمْ وَعِبَادَتُهُ وَفَضْلُهُ.

فَأَرْسَلَ مَلِكُهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُ، فَأَعَادَ ثُمَّ أَعَادَ إِلَيْهِ فَـأَبَى أَنْ يَأْتِيَـهُ وَقَالَ: مَا لَهُ وَمَا لِي، قَالَ: فَرَكِبَ الْمَلِكُ، فَلَمَّا رَآهُ الرَّجُلُ وَلَّى هَارِبًـا، فَلَمَّـا رَأَى ذَلِكَ الْمَلِكُ رَكَضَ فِي أَثَرِهِ فَلَمْ يُدْرِكْهُ.

قَالَ: فَنَادَاهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ مِنِّي بَأْسٌ، فَأَقَامَ حَتَّى أَدْرَكَـهُ، فَقَـالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ رَحِمَكَ اللَّهُ، قَالَ: أَنَـا فُـلانُ بْـنُ فُـلانٍ صَـاحِبُ مُلْـكِ كَـذَا وَكَـذَا، تَفَكَّرْتُ فِي أَمْرِي، فَعَلِمْتُ أَنَّ مَا أَنَا فِيهِ مُنْقَطِعٌ، فَإِنَّهُ قَدْ شَغَلَنِي عَنْ عِبَـادَةِ رَبِّـي، فَتَرَكْتُهُ وَجِئْتُ هَاهُنَا أَعْبُدُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ .

فَقَالَ: مَا أَنْتَ بِأَحْوَجَ إِلَى مَا صَنَعْتَ مِنِّي، قَالَ: ثُمَّ نَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ فَسَيَّبَهَا، ثُمَّ تَبِعَهُ، فَكَانَا جَمِيعًا يَعْبُدَانِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَدَعَوَا اللَّهَ أَنْ يُمِيتَهُمَا جَمِيعًا).

قَالَ: فَمَاتَا، قَالَ: لَوْ كُنْتُ بِرُمَيْلَةِ مِصْرَ لأَرَيْتُكُمْ قُبُورَهُمَا بِالنَّعْتِ الَّذِي نَعَـتَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ».

تخريج الحديث

قال الشيخ ناصر الدين الألباني في تخريجه في سلسـلة الأحـاديث الصحيحـة: ٨٠٥/٦ . حديث رقم: ٢٨٣٣، أخرجـه البزار في مسـنده (٣٦٨٩/٢٦٧/٤) وأحمد (٤٥١/١)، وأبو يعلى (٥٣٨٣/٢٦١/٩) .

أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٠/٢١٦/١٠٣٧٠)، والأوسط أيضاً: (١١٢/٢) (٦٧٤٣/١) .

وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد: (٢١٩/١٠) إلى البزار والطبراني في «الأوسط » و « الكبير »، وقال: إسناده حسن .

وقصر السيوطي في « الجامع الكبير » (٦٤٠٤) فعزاه للطبراني فقط في «المعجم الكبير » .

غريب الحديث

فتدلى بسبب: السبب هنا الحبل .

لبَّن معهم: اشتغل بصناعة اللبن معهم .

دهقانهم: ورد في بعض الروايات أن الذي طلبه هو الملك، وورد أنه الدهقان، ولا خلاف بين الحديثين فهو دهقان القرية وملكها، والدهقان كما جاء في لسان العرب، بكسر الدال المشددة وضمها: التاجر، فارسي معرب، وفي المعجم الوسيط: هو رئيس القرية، ورئيس الإقليم، والقوي على التصرف مع شدة الخبرة، ومن له مال أو عقار، والتاجر [1] .

رميلة: الرميلة تصغير رملة، والرملة إحدى مدن فلسطين، قريبة من بيت المقدس، وقد رجعت إلى معجم البلدان فلم أجده يذكر أن في مصر مدينة تدعى الرميلة، وذكر أن هناك ثلاث مواضع تدعى بالرميلة، وهي مدينة الرملة التي في فلسطين، وموضع بين البصرة ومكة، وقرية بالبحرين[2] .

ولعل المراد بالرميلة منطقة ذات رمل على شاطئ البحر في مصر، أو أنها قرية ليست بذات أهمية تدعى بهذا الاسم .

---

(١) لسان العرب: ١٠٢٥/١. المعجم الوسيط: ٣٠٠/١.
(٢) معجم البلدان: ٧٣/٣ .

شرح الحديث

هذه قصة رجل صالح من بني إسرائيل اختاره قومه ملكا عليهم، ولكنه خشي من عواقب الملك وغوائله، ففر من بلده، وهرب إلى مكان ناء بعيد لا يعرفه فيه أحد، فكان يأكل من كد يده، ويعبد ربه.

وقد ذكر لنا الرسول ﷺ أن هذا الرجل كان يعبد الله على ظهر المسجد الأقصى في القدس، ولا ندري لم اختار المسجد الأقصى موضعا لإقامته، أكان هذا مقاما مؤقتا، بحيث أنه كان يخلو إلى عبادته في بعض الليالي، أم أنه اشترط على قومه أن يكون مقامه في مسكن فوق المسجد، لا ندري حقيقة الأمر، ولكن مقامه فوق المسجد قائما يصلي يدل على ما كان يتصف به من صلاح وتقى.

ويذكر لنا الرسول ﷺ أن هذا الملك تفكر في حاله في إحدى الليالي عندما كان يعبد الله فوق ظهر المسجد الأقصى، كان في تلك الليلة يصلي في سكون الليل وهدوئه والقمر يرسل أشعته على المدينة المقدسة، ففكر الرجل في حاله، والمهام التي أنيطت به، وتفكر في مصيره عندما يسأله ربه عن أيام حكمه، ومدى التزامه بشرعه، ونظر في تصرفاته في أثناء توليه السلطة، فلم يحمد مساره، ويبدو أنه كان في حالة روحانية عالية، بفعل إيمانه ويقينه، وتعبده في ذلك المكان المقدس في الليل الهادئ الساكن.

وهداه تفكره إلى الفرار بنفسه، وترك الحكم والسلطان والذهاب في أرض الله الواسعة، يبحث عن مكان لا يعرفه فيه أحد يعبد الله فيه، بعيدا عن المسؤوليات الجسام التي يلقيها الحكم على كاهله، وبعيدا عن مغريات الملك ومفاتنه.

إن مثل هذا القرار ليس سهلا، فالقعود على كرسي الحكم، وتولي قيادة الناس، والإمساك بزمام الأمور له في النفس متعة كبيرة، فالملك أو الحاكم تنقاد له الدنيا، ويتصرف في أمور العباد، ويطيعه قومه، ويتقلب في النعيم، ويتصرف في

الأموال العظيمة، ولذا فلا يمكن لمثل هذا الرجل أن يترك الحكم إن لم يكن الدافع الذي يجده في نفسه عظيما، بحيث يفوق الدافع الذي يجده الملوك في أنفسهم للتمسك بالحكم، لقد امتلأ قلب هذا الرجل من مخافة الله، وخشي إن هو استمر في تولي الملك أن يوبقه عمله، ويغضب ربه عليه، فسهل عليه ترك الملك، والتولي عنه.

وخاف إن أخبر قومه بما عزم عليه أن لا يساعدوه على مقصده، وأن يلزموه بخلاف ما يرغب فيه، ولذا عزم على الهرب من ليلته تلك، ويبدو أن المسجد كان مغلق الأبواب، فلم يستطع الخروج من الأبواب التي يخرج منها، وهذا أمر طبيعي، فما كان لجنده وحاشيته أن يتركوه في مكان أبوابه مشرعة، ولعله قد خشي إن هو استدعى الجند لفتح الأبواب أن يمنعه الحرس من السير وحده، فعادة الحراس والأعوان أن يحيطوا بالملك عند خروجه، ولا يفارقونه خوفا على حياته، ويزداد تحفظهم عليه إذا كان خروجه في ظلمة الليل، فإذا ألزم الحاكم حرسه وأعوانه بعدم اتباعه، فإن عادتهم أنه يتبعوه من بعيد، من حيث لا يدري ولا يعلم.

فوجد خير سبيل للخلاص أن يخرج من قومه خفية، بحيث لا يشعرون بخروجه، وتذكر بعض روايات الحديث أن هذا الملك وجد في المكان الذي هو فيه حبلا، فربطه ربطا محكما، ثم أخذ بالحبل وتدلى من على ظهر المسجد حتى وصل الأرض، حيث أمكنه الخروج والمسير في أرض الله الواسعة.

وانتهى به مساره إلى شاطئ البحر، فوجد قوما يعملون في صناعة اللبن، فانضم إليهم، يعمل كما يعملون، ويأخذ الأجر الذي يأخذون، ويأكل من عمل يده، فإذا جاء وقت الصلاة، ترك العمل وشرع في الصلاة.

لقد كان هذا العامل الجديد الذي انضم إلى العمال نموذجا فريدا، فهو جاد في عمله، متدين محافظ على فرائض الله، ولعلهم قد أدركوا من خلال سمته، وكلامه، وأعماله ما يتحلى به من الفضائل والأخلاق، فذكروه لملكهم أو رئيس قريتهم، وكانت قريبة منهم، ويبدو أن هذا الرئيس كان صالحا يحب الصالحين،

فأحب أن يتعرف إلى هذا الرجل الصالح الذي نـزل قريته وطلـب مـن عمالـه أن يدعوه إليه، فأبى أن يسير إليه، فما أخرجه من قومه إلا نفوره من الملـك ومفـاتن الملك .

تكررت دعوة رئيس القرية له، وتكرر رفضه، فما كان من دهقان القرية إلا أن ركب دابته، وانطلق إليه في موضع عمله، فلما رآه مقبلا عليهـم أسـلم سـاقيه للريح، وانطلق في سباق معه، ذاك يركب دابته القوية الفارهة، وهذا على قدميـه، ويبدو أنه كان جلدا قويا على الرغم من أنه كان ملكا، يدلك علـى ذلـك قدرتـه على التدلي من المكان العالي الذي كان فيه بوساطة الحبـل، وهـذا لا يستطيعه إلا الرجال الأشداء، ويدلك على جلده وقوته احتماله العمـل في صناعـة اللـبن، فهـو يحتاج إلى جهد وصبر، ولذلك فإنه استطاع أن يسبق الدهقان الراكب على دابته، ويفر منه، ولم يستطع ذلك الرجل اللحاق به .

هنا لم يجد الدهقان سبيلا للحديث معه إلا أن يناديه ويناشده أن يكلمـه ولا بد أنه تعهد له بعدم الإساءة إليه، فوقف وحادثه، وأخبره خبره، وأنـه كـان ملكـا على قومه ففر منهم، فقد أخرجته مخافة الله عن الاستمرار في تولي مقاليد الحكم .

وقد وافق حاله حال الدهقان، فيبدو أنه كان مـن طينتـه، وأنـه كـان يحـدث نفسه بمثل ما أخذ به هذا الرجل نفسه، ولذا فإنه ترك مـا هـو فيـه، وانضـم إليـه، ورحـلا عـن تلـك القريـة، وسـارا متصـاحبين متـآخيين، يعبـدان الله في أرض الله الواسعة، وبقيا كذلك إلى أن ماتا في ديار نائية بعيدة في مصـر،، وأخبرنـا رسـولنا ﷺ أنهما دعوا الله ربهما أن يميتهما معاً، والذي يظهر أن الله استجاب دعاءهما.

وقد عـرف الصحـابي راوي الحديـث موضـع قبريهمـا بصفـات وعلامـات وصف بها رسول الله ﷺ قبريهما في رميلة مصر .

قد يقال: أو لم يكن أفضل لهذين الرجلين أن يبقيا فيما كانا فيـه، ويستخدما سلطانهما في إصلاح الرعية، ومحاربة المنكـرات، وإقـرار الخـيرات، وتنفيـذ شـرع الله؟

والجواب: أن هذا يختلف باختلاف الأحوال، فبعض الناس لا يقوى على أمور الحكم، فيجد أنه لا يستطيع أن يسير على منهج سواء إن كان حاكما، وقد يغريه الحكم بالفساد، وقد يكون قادرا على سياسة أمور الناس، ولكن يمنعه من ذلك معوقات لا يستطيع تجاوزها، كأن يكون الشر والفساد مستشريا في البلاد التي يحكمها، فإن أرادهم على الاستقامة فربما ثاروا وأخذتهم العزة بالإثم.

أما إذا كان الحاكم قادرا على تسيير أمور الحكم، ومحاربة الشر، وإقرار الخير، فإن استمراره في سدة الحكم أكثر أجرا وثوابا من انقطاعه للعبادة.

ويبدو أن هذين الرجلين كانا من الصنف الأول.

عبر الحديث وفوائده

١ ـ من عباد الله من يؤثر عبادة الرحمن على الحكم والسلطان، وهؤلاء نماذج تخالف مألوف الناس، يعجب الناس من أمرهم في كل الديار والعصور.

٢ ـ وجود نماذج راقية في بني إسرائيل قديما، فقد كان فيهم الصالحون الأخيار.

٣ ـ مشروعية صلاة الليل في شريعة بني إسرائيل.

٤ ـ كان لبني إسرائيل خلفاء يسوسونهم، من غير الأنبياء.

٥ ـ التعرف على بعض الصناعات التي كانت موجودة في تلك الأيام، فقد كان يوجد منها صناعة الحبال، وصناعة اللبن.

٦ ـ مشروعية الإجارة، فالعمال الذين يضربون اللبن، كانوا يضربونه بالأجر، وقد عمل معهم ذلك الرجل الهارب من الملك بأجره.

القصة الرابعة والأربعون

أصحاب الأخدود

تمهيد

قص الله علينا في كتابه طرفا من قصة أصحاب الأخدود، وجاء في الحديث النبوي مزيد توضيح وبيان لهذه القصة، وهي قصة تروي كيف تستعلي العصبة المؤمنة بإيمانها على متع الحياة وملذاتها، وتختار النار على الكفر بالله، وتروي لنا كيف استطاع غلام صغير أن يحيي الإيمان في قلوب أمة، وأن يزلزل عرش ملك طاغية جبار، يدعي الألوهية.

نص الحديث

روى مسلم في صحيحه عَنْ صُهَيْبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلامًا يُعَلِّمُهُ.

فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ، وَسَمِعَ كَلامَهُ، فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ، وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ.

فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ.

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ

أَعِلْمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ، أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ ؟

فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ، فَلا تَدُلَّ عَلَيَّ.

وَكَانَ الْغُلامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ، دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللَّهِ، فَشَفَاهُ اللَّهُ.

فَأَتَى الْمَلِكَ، فَجَلَسَ إِلَيْهِ، كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟

قَالَ رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلامِ، فَجِيءَ بِالْغُلامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ؟ فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ.

فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ، فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ .

ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلامِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ، فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ.

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ، فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ، فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ .

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ.

قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي .

فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلامِ، ثُمَّ رَمَاهُ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ، فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ .

فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ، وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ، فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ، وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلامُ: يَا أُمَّهِ، اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ).

وفِي سنن الترمذي عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (كَانَ مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ، وَكَانَ لِذَلِكَ الْمَلِكِ كَاهِنٌ يَكْهَنُ لَهُ، فَقَالَ الْكَاهِنُ: انْظُرُوا لِي غُلامًا فَهِمًا، أَوْ قَالَ فَطِنًا لَقِنًا، فَأُعَلِّمَهُ عِلْمِي هَذَا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ أَمُوتَ، فَيَنْقَطِعَ مِنْكُمْ هَذَا الْعِلْمُ، وَلا يَكُونَ فِيكُمْ مَنْ يَعْلَمُهُ.

قَالَ فَنَظَرُوا لَهُ عَلَى مَا وَصَفَ، فَأَمَرُوهُ أَنْ يَحْضُرَ ذَلِكَ الْكَاهِنَ، وَأَنْ يَخْتَلِفَ

إِلَيْهِ، فَجَعَلَ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ، وَكَانَ عَلَى طَرِيقِ الْغُلامِ رَاهِبٌ فِي صَوْمَعَةٍ).

قَالَ مَعْمَرٌ: أَحْسِبُ أَنَّ أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ كَانُوا يَوْمَئِذٍ مُسْلِمِينَ.

قَالَ: (فَجَعَلَ الْغُلامُ يَسْأَلُ ذَلِكَ الرَّاهِبَ كُلَّمَا مَرَّ بِهِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى أَخْبَرَهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَعْبُدُ اللهَ قَالَ: فَجَعَلَ الْغُلامُ يَمْكُثُ عِنْدَ الرَّاهِبِ، وَيُبْطِئُ عَنِ الْكَاهِنِ، فَأَرْسَلَ الْكَاهِنُ إِلَى أَهْلِ الْغُلامِ، إِنَّهُ لا يَكَادُ يَحْضُرُنِي، فَأَخْبَرَ الْغُلامُ الرَّاهِبَ بِذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: إِذَا قَالَ لَكَ الْكَاهِنُ: أَيْنَ كُنْتَ؟ فَقُلْ عِنْدَ أَهْلِي، وَإِذَا قَالَ لَكَ أَهْلُكَ: أَيْنَ كُنْتَ؟ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّكَ كُنْتَ عِنْدَ الْكَاهِنِ.

قَالَ فَبَيْنَمَا الْغُلامُ عَلَى ذَلِكَ إِذْ مَرَّ بِجَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ كَثِيرٍ قَدْ حَبَسَتْهُمْ دَابَّةٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ تِلْكَ الدَّابَّةَ كَانَتْ أَسَدًا، قَالَ: فَأَخَذَ الْغُلامُ حَجَرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ الرَّاهِبُ حَقًّا، فَأَسْأَلُكَ أَنْ أَقْتُلَهَا. قَالَ: ثُمَّ رَمَى، فَقَتَلَ الدَّابَّةَ. فَقَالَ النَّاسُ: مَنْ قَتَلَهَا؟ قَالُوا: الْغُلامُ، فَفَزِعَ النَّاسُ، وَقَالُوا: لَقَدْ عَلِمَ هَذَا الْغُلامُ عِلْمًا لَمْ يَعْلَمْهُ أَحَدٌ.

قَالَ: فَسَمِعَ بِهِ أَعْمَى، فَقَالَ لَهُ: إِنْ أَنْتَ رَدَدْتَ بَصَرِي فَلَكَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ لَهُ: لا أُرِيدُ مِنْكَ هَذَا، وَلَكِنْ أَرَأَيْتَ إِنْ رَجَعَ إِلَيْكَ بَصَرُكَ أَتُؤْمِنُ بِالَّذِي رَدَّهُ عَلَيْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ فَدَعَا اللهَ فَرَدَّ عَلَيْهِ بَصَرَهُ فَآمَنَ الأَعْمَى.

فَبَلَغَ الْمَلِكَ أَمْرُهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ، فَأُتِيَ بِهِمْ، فَقَالَ: لأَقْتُلَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ قِتْلَةً لا أَقْتُلُ بِهَا صَاحِبَهُ، فَأَمَرَ بِالرَّاهِبِ وَالرَّجُلِ الَّذِي كَانَ أَعْمَى، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ عَلَى مَفْرِقِ أَحَدِهِمَا فَقَتَلَهُ، وَقَتَلَ الآخَرَ بِقِتْلَةٍ أُخْرَى، ثُمَّ أَمَرَ بِالْغُلامِ، فَقَالَ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَأَلْقُوهُ مِنْ رَأْسِهِ، فَانْطَلَقُوا بِهِ إِلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ؛ فَلَمَّا انْتَهَوْا بِهِ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ الَّذِي أَرَادُوا أَنْ يُلْقُوهُ مِنْهُ جَعَلُوا يَتَهَافَتُونَ مِنْ ذَلِكَ الْجَبَلِ، وَيَتَرَدَّوْنَ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلا الْغُلامُ.

قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ، فَأَمَرَ بِهِ الْمَلِكُ أَنْ يَنْطَلِقُوا بِهِ إِلَى الْبَحْرِ، فَيُلْقُونَهُ فِيهِ، فَانْطُلِقَ بِهِ إِلَى الْبَحْرِ، فَغَرَّقَ اللهُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ، وَأَنْجَاهُ.

فَقَالَ الْغُلامُ لِلْمَلِكِ إِنَّكَ لا تَقْتُلُنِي، حَتَّى تَصْلُبَنِي وَتَرْمِيَنِي، وَتَقُولَ إِذَا رَمَيْتَنِي: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ هَذَا الْغُلامِ. قَالَ: فَأَمَرَ بِهِ، فَصُلِبَ، ثُمَّ رَمَاهُ، فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ هَذَا الْغُلامِ. قَالَ: فَوَضَعَ الْغُلامُ يَدَهُ عَلَى صُدْغِهِ حِينَ رُمِيَ، ثُمَّ مَاتَ.

فَقَالَ أُنَاسٌ: لَقَدْ عَلِمَ هَذَا الْغُلامُ عِلْمًا مَا عَلِمَهُ أَحَدٌ، فَإِنَّا نُؤْمِنُ بِرَبِّ هَذَا الْغُلامِ.

قَالَ: فَقِيلَ لِلْمَلِكِ: أَجَزِعْتَ أَنْ خَالَفَكَ ثَلاثَةٌ، فَهَذَا الْعَالَمُ كُلُّهُمْ قَدْ خَالَفُوكَ، قَالَ فَخَدَّ أُخْدُودًا، ثُمَّ أَلْقَى فِيهَا الْحَطَبَ وَالنَّارَ، ثُمَّ جَمَعَ النَّاسَ، فَقَالَ مَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ تَرَكْنَاهُ، وَمَنْ لَمْ يَرْجِعْ أَلْقَيْنَاهُ فِي هَذِهِ النَّارِ، فَجَعَلَ يُلْقِيهِمْ فِي تِلْكَ الأُخْدُودِ .

قَالَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ [البروج: ٤] حَتَّى بَلَغَ ﴿ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [الأخدود: ٨]، قَالَ: فَأَمَّا الْغُلامُ فَإِنَّهُ دُفِنَ). فَيُذْكَرُ أَنَّهُ أُخْرِجَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَأُصْبُعُهُ عَلَى صُدْغِهِ كَمَا وَضَعَهَا حِينَ قُتِلَ.

قَالَ أَبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود. (٢٢٩٩/٤) ورقمه: ٣٠٠٥.

ورواه الترمذي في سننه في كتاب التفسير، تفسير سورة البروج: ٤٣٧/٤.

غريب الحديث

الأكمه: الذي خلق أعمى.

بالمئشار: أشرت الخشبة بالمنشار: إذا شققتها، ووشرتها بالميشار -غير مهموز- لغة فيه، والميشار والمنشار والمئشار سواء.

ذروته: أعلاه.

رجف الجبل: اضطرب وتحرك.

قرقور: القرقور: سفينة صغيرة.

فانكفأت: السفينة، أي: انقلبت، ومنه: كفأت القدر: إذا كببتها.

الصعيد: وجه الأرض، وأراد: أنه جمعهم في أرض واحدة منبسطة ليشاهدوه.

من كنانتي: الكنانة: الجعبة التي يكون فيها النشاب.

كبد القوس: وسطها، والمراد به: موضع السهم من الوتر والقوس.

بالأخدود: الأخدود: الشق في الأرض، وجمعه الأخاديد.

نزل بك حذرك: أي ما كنت تحذر منه.

السكك: جمع سكة، وهي الطريق.

أفواه السكك: أبواب الطرق.

أضرمت النار: إذا أوقدتها وأثرتها.

اقتحم: الاقتحام: الوقوع في الشيء.

فتقاعست: التقاعس التأخر والمشي إلى وراء.

الهمس: الكلام الخفي الذي لا يكاد يسمع.

اللقن: الرجل الفهم الذكي.

التهافت: الوقوع في الشيء مثل التساقط[1].

شرح الحديث

كان الملوك قديما يعتمدون على السحرة في تثبيت ملكهم، وكان السحرة يعملون على إخضاع الناس للحكام بما يقومون به من خدع وترهات، بل كان السحرة هم السدنة الذين يرسون دعائم الحكم، وينصبون الملوك آلهة تعبد من دون الله.

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه كان لأحد الملوك ساحر، كبرت سنه، فخشي أن يضيع علمه، فطلب من الملك أن يرسل له غلاما ذكيا نابها، كي يورثه علمه وضلاله، وقد حقق له الملك مقصوده، فأرسل له بالغلام.

وكان الغلام في ذهابه إلى الساحر وعودته من عنده يمر على راهب، فقعد إليه، وسمع كلامه، وقد احتال الراهب للغلام، عندما شكا إليه محاسبة الساحر له على تأخره عنه بسبب مكثه مع الراهب، فقال له: إن سألك الساحر عن تأخرك فقل حبسني أهلي، وإن سألك أهلك فقل: أخرني الساحر، وبذلك خلص من تأنيب الساحر له، وتأنيب أهله.

ومر الغلام يوما بدابة عظيمة حبست الناس، قد تكون حيوانا مفترسا كالأسد، أو أفعى عظيمة، فوجدها فرصة للتحقق من أمر الراهب والساحر، وليعرف أيهما على الحق، فأخذ حجرا، ورمى به تلك الدابة طالبا من ربه أن يقتل الدابة إن كان أمر الراهب أحب إليه من أمر الساحر، فخرت الدابة صريعة من تلك الضربة، وظن الناس أن الغلام قتل الدابة بنبوغه في علم السحر.

وعندما علم الراهب بما كان من الغلام دله علمه أن الغلام سيبتلى، لأن

---

(١) راجع جامع الأصول.

الغلام لا يكتفي بالدعوة الهادئة كما يفعله الراهب، ولكنه ثورة متفجرة، وطلب من الغلام إن ابتلي أن لا يدل عليه، فإن المؤمن يسأل الله العافية، فإن ابتلي صبر.

وقد أجرى الله على يد الغلام شفاء المرضى، وإبراء الأكمه والأبرص، وكان يخبر الناس أن الشافي هو الله، وأن من آمن با لله فإنه يشفيه، فكان يتخذ من المعالجة طريقا لنشر دعوته، ونشر الإيمان، وسمع أحد جلساء الملك كان قد عمي بخبر الغلام، فأهدى إلى الغلام هدايا عظيمة كي يشفيه، فأخبره أن الله هو الشافي، وأنه إن آمن بالله دعاه فشفاه، فآمن فدعا الغلام له فشفاه الله.

وجاء ذلك الأعمى سويا صحيحا إلى مجلس الملك، فعجب الملك منه، وقال: من رد عليك بصرك ؟ فقال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله.

وثار الملك، فقد رأى في كلام ذلك الرجل بوادر فتنة تهدد ملكه وسلطانه، فقد نصب ذلك الطاغية نفسه إلها يعبد من دون الله، وزعم أنه رب الناس، وكان الساحر والأعوان الفجرة يعملون ليل نهار على إقرار هذا المعتقد في قلوب أهل تلك المملكة، ولذا فإن الملك رجف فؤاده، وخشي على ملكه وسلطانه، فأخذ ذلك الرجل، وعذبه حتى دل على الغلام.

ولما جيء بالغلام ظن أنه بلغ ما بلغه بالسحر الذي تعلمه من الساحر، ولكنه تبين أن ظنه لم يكن في محله، فالغلام كافر بالساحر والسحر، وهو لا يستعمل علمه في تثبيت ملكه، وتعبيد الناس له، ولكنه يدعو الناس إلى الكفر به، والإيمان با لله الواحد الأحد.

أراد الملك أن يعرف جذور الفتنة التي حلت في دياره، كي يقتلعها، فعذب الغلام حتى دل على الراهب، ووقع بالراهب ما خشيه على نفسه عندما أمر الغلام بأن لا يدل عليه إن ابتلي، وعذب الراهب ليترك دينه، فأبى وصبر على العذاب، وشقه الظلمة بالمنشار نصفين، وكذلك فعل بجليس الملك، لقد صبر الرجلان، واحتملا العذاب، وهكذا الرجال عند المحن والابتلاء، يقدمون حياتهم ثمنا لإيمانهم، وهم وإن سقطوا صرعى الظلم والبغي، ولكنهم في الحقيقة

منتصرون، لأنهم ينالون بذلك رضوان الله، وينالون جنته، ويخلصون من ناره، وفي يوم القيامة ينتصر الله لهم، فيقذف بخصومهم في النار.

وحاول الملك أن يستميل الغلام، ويرجعه عن دينه، فإنه كان يرى فيه رجلا يعتمد عليه في تثبيت ملكه إن هو ترك ما هو عليه، لما يملكه ذلك الغلام من خصائص وصفات، وقد يكون والده من كبار أعيان الدولة، وهو لا يريد إغضاب والده وقومه، فلما أبى أن يلين حاول قتله بأكثر من طريقة، وكان في كل مرة يوصي أعوانه بأن يعيدوه إليه إن هو رجع عن دينه، وهو يظن أن هذه الطريقة قد تخيف الغلام، وترده عن دينه.

أرسل به مرة إلى قمة جبل شاهق ليلقى به من ذروته العالية في واد سحيق، فدعا الغلام ربه، فاضطرب الجبل، فسقط أعوان الملك في الهاوية، وعاد الغلام إلى الملك سالما، وأخبره بما كان من أمره وأمر أعوان الملك. فأرسله مرة أخرى في سفينة آمرا بإلقائه في عرض البحر إن لم يرجع عن دينه، ودعا الغلام ربه، فابتلع البحر زبانية الطاغوت، وعاد إلى الملك سالما.

والملاحظ أن الغلام لم يكن يفر بعد أن ينجيه الله، بل يعود إلى الملك عودة المتحدي، وذلك أنه لم يكن ينشد السلامة لنفسه، بل كان يهدف إلى إظهار دين الله، وإعلاء كلمته.

ولا شك أن الناس كانوا يتابعون خطوات الغلام، ويتعرفون إلى ما يكون منه، ولعل أعماله كانت حديث المجالس والمحافل، خاصة وأنه يواجه ذلك الجبار غير هياب ولا وجل، والناس لم يعتادوا على مثل هذا، فالملوك من هذا الصنف جبابرة، لا يتورعون عن سفك الدماء، والإفساد في الأرض.

وقد رأى الملك عجزه، وهو الذي يدعي الربوبية عن قتل الغلام، فأخبره الغلام بالطريقة التي يمكنه قتله بها، وأخبره أنه مهما فعل فلن يستطيع قتله بغيرها.

طلب منه أن يجمع الناس في مكان واحد، ويصلبه على خشبة، ثم يأخذ

سهما من كنانة الغلام، ويرميه به قائلا باسم الله رب الغلام، ويطلق السهم.

وكذلك كان، ووقع السهم في صدغ الغلام، فوضع يده على مكان السهم، ومات.

مات الغلام بعد أن رسم للملك طريقة قتله، وأخبر الملك الذي يدعي الألوهية أنه عاجز عن قتله بغير الطريقة التي حددها له، فقد أمره بأن يجمع الناس في صعيد واحد، ثمَّ يأخذ سهماً، وليس أي سهم، بل سهماً من كنانة الغلام، ثم يقول: باسم الله رب الغلام، ويرميه بذلك السهم، وإذا لم يفعل ذلك سيبقى عاجزاً عن قتله .

لو وقع هذا في زماننا لجادل بعض الذين لم يتعمقوا في دراسة الشريعة في صحة فعل الغلام، هل يجوز له أن يدل الملك على الطريقة التي يموت بها ؟ أو ليس في ذلك قتل للنفس ؟ وقد يدعي بعض من قل علمه أن هذا الذي فعله الغلام يدخل في باب الانتحار.

إن الانتحار فعل رجل يائس من الحياة هارب منها، أما هذا الرجل وأمثاله فإنهم يضحون بأنفسهم لنشر الإسلام والإيمان، ومقاومة فساد المفسدين، وردع الكافرين، ورد ظلم الظالمين.

لم يكن الغلام غبيا، يطلب الموت، ولكنه كان يطلب بموته على هذا النحو إيمان الناس، فقد تابع الناس ما كان من أمره، فأراد أن يكسر الحاجز الذي يرهبهم عن مواجهة الطغاة المفسدين، إن الخوف على الحياة يرد الناس عن متابعة الحق والقول به، فجاء ليقدم الأنموذج للناس، فقد ضحى بنفسه وهو معصوم من الملك وأعوانه، لا يستطيعون أن يضروه بشيء، فدل الملك على الطريقة التي يستطيع قتله بها.

وما كاد الفتى يسقط ميتا، ويتنفس الملك الصعداء لظنه أنه أنهى الفتنة، وقضى عليها، واقتلع جذورها، حتى جاءه أعوانه يركضون لاهثين، يقولون: وقع

الذي كنت تحذر، آمن الناس.

لقد تحقق ما أراده الغلام وقصده، كسر الفتى حاجز الخوف عند الناس، فإذا بهم لا يبالون بالملك وأعوانه، وأصبحت التضحية بالنفس في سبيل الله أمنية يتمناها الموحدون.

هناك ثارت ثائرة الملك، وتعدى طوره، وجاوز حده، فأمر بشق الأخدود، وإشعال النار فيه، وقذف كل من أصر على دينه في النار أو أمره باقتحامها.

ورضي الناس بنار الدنيا ليتقوا بذلك نار الآخرة، ولما تقاعست امرأة عن ولوج النار، وكادت أن تتراجع إذا بالله ينطق رضيعها فيأمرها أن تصبر، فإنها على الحق، وكانت آية ثبت الله بها المؤمنين، وقد أخبرنا الله خبر أصحاب الأخدود في سورة البروج، وما فعله الظالمون الجبارون بالمؤمنين، وبين أن حرقهم للمؤمنين كان بسبب إيمانهم ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج ٨ - ٩].

وهكذا الظلمة والطغاة يحرقون شعوبهم إن هم خرجوا عن الطريق الذي رسموه لهم، فالأمر الأعظم والأهم في نظرهم استقرار الملك لهم ليسودوا، وإلا فإنهم يحرقون الأخضر واليابس، ويدمرون كل شيء.

عبر الحديث وفوائده

١ - يهيء الله لدينه بين الفينة والفينة من يعلي مناره، وينشره في الأرض كما هيأ هذا الغلام كي يكون سببا في إيمان قومه، وقد وقع مثل هذا في هذه الأمة على صورة أعظم وأكبر، فهيأ لهذا الدين من ينشره ويحميه ويدافع عنه.

٢ - اختار الملك الغلام ليكون الساحر الذي يثبت دعائم ملكه، وأراد الله له أن يكون الداعية الصالح الذي يدمر ملكه، ويهدي الناس إلى الدين الحق، وفي

ذلك آية للمعتبرين، فالله يهيء لدينه رجالا ينبتون من بيوت الطواغيت ليكونوا الدعاة الهداة.

٣ ـ الإيمان لا يحتاج إلى وقت طويل كي يستقر في القلوب، ويحيي النفوس، فالقوم الذين رضوا بعذاب النار لم يكن مضى على إيمانهم ساعات قليلة، ومثل هؤلاء سحرة فرعون آمنوا، فلم يردعهم جبروت فرعون وعذابه عن الإيمان.

٤ ـ قد يجري الله على يد بعض أوليائه كرامات يؤيده بها، ويثبت بها إيمانه ويقينه، فالغلام لم يكن نبيا، وقد استجاب الله له في قتل الدابة، وأجرى على يده إبراء الأكمه والأبرص، ومداواة المرضى، واستجاب دعاءه في تخليصه من القتل، والقضاء على أعوان الملك الذين أمرهم بقتله.

٥ ـ التضحية بالنفس في سبيل الله ليست من الانتحار في شيء، فالغلام دل الملك على الطريقة التي يقتله بها، والمؤمنون كان بعضهم يلقى في النار، وآخرون يقتحمونها، ولم يكن اقتحامهم لها انتحاراً، بل كان فيه إغاظة للظالمين، وإرضاء لله رب العالمين.

٦ ـ شدة عداء أهل الكفر لأهل الإيمان، فقد نشر أعوان الملك الراهب وجليس الملك بالمنشار، وأحرقوا الناس بالنيران.

٧ ـ حفظ الله لأوليائه، وإذلاله لأعدائه، فقد حفظ الغلام من القتل، واستجاب دعاءه، فأهلك من أرادوا به سوءا.

٨ ـ وجوب الصبر على الأذى في الله، كما صبر الراهب وجليس الملك والغلام، وكما صبر المؤمنون على الحرق بالنار.

٩ ـ جواز الكذب في الحرب ونحوها، فقد أرشد الراهب الغلام إلى أن يدعي أن الكاهن حبسه إذا سأله أهله، وأن أهله حبسوه إذا سأله الكاهن.

١٠- إظهار الله للظالمين ضعفهم وعجزهم، فقد أعجز الغلامُ الملكَ مدعي الألوهية، فلم يستطع قتله على الرغم من شدة بطشه وجبروته، وظهر المزيد من عجزه باتباعه لإرشادات الغلام التي دله الغلام عليها ليتمكن من قتله .

١١- قد يضعف رجل العقيدة عن احتمال الأذى، وقد يبوح بأسرار لا يجوز له البوح بها من شدة العذاب، فجليس الملك الذي رد الله عليه بصره دل على الغلام تحت وطأة العذاب، والغلام دل على الراهب لما ناله من العذاب، ومع ذلك فلم يغض اعترافهما من مكانتهما، ولكنهما احتملا العذاب الذي أدى بهما إلى الموت عندما طلب منهما التنازل عن عقيدتهما، والكفر بالله .

١٢- قد يكون التلميذ أفضل من شيخه، فقد حقق الغلام ما لم يستطع الراهب تحقيقه، ويبقى للراهب فضل هداية الغلام .

١٣- في الحديث ردٌّ على الذين يزعمون أن فعل الخير لا يجدي في الدعوة إلى الله، وأن الواجب على المسلمين إقامة الحكم الإسلامي، أما شغل النفس بإطعام الجائع وكسوة العاري وبناء المساجد والمستشفيات، فإنه مضيعة للنفس، وهذا الحديث يرد عليهم، فقد أجرى الله على يد الغلام إبراء الأكمه وشفاء الأبرص وغيرها من الأمراض، مما جعل الناس يتعلقون به، ويقبلون دعوته.

١٤- كان في ملوك الأرض جبابرة يدعون الربوبية، فيزعمون أنهم أرباب من دون الله ، كما كان من فرعون ونمرود، وهذا الطاغية الذي حرق الناس بالنار .

١٥- حرص أهل الشر على استمرار شرهم من بعدهم، كما حرص الساحر على تعليم من يرث علمه الفاسد، ليبقى هذا العلم حياً يضل به عباد الله .

القصة الخامسة والأربعون

الأبرص والأقرع والأعمى الذين ابتلاهم الله

تمهيد

كثير من الذين ابتلاهم الله بالمرض أو الفقر يحنون إلى التخلص من أمراضهم وفقرهم، وبعضهم ينالون ما تمنوه، فيبدل الله مرضهم عافية وصحة، ويبدل فقرهم غنى، ومن هؤلاء من ينسون البلاء الذي كان بهم، فلا يشكرون الله على نعمته عليهم، ولا يألمون للمصابين بمثل ما كانوا به مصابين، ومنهم الذين يحمدون الله على ما تفضل به عليهم، من إزالة ما كان بهم من ضر، وعندما يرون المصاب بمثل ما كانوا مصابين به، يأسون لحاله، ويمدون له يد العون.

وقد حدثنا الرسول في هذا الحديث عن هذين الصنفين من الناس، الكافرين بالنعمة والشاكرين، فقد ابتلى الله ثلاثة من ذوي العاهات من بني إسرائيل، فأرسل إليهم ملكا مسحهم، فأزال الضر الذي بأجسادهم، وأعطاهم المال الذي يحبه كل منهم، وما هي إلا سنوات حتى أصبح لكل واحد منهم مالا كثيرا، وأرسل لهم الله الملك مرة ثانية، جاء كلا منهم في مثل صورته التي كان عليها أيام مرضه وفقره، يسألهم العون والمساعدة، فبخل اثنان كفرا بنعمة الله، وضنا بالمال الذي تفضل الله به على كل واحد منهما، وجاد الثالث، شاكرا نعمة الله.

نص الحديث

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّـهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: (إِنَّ ثَلاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ، وَأَقْرَعَ، وَأَعْمَى، بَدَا لِلَّهِ عز وجل أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ. قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا. فَقَالَ: أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ أَوْ قَالَ الْبَقَرُ، هُوَ شَكَّ فِي ذَلِكَ: إِنَّ الأَبْرَصَ وَالأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا: الإِبِلُ، وَقَالَ الآخَرُ: الْبَقَرُ، فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ: يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا.

وَأَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا، قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ. قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ، وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ، قَالَ: الْبَقَرُ، قَالَ: فَأَعْطَاهُ بَقَرَةً حَامِلا، وَقَالَ: يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا.

وَأَتَى الأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ يَرُدُّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ، قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ، قَالَ: الْغَنَمُ، فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا، فَأُنْتِجَ هَذَانِ، وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ بَقَرٍ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ غَنَمٍ.

ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، تَقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِه، فَلا بَلاغَ الْيَوْمَ إِلا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ، وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي فَقَالَ لَهُ: إِنَّ الْحُقُوقَ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ؟ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا.

فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِ الْحِبَالُ فِي سَفَرِهِ فَلا بَلاغَ الْيَوْمَ إِلا بِاللَّهِ، ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ بَصَرِي، وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ. فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ).

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل ٦/٥٠٠ ورقمه: ٣٤٦٤. واستشهد به في كتاب الإيمان والنذور مختصرا. (١١/٥٤٠) ورقمه: ٦٦٥٣.

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد والرقائق: (٤/٢٢٧٥) ورقمه: ٢٩٦٤، وهو في شرح النووي على مسلم: ١٨/٣٩٨.

غريب الحديث

بدا لله: أصل البداء الظهور بعد الخفاء، وهذا يستحيل على الله، فإنه تعالى بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، والمراد هنا أن الله أراد ابتلاءهم، ففي صحيح مسلم: (فأراد الله أن يبتليهم).

أبرص: البرص بياض يظهر في البدن.

يبتليهم: يختبرهم.

قذرني الناس: أي اشمأزوا منه بسبب مرضه.

فمسحه: أي مسح جسده.

عشراء: بضم العين وفتح الشين، الناقة الحامل، التي مضى على حملها عشرة أشهر من يوم طرقها الفحل.

شاة والدا: أي وضعت ولدها.

فأنتج هذان وولد هذا: الناتج للإبل، والمولد للغنم وغيرها هو كالقابلة للنساء، والإشارة بقوله (هذان) إلى صاحب الإبل والبقر، وبقوله هذا إلى صاحب الغنم.

انقطعت بي الحبال: هي الأسباب التي يقطعها في طلب الرزق.

ورثت هذا المال كابرا عن كابر: أي ورثته من آبائي، وهم ورثوه من آبائهم، يريد أنهم أسرة معروفة بغناها وثرائها منذ القدم.

أتبلغ عليه في سفري: أتوصل به إلى مرادي.

لا أجهدك: لا أشق عليك برد شيء تأخذه أو تطلبه من مالي، والجهد المشقة.

شرح الحديث

حدثنا الرسول ﷺ عن ثلاثة من بني إسرائيل أصاب الله كل واحد منهم بآفة في جسده، كما ابتلاهم بالفقر، ولعلهم كانوا سكان مدينة واحدة، يعرف كل واحد منهم صاحبيه، لقول الملك للأعمى الذي نجح في الابتلاء: قد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك.

أرسل الله لهم ملكا، فجاءهم واحدا واحدا، يسأل كل واحد عن طلبته، وحقق لكل واحد منهم ما تمناه.

طلب الأبرصُ أن يزول عنه برصه، الذي قذره الناس به، ويعطى اللون

الحسن والجلد الحسن، فمسحه الملك فكان له ما أراد، وسأله عن أحب المال إليه، فاختار الإبل أو البقر، فأعطي ناقة أو بقرة حاملا، ودعا له الملك أن يبارك له فيها.

ثم جاء الأقرع، فكان طلبه أن يعطى شعرا حسنا، ويذهب عنه قرعه الذي قذره الناس به، فمسحه فزال قرعه، وأعطي الشعر الحسن، وكان أحب المال إليه البقر، فأعطي بقرة حاملا، ودعا الملك له بالبركة فيها.

وجاء الأعمى فكان مطلوبه أن يرد عليه بصره، فيرى الحياة والأحياء، ويعرف طريقه في سيره، فرد عليه بصره بمسحه إياه، وكان أحب الأموال إليه الغنم، فأعطي شاة ذات ولد، أو شاة حاملا.

ومضت السنوات، وبارك الله لكل واحد منهم فيما أخذه، فإذا بكل واحد منهم يملك واديا من الصنف الذي أخذه، هذا يملك واديا من الإبل، وذاك يملك واديا من البقر، والثالث يملك واديا من الغنم.

وعاد الملك إليهم بعد أن أصبحوا أصحاء أثرياء، وجاء كل واحد منهم في صورته وهيأته التي كان عليها، فجاء الأول في صورته يوم كان به برص، وأخذ يسأله بالذي أعطاه الجلد الحسن، واللون الحسن، والمال الوفير، أن يعطيه بعيرا يتبلغ به في سفره.

فأنكر هذا الرجل نعمة الله عليه، وما وهبه إياه، وضن بماله، ومنعه عن رجل مصاب بمثل ما كان مصابا به، وتعلل في رفضه بأن الحقوق كثيرة، عند ذلك قال له الملك: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرا فأعطاك الله ؟ فلم يقر بما كان من حاله، وادعى ما لم يكن فيه، إذ زعم أن هذا المال مال تالد ورثه عن آبائه وأجداده، فدعا عليه الملك أن يصير إلى الحال التي كان عليها إن كان كاذبا.

ثم جاء الأقرع فلم يكن حاله أحسن من حال صاحبه، كنود وجحود، وضلال عن سواء السبيل.

أما الأعمى فقد كان ذو نفس صافية عامرة بالإيمان والتقوى، نظر إلى السائل، فذكره بصورته وحاله التي كان عليها قبل أن يرد الله عليه بصره، ويعطيه ما أعطاه من مال، وكشف للسائل حقيقة ما كان عليه من قبل: (قد كنت أعمى فرد الله بصري، وفقيرا فقد أغناني) ولم يجُدْ له بشاة واحدة، وإنما ترك له الخيار أن يأخذ ما يشاء، ويترك ما يشاء، وقال للسائل: (فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله) عند ذلك كشف الملك له عن حقيقته، وقال له: (أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك).

إن هؤلاء الثلاثة يمثلون إنموذجين مختلفين، إنموذج الشاكر لأنعم الله، والكافر بها، وبالشكر تدوم النعم، وبالكفر يكون زوالها وبوارها.

عبر الحديث وفوائده

١ ـ ابتلاء الله لعباده، كما ابتلى الثلاثة، ليظهر الشاكر من الكافر، والصالح من الطالح.

٢ ـ فضل الشكر في السراء، ومن الشكر الجود بالمال على مستحقيه، وعاقبة الكفر بالنعمة، ومن الكفر البخل بالمال على مستحقيه من أهل الفقر والمسكنة.

٣ ـ قدرة الملائكة على التمثل في صورة البشر، كما فعل الملك المذكور في الحديث.

٤ ـ لا يُعَدُّ الملك كاذبا عندما ادعى أنه رجل مسكين تقطعت به الحبال في سفره، فمراده ضرب المثل بما فعل.

٥ - إذا بارك الله في مال الرجل نما وكثر، وأصبح مالا عظيما فقد كثر الله أموال الثلاثة الذين ابتلاهم، فأصبح لكل واحد منهم واد يموج بالنعم، وأصل ذلك واحدة مما أعطي من النعم، وقد يهلك المال الكثير ويبيد في الزمن القليل.

٦ - ليس كثرة المال دليلا على حب الله للعبد، فـا لله يختـبر الذيـن يهبهـم المـال، كما اختبر الثلاثة بما أعطاهم.

٧- قدرة الله على شفاء الأمراض المستعصية الـتي يظـن البشـر أنـه لا شـفاء لهـا ، كالبرص والقرع والعمى.

القصة السادسة والأربعون

المرأة التي وعظت عالما

تمهيد

هذه قصة من قصص بني إسرائيل حدث بها رجل ممن أسلم منهم، وهي تحكي خبر عالم من علماء بني إسرائيل توفيت زوجته، فانقطع عن الناس لشدة حزنه عليها، فأصرت امرأة على مقابلته، وضربت له مثلا، يصور حاله من حيث لا يدري، فانتفع بما ضربته له، وأقلع عن شديد حزنه، ورجع إلى مخالطة قومه.

نص الحديث

روى مَالِك في موطئه عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، أَنَّهُ قَالَ: « هَلَكَتِ امْرَأَةٌ لِي، فَأَتَانِي مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ يُعَزِّينِي بِهَا، فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ فَقِيهٌ عَالِمٌ عَابِدٌ مُجْتَهِدٌ، وَكَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ، وَكَانَ بِهَا مُعْجَبًا، وَلَهَا مُحِبًّا. فَمَاتَتْ، فَوَجَدَ عَلَيْهَا وَجْدًا شَدِيدًا، وَلَقِيَ عَلَيْهَا أَسَفًا، حَتَّى خَلا فِي بَيْتٍ، وَغَلَّقَ عَلَى نَفْسِهِ، وَاحْتَجَبَ مِنَ النَّاسِ، فَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِ أَحَدٌ.

وَإِنَّ امْرَأَةً سَمِعَتْ بِهِ، فَجَاءَتْهُ، فَقَالَتْ: إِنَّ لِي إِلَيْهِ حَاجَةً، أَسْتَفْتِيهِ فِيهَا لَيْسَ يُجْزِينِي فِيهَا إِلا مُشَافَهَتُهُ، فَذَهَبَ النَّاسُ وَلَزِمَتْ بَابَهُ، وَقَالَتْ: مَا لِي مِنْهُ بُدٌّ.

فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: إِنَّ هَاهُنَا امْرَأَةً أَرَادَتْ أَنْ تَسْتَفْتِيَكَ، وَقَالَتْ: إِنْ أَرَدْتُ إِلا مُشَافَهَتَهُ، وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ، وَهِيَ لا تُفَارِقُ الْبَابَ، فَقَالَ: ائْذَنُوا لَهَا، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: إِنِّي جِئْتُكَ أَسْتَفْتِيكَ فِي أَمْرٍ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟

قَالَتْ: إِنِّي اسْتَعَرْتُ مِنْ جَارَةٍ لِي حَلْيًا، فَكُنْتُ أَلْبَسُهُ، وَأُعِيرُهُ زَمَانًا، ثُمَّ إِنَّهُمْ أَرْسَلُوا إِلَيَّ فِيهِ، أَفَأُؤَدِّيهِ إِلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: نَعَمْ وَاللَّهِ، فَقَالَتْ: إِنَّهُ قَدْ مَكَثَ عِنْدِي زَمَانًا، فَقَالَ: ذَلِكِ أَحَقُّ لِرَدِّكِ إِيَّاهُ إِلَيْهِمْ حِينَ أَعَارُوكِيهِ زَمَانًا فَقَالَتْ: أَيْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ، أَفَتَأْسَفُ عَلَى مَا أَعَارَكَ اللَّهُ، ثُمَّ أَخَذَهُ مِنْكَ، وَهُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْكَ، فَأَبْصَرَ مَا كَانَ فِيهِ، وَنَفَعَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهَا ».

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه مالك في موطئه، كتاب الجنائز، باب جامع الحسبة في المصيبة، ص ١٦٣. ورقمه: ٤٣.

وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على الحديث في جامع الأصول: (٣٣٩/٦) إسناده إلى محمد بن كعب القرظي صحيح.

غريب الحديث

وجد عليها وجدا شديدا: أي حزن عليها حزنا عظيما.

ليس يجزيني: أي ليس يغنيني.

أي يرحمك الله: (أي) لنداء القريب.

شرح الحديث

قدم محمد بن كعب القرظي على القاسم بن محمد يعزيه في زوجته، فحدثه خبر رجل فقيه عابد عالم من بني إسرائيل، توفيت زوجته، وكانت أثيرة عنده حبيبة إلى نفسه، فحزن عليها حزنا شديدا، ولشدة حزنه خلا إلى نفسه، وانقطع عن الناس، فلا يأذن لأحد بزيارته.

فجاءت امرأة، ولزمت بابه، طالبة مقابلته لتستفتيه، وأبت أن تصرح بمسألتها، وأصرت على أن تشافهه بها، فلما قابلته سألته عن قوم أعاروها حليا كثيرا حسنا، فكانت تلبسه وتعيره، ثم إن أهل الحلي طلبوه، أفيلزمها رده إليهم؟

فعجب من سؤال جوابه معروف، وأجابها بوجوب رد الحلي لأصحابه.

وكانت إنما ضربت الحلي المعار مثلا لحاله مع زوجته، فالزوجة كانت عنده عارية، وكل ما في الدنيا فهو عارية ووديعة، المال والأهل والولد، ولا بد أن يسترد ﷻ وديعته، وعندما وجهت نظره إلى مشابهة حاله بالحال الذي ضربته له اتعظ، فأبصر وانتفع بعظتها.

فوائد الحديث وعبره

١ ـ قد يغفل أهل العلم عما حفظوه ووعوه كما غفل هذا العالم الفقيه عما يعلّمه للناس من وجوب الصبر عند حلول المصائب، وأن ما أخذه ﷻ منا إنما هو استرداد لما أودعنا إياه.

٢ ـ على أهل الرأي والفهم أن يبصروا غيرهم بما غاب عنهم وغفلوا عنه كما بصّرت هذه المرأة ذلك العالم.

٣ ـ الفقه والعلم قدر مشترك بين الرجال والنساء، وليس قصرا على الرجال، وقد بصرت هذه المرأة رجلا عالما.

٤ ـ لا حرج على المرأة أن تسعى في تفقيه الناس وتعليمهم وبث الخير بينهم، إذا أمنت على نفسها الأذى والوقوع فيما حرم ﷻ عليها.

٥ ـ أهمية ضرب الأمثال، فضرب الأمثال يكشف الشبهة ويزيل الغمة، ويعظ الضالين، ويهدي الزائغين.

٦ ـ تعزية الناس بأخبار الغابرين، وقصص السابقين، مما يشبه حال الموعوظين.

القسم الخامس

قصص
النماذج السيئة

القصة السابعة والأربعون
المفاخر بآبائه الكفرة

تمهيد

هذه قصة رجلين افتخر أحدهما بآبائه الكفرة، وانتسب إلى تسعة من آباء كفار، وافتخر الثاني بآبائه المسلمين وانتسابه إلى الإسلام، فأوبق الله عمل الأول، وضمه إلى آبائه في النار، ونجى الثاني، وضمه إلى آبائه في الجنة .

نص الحديث

روى أحمد في مسنده عَنْ أُبَيِّ ابْنِ كَعْبٍ قَالَ: انْتَسَبَ رَجُلان عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلانُ بْنُ فُلان، فَمَنْ أَنْتَ لا أُمَّ لَكَ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (انْتَسَبَ رَجُلان عَلَى عَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلانُ بْنُ فُلان، حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً، فَمَنْ أَنْتَ لا أُمَّ لَكَ؟ قَالَ: أَنَا فُلانُ ابْنُ فُلان ابْنُ الإِسْلام. قَالَ: فَأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام أَنَّ هَذَيْنِ الْمُنْتَسِبَيْنِ: أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُنْتَمِي أَو الْمُنْتَسِبُ إِلَى تِسْعَةٍ فِي النَّار، فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا هَذَا الْمُنْتَسِبُ إِلَى اثْنَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الْجَنَّةِ).

تخريج الحديث

الحديث رواه أحمد في مسنده: ١٢٨/٥ . وعزاه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢٦٥/٣) ورقمه: ١٢٧٠ إلى أحمد في مسنده، والضياء في المختارة، والبيهقي في الشعب . وقال: « هذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين غير يزيد بن زياد بن أبي الجعد، وهو ثقة » .

شرح الحديث

أعلمنا ربنا بحقيقة عظمى ذات أثر بالغ في المجتمع الإنساني بأسره، أخبرنا أننا جميعا نعود إلى أصل واحد، وأب واحد، أصلنا الذي خلقنا منه التراب وأبونا الذي نرجع إليه جميعا آدم (كلكم لآدم وآدم من تراب) .

ولذا فإنه لا اختصاص لواحد من البشر بفضيلة باعتبار الأصل الذي خلق منه، وما يقال من أن بعض الأسر من سلالة الآلهة، أو أن شعوبا أو أجناسا تجري في عروقها الدماء الزرقاء؛ كل ذلك من الباطل والزور، ولا يقل بطلانه عن دعوى الذي يدعي أن أصله من ذهب أو فضة، وبقية البشر أصلهم تراب أو حديد أو قصدير أو نحاس .

وهذه الحقيقة، وهي كون البشر من أصل واحد – متى أيقن الناس بها – تجعلهم يتواضع بعضهم لبعض، ولا يبغي بعضهم على بعض، على الرغم من اختلاف أجناسهم وألوانهم وبلادهم، إن هذا الاختلاف بين البشر في الأشكال والألوان، واختلافهم إلى شعوب وقبائل ليس مرده إلى تفاضل بعضهم على بعض، ولكنه آية من آيات الله، ليتعارف البشر فيما بينهم، ويتمايزون، ولو كان البشر صورة واحدة، واسما واحدا، لما استطاعوا التمايز والتعارف، وقد قرر الحق هذه الحقيقة الكبرى في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات:١٣].

ولكن هذه الحقيقة العظيمة التي يجب أن تكون قاعدة التعامل بين أبناء الجنس الواحد، وبين الأجناس والشعوب فيما بينها تغيب عن العقول والقلوب، فترى البشر على مستوى الأفراد والأسر والمجتمعات يبغي بعضهم على بعض، ويزعم كل فريق أنه الأفضل والأكمل والأحسن، ويُردّ هذا الفضل إلى جنسه أو لونه أو آبائه أو مدينته ودولته، وتراه بناء على ذلك يمدح من ينتسب إليهم، ويعتز بهم، ويذم غيرهم، وقد تقوم الحروب المدمرة التي تأكل الأخضر واليابس انتصارا لهذه العصبيات الجاهلية القائمة على أصول عفنة قذرة .

إن الإنسان لا يفضل غيره في ميزان الإسلام بطوله وعرضه وشكله ولونه وقبيلته وموطنه، إن التفاضل في الإسلام مرده إلى التقى والصلاح ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣].

ويكرم الإنسان بكرم آبائه الأتقياء إن هو أحبهم وسار على خطاهم، وفعل فعلهم، كما قال الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَاءِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [يوسف:٣٨].

أما المفاخرة بالآباء الكفرة، والزعماء الفجرة، والقيادات التي عاثت في الأرض فسادا، فذلك كله من الباطل، وهو يمثل انحراف مسار الإنسان في تصوراته وأفكاره وأفعاله .

وقد أخبرنا أبي بن كعب عن لون من ألوان هذا الباطل وقع في عهد الرسول ﷺ، فقد تنازع اثنان، فقال أحدهما مفتخرا على صاحبه بأصالة نسبه، مدلاً عليه بآبائه وأجداده، محقرا لصاحبه: أنا فلان بن فلان، فمن أنت لا أم لك ؟

فلقن رسول الله ﷺ هذا المفاخر بآبائه الكفرة درسا يردعه، ويردع أمثاله عن هذا الباطل، فقد حدثهم أن رجلين من بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام، اختلفا وتنازعا، فافتخر أحدهما بالآباء العظام من أهل الكفر، وعدد تسعا من آبائه، فقال: أنا فلان بن فلان بن فلان، إلى أن بلغ الجد التاسع، ثم واجه صاحبه محقرا موبخا قائلا: فمن أنت لا أم لك ؟

إن افتخاره بآبائه، واحتقاره لمخاطبه يدل على مرض خبيث كان يسري في كيان هذا الرجل وأمثاله، فهو يرى أن أصوله تعطيه قيمة ترفعه على غيره، وتجعله يمتاز بأولئك الآباء، وأن غيره ممن لا يشاركه في تلك الأصول لا يستحق أن يساوى به، ولذا فهو في مرتبة دونه .

وقد كان الرجل الآخر صالحا فقيها، فقال منتسبا، أنا فلان ابن فلان ابن

فلان ابن الإسلام، وكان الأبوان اللـذان اعتزى إليهمـا مسلمين، ثـم اعـتزى إلى الإسلام، ورفض أن يمد المفاخرة إلى الآباء الكفرة .

ويروى أن هذا وقع لسلمان الفارسي ﷺ، فقد ذكر جمع من الرجال كـان فيهم سلمان آباءهم، فلما جاء دور سلمان قال: أنا ابن الإسلام، فلمـا بلـغ عمـر الخبر، بكى، وقال: وأنا ابن الإسلام .

وقـد أخبرنـا رسـولنا ﷺ أن الله أوحى إلى موسـى يـأمره أن يقـول لـلرجل المفتخر بالآباء الكفرة « أنت أيها المنتمي أو المنتسب إلى تسعة في النـار فـأنت عاشرهم » .

وأمره أن يقول للرجل الآخر: « وأنت أيها المنتسب إلى اثنين في الجنة، فأنت ثالثهما في الجنة » .

أرأيت إلى المصير الذي وصله ذلك الرجـل المفتخـر بآبـاء كفـرة !! والمصـير الخـير الذي بلغه ذلك المنتسب إلى الإسلام وآباء مسلمين !!

إن ما أوحى الله به إلى موسى في شأن هذين الرجلـين يهـز قلـوب الذيـن يخشـون ربهم، ويخافون وقوفهم بين يديه، وقد أدب الرسول بحكايته هذه القصة ذانك الرجلـين المنتسبين من الصحابة، وفيه عظة لكل من سار على دربهم، وفعل مثل فعلتهم .

إن الفخر بالآباء ولمز الآخرين، لأنهم لا يسـاوونه في النسـب مـرض فتـاك قـاتل، يخبث النفوس ويدنسها، ويشعل العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع الواحد، وقد يـؤدي إلى القتال وسفك الدماء، ويقطع الأواصر بين أبناء الإسلام، وقد اشتد الرسـول ﷺ في محاربة هذا المرض الخبيث، ففي السنن للترمذي وأبي داود عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (لينتهين أقوام يفخـرون بآبـائهم الذيـن مـاتوا، إنمـا هـم مـن فيـح جهنـم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل يدهده[1] الخراء بأنفه، إن الله قد أذهـب عنكـم عبيـة الجاهلية، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقـي، أو فـاجر شـقي، النـاس كلهـم بنـو آدم،

(١) أي يدحرج .

وآدم من تراب) [1]

وقد أمرنا الرسول ﷺ أن نغلظ القول لمن تعزى بعزاء الجاهلية، فقال: (من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا) [2]

وقد ترعرعت العصبيات في هذا القرن وتعددت وتكونت، وفرقت جماعة المسلمين، وأصبحت معولا لهدم الأمة الإسلامية، لقد فشت في المجتمعات الإسلامية، بل والمجتمعات الإنسانية العصبيات القومية، والإقليمية، بل وعصبية الألوان والحرف، وأشعلت هذه العصبيات نيران الحروب في العالم كله، واصطلى الناس بحرها، وذاقوا منها الصاب والعلقم، وإذا كان غير المسلمين لهم شيء من العذر في الغرق في حمئة العصبيات فما عذر المسلمين ؟ !!

عبر الحديث وفوائده

١ ـ تحذير الإسلام من العصبيات المقيتة التي تقوم على الانتساب إلى الآباء والافتخار بهم، ومتابعتهم على باطلهم، ومناصرتهم على غير الحق .

٢ ـ متابعة الإنسان آباءه على الحق، ومناصرة قومه على الحق ليس من العصبية .

٣ ـ مواجهة الفساد والانحراف بذكر أخبار السابقين، فقد روى الرسول ﷺ للمتفاخرين قصة مثل قصتهما، ليعتبرا بما فيها .

(١) مشكاة المصابيح: ٥٩٤/٢ ورقمه: ٤٨٩٩

(٢) مشكاة المصابيح: ٥٩٤/٢ ورقمه: ٤٩٠٢

القصة الثامنة والأربعون
المختال الذي خسف الله به الأرض

تمهيد

هذه قصة رجل أوبقته أعماله، فقد أغضب الله عليه، عندما خرج من داره مختالا بين الناس، يمشي مشية المتجبرين المتكبرين، فخسف الله به الأرض، وتلك عاقبة المتكبرين.

نص الحديث

روي البخاري في صحيحه عن عبدالله بْنَ عُمَرَ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الْخُيَلاءِ خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).

وعن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ، أَوْ قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ: (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).

وفي إحدى روايات مسلم: (إِنَّ رَجُلا مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَتَبَخْتَرُ فِي حُلَّةٍ...).

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمر في كتاب أحاديث الأنبياء، ٦/٥١٥. ورقمه: ٣٤٨٥.

ورواه في كتاب اللباس باب في من جر ثوبه من الخيلاء: ٢٥٨/١٠. ورقمه: ٥٧٩٠.

والرواية الثانية عند البخاري في كتاب اللباس، ٢٥٨/١٠ ورقمه: ٥٧٨٩.

ورواه مسلم في صحيحه: ١٦٥٣/٣ . ورقمه: ٢٠٨٨ .

غريب الحديث

مرجل : ترجيل الشعر تسريحه ودهنه.

جمته: الجمة من شعر الرأس ما سقط على المنكبين.

الحلة: ثوبان أحدهما فوق الآخر.

يتجلجل: أي يغوص في الأرض حين يخسف به، والجلجلة حركة مع صوت، وقال ابن فارس: التجلجل أن يسوخ في الأرض مع اضطراب شديد، ويندفع من شق إلى شق. فالمعنى: يتجلجل في الأرض أي ينزل فيها مضطربا متدافعا[١].

شرح الحديث

ينسى الإنسان في بعض الأحيان حقيقة نفسه، ينسى أنه خلق من طين، وأن أصله من سلالة من ماء مهين، وأنه خرج من مخرج البول مرتين، مرة عندما خرج من صلب أبيه، ومرة عندما ولدته أمه، وينسى أنه وإن حسن منظره، وجمّلته ثيابه أنه يحمل العذرة في باطنه، وينسى أنه مهما طال جسده وعظم فإنه لا يستطيع أن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولا، وأن الشوكة تدميه، والذبابة تؤذيه، والأفعى تخيفه، وأن مصيره إلى الزوال، ولو كشف عنا بعد أيام من دفننا لهال مرآنا أهلنا

---

(١) فتح الباري: ٢٦١/١٠.

وأحبتنا.

ينسى بعض الناس هذا كله، فيتعاظمون في أنفسهم، ويأخذهم العجب بأجسادهم، وألوانهم، وامتداد قامتهم، وجمال ثيابهم، فإذا هم يمشون في الأرض مشية الخيلاء، ويصعّر هذا المختال خده للناس، ويجر ردائه من خلفه، وينظر إلى الناس نظرة احتقار وازدراء، ويظن نفسه خير الناس، وهو أرذلهم، وقد يحيط به عذاب الله في الدنيا قبل الآخرة.

هذا رجل من هذا الصنف من الأمم من قبلنا، أعجبته نفسه، فخرج يمشي مختالا بين قومه، يتهادى في مشيته، ويجر إزاره من خلفه، فأغضب ربه عليه، فخسف به الأرض كما فعل بقارون من قبله، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

إن العظمة والكبرياء لله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي تفرد بصفات الكمال والجلال، ومن تعاظم في نفسه وتكبر، فقد نازع الله في صفة من صفاته وهو يستحق عقوبة الله في الآخرة، وقد تعجل له العقوبة في دنياه قبل أخراه.

إن المختالين المتكبرين لا يستحقون نعيم الآخرة، فالله جعل الآخرة دارا ﴿لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، وهؤلاء المتكبرون متعالون في الأرض، يدفعهم علوهم إلى إهلاك الحرث والنسل والإفساد في الأرض.

وقد جاءت التعاليم الإلهية كثيرة وافرة تنهى عن الكبر والاستعلاء والخيلاء، فلقمان أوصى ابنه بقوله: ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

وجاء في الوصايا العظيمة في سورة الإسراء النهي عن الكبر والخيلاء ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء: ٣٧].

عبر الحديث وفوائده

١ ـ الكبر والخيلاء جريمة كبرى توبق صاحبها في الدنيا والآخرة.

٢ ـ لا يجوز للرجل أن يجر ثيابه، فإن كان جرها من غير كبر فهو محرم أو مكروه، وإن جرها كبرا فهو كبيرة من الكبائر.

وقد لخص النووي الكلام في الإسبال، وهو جر الثياب بقوله: « لا يجوز الإسبال تحت الكعبين إن كان للخيلاء، فإن كان لغيرها فهو مكروه، وظواهر الأحاديث في تقييدها بالجر خيلاء تدل على أن التحريم مخصوص بالخيلاء، وهكذا نص الشافعي على الفرق كما ذكرنا، وأجمع العلماء على جواز الإسبال للنساء »[١].

٣ ـ ليس من الكبر أن يظهر العبد نعمة الله عليه بأن يكون نعله حسنا، وثوبه حسنا، خاصة إذا اقترن ذلك بشكر الله وحمده، وقد صحت بذلك الأحاديث.

٤ ـ بعض الذنوب يعجل الله العقوبة لصاحبها في الدنيا قبل الآخرة، كما خسف الله الأرض بهذا المختال المتكبر.

٥ ـ إثبات عذاب القبر، فهذا المخسوف به كما أخبر الرسول ﷺ يضطرب في الأرض إلى يوم القيامة.

---

(١) شرح النووي على مسلم: ١٤/٢٥٠.

القصة التاسعة والأربعون

المتألي على الله

تمهيد

يخبرنا هذا الحديث قصة رجل تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته، على الرغم من اجتهاده في العبادة، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فقد حلف ـ لما رأى صاحبه على ذنب ـ أن الله لا يغفر له.

وكان صاحبه يكثر الذنوب، وهو يكثر من نهيه عنها، فأغضب ربه عليه بحلفه الذي حلفه، فرحمة الله واسعة، ولا يعجزه أن يغفر لأحد من خلقه مهما عظم ذنبه، لقد غفر الله للمذنب وأدخله الجنة، وأمر بالمجتهد إلى النار من أجل تلك الكلمة.

نص الحديث

روى مسلم في صحيحه عَنْ جُنْدَبٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ حَدَّثَ أَنَّ(رَجُلا قَالَ: والله لا يَغْفِرُ الله لِفُلان، وَإِنَّ الله تَعَالَى قَالَ: (مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لِفُلان، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلان، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ) أَوْ كَمَا قَالَ.

وروى أبو داود في سننه: عن أبي هُرَيْرَةَ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: (كَانَ رَجُلانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ.

فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ. فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟

فَقَالَ: واللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، أَوْ لاَ يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ .

فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لِهَـذَا الْمُجْتَهِـدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ، فَادْخُلِ الْجَنَّـةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ).

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ.

تخريج الحديث

هـذا الحديث رواه مسلم في صحيحه في كتـاب البر والصلـة والآداب، ٢٠٢٢/٤. ورقمه: ٢٦١٨. انظر شرح النووي على مسلم: ١٣٣/١٦.

ورواه أبو داود في سننه في كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، ورقمـه: ١٩٠١. وانظر صحيح سنن أبي داود: ٩٢٦/٣ ورقمه: ٤٠٩٧.

غريب الحديث

يتألى: يحلف، والألية: اليمين.

أحبطت: أبطلت.

أوبقت: أهلكت.

شرح الحديث

يحدثنا الرسول ﷺ في هـذا الحديث عن رجلين من بني إسرائيل، كانا صديقين متآخيين، وكان أحدهما مجتهـدا في عبادته، والآخر مقصرا في أداء ما وجب عليه.

وكان المجتهد في العبادة يرى صاحبه يرتكب الذنوب والمعاصي، فينكر عليه وينهاه، وهذا أمر طيب مطلوب مشروع، وقد جاءت الشرائع كلها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان الرجل المذنب يضيق ذرعا بإنكار صديقه عليه، ولما اشتد عليه صاحبه بالإنكار يوما قال له: خلني وربي، أبعثت علي رقيبا؟ عند ذلك حلف العابد ـ ويا لهول ما حلف ـ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة.

وما كان لهذا العابد أن يتألى على الله ﷻ، فالله له الأمر كله، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، يهب الخيرات ويمسكها، يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، يهدي ويضل، وما كان لعبد من عباد الله أن يحجر على ربه أن يغفر لفلان أو يحبط عمل فلان، لقد تكلم هذا المسكين، كما قال أبو هريرة راوي الحديث بكلمة أوبقت عليه دنياه وآخرته، فقد قبض الله روحيهما، فاجتمعا عنده، وقال لذلك المتألي: موبخا مؤنبا: أو كنت بي عالما ؟ أو كنت على ما في يدي قادرا ؟ وأمر بإدخاله النار، وأمر بإدخال المذنب الجنة.

عبر الحديث وفوائده

١ ـ القول على الله بغير علم من أعظم الكبائر التي توبق عمل صاحبها، ومن ذلك دعوى هذا الرجل أن الله لا يغفر لفلان، فالله لا يعجزه شيء أراده، ورحمته واسعة.

٢ ـ على المسلم أن يتوخى الحيطة والحذر في معاملته لربه تبارك وتعالى، فيقف موقف العبودية، يعمل بطاعة الله، ويأتمر بأمره، ويصبر على دعوة الناس، ولا يتسرع في الحكم عليهم.

٣ ـ الخوف من سوء الخاتمة، فقد دخل العابد النار، ودخل العاصي الجنة.

٤ ـ في الحديث دليل لأهل السنة الذين يقولون بأن الله يغفر الذنوب من غير توبة

إن شاء، كما غفر لهذا العاصي، وهو مصر على ذنوبه كما يدل عليه الحديث.

القصة الخمسون

قصة المرأة التي دخلت النار في هرة

تمهيد

إن القلوب القاسية، والطباع المنحرفة، تلقي بأصحابها إلى النار، ذلك أنها بخلوها من الرحمة لا تبالي بما فعلته بالآخرين، فتقتل وتضرب وتفسد، وبذلك أهلك هؤلاء أنفسهم بسبب ما فعلوه بالآخرين، ومن هؤلاء هذه المرأة التي حدثنا عنها الرسول ﷺ، فقد حبست هرة حتى ماتت جوعا وعطشا، فدخلت بها النار.

نص الحديث

روى البخاري عَن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ).

وفي رواية عند البخاري: (عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ).

وقد رأى الرسول ﷺ هذه المرأة التي ربطت الهرة في النار عندما رأى الجنة والنار في صلاة الكسوف، ففي صحيح البخاري عن أسماء بنت أبي بكر أن الرسول ﷺ قال: (وَدَنَتْ مِنِّي النَّارُ حَتَّى قُلْتُ: أَيْ رَبِّ وَأَنَا مَعَهُمْ؟ فَإِذَا امْرَأَةٌ. حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: تَخْدِشُهَا هِرَّةٌ، قُلْتُ: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟ قَالُوا: حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، لا أَطْعَمَتْهَا، وَلا أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ . قَالَ نَافِعٌ حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: مِنْ خَشِيشٍ أَوْ

خَشَاشِ الأَرْضِ).

وروى مسلم حديث رؤية الرسول ﷺ المرأة التي ربطت الهرة في النار عن جابر، وفيه أن المرأة كانت من بني إسرائيل، وفي رواية أخرى أنها كانت حميرية.

تخريج الحديث

حديث الهرة في صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في إناء أحدكم. ٣٥٦/٦. ورقمه: ٣٣١٨. وفي كتاب أحاديث الأنبياء ورقمه: ٣٤٨٢. وفي كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء: ٤١/٥. ورقمه: ٢٣٦٥.

ورواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة وعبدالله بن عمر في كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، ١٧٦٠/٤. ورقمه: ٢٢٤٢، ٢٢٤٣.

وحديث رؤية الرسول ﷺ المرأة التي ربطت الهرة رواه البخاري في صحيحه في كتاب الأذان عن أسماء بنت أبي بكر: ٢٣١/٢. ورقمه: ٧٤٥.

وفي كتاب المساقاة باب فضل سقي الماء، ٤١/٥ ورقمه: ٢٣٦٤.

أما رواية مسلم لحديث رؤية الرسول ﷺ لمعذبة الهرة، فهي في كتاب الكسوف، باب ما عرض على رسول الله ﷺ في صلاة الكسوف، ٦٢٢/٢. ورقمه: ٩٠٤.

غريب الحديث

في هرة: أي بسبب هرة.

خشاش الأرض: هوام الأرض وحشراتها.

الشرح والبيان

هـذه قصـة امـرأة حميريـة إسـرائيلية، حبسـت هـرة، ومنعـت عنهـا الطعـام والشراب، فهلكت جوعا وعطشا، وهذا يـدل علـى قسوة في طبـع هـذه المـرأة، وسوء في خلقها، وفقدها للرحمة والشفقة، وقصدهـا لـلأذى، فلـو كـان في قلـب هذه المرأة رحمة لرحمت هذه القطة، ولعلها وقد حبسـتها كـانت تمـوء ليـل نهـار، وهـي تعـاني الجـوع والعطـش، وصـوت الهـرة في هـذه الحـال يحمـل الاسـتجداء والاستغاثة، وهو صوت مميز يدركه العارفون بأصوات الحيوان، ولكن قلـب هـذه المرأة المتحجر لم يستجب لنداء الهرة، ولم يقبل رجاءها وتوسلها، وبقـي الصـوت يخفت حتى انقطع، وماتت الهرة تشكو إلى ربها ظلـم الإنسـان، وقسـوته وتحجـر قلبه.

لقد كان بإمكان تلك المرأة إن كانت تريد القطة في منزلهـا أن تقـدم لهـا مـا يحفظ حياتها من الطعام والشراب، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أننا نؤجر في الإحسان إلى البهائم، فإن أبت أن تقدم لها ما يقيم أودها ويحفـظ حياتهـا، فعليهـا أن تخلي سبيلها، وتتركها تنطلق في أرض الله الواسعة، فلن تعدم وجود ما يقيتهـا، ويحفـظ حياتها، خاصة وأن الله قد جعل لها رزقا فيما يلقيه الناس مـن بقايـا الطعـام، ومـا تصطاده من الحشرات والهوام.

وقد أهلك هذا العمل هذه المرأة، ودخلت بسببها النـار، وقـد رأى الرسـول ﷺ هذه الهرة، وهي تهاجم المرأة التي حبستها في النار، فتحـدث بهـا خدوشـا في وجهها وجسدها، رآها كذلك عندما مثلت له الجنـة والنـار في صلاتـه لكسـوف الشمس.

فوائد الحديث وعبره

١ ـ بيان عظم وزر الذين يعذبون الحيوان ويعتدون عليه بالضرب والقتل، فقد أدخلت هذه المرأة النار لتسببها في موت الهرة.

٢ ـ يجوز للإنسان حبس الحيوانات من القطط والطيور ونحوها إذا قدم لها طعامها وشرابها، فإن عجز عن ذلك، أو بخل عليها بالطعام فليخل سبيلها، ويطلقها في أرض الله الواسعة، تطلب رزقها بنفسها.

٣ ـ يعذب الإنسان في آخرته بمثل ما أساء به، فهذه المرأة تمثل لها القطة في النار تهاجمها، وتخدش جسدها.

القصة الحادية والخمسون

الذي ارتكب الموبقات بشربه الخمر

تمهيد

هذا رجل تعبد، فأراد المتسلطون في الأرض إفساده، بإجباره على ارتكاب موبقة من الموبقات التي خيروه بينها، فاختار الخمر، ظانا أنه اختار أهونها، فإذا بالخمر توقعه في الموبقات كلها، فقد قتل وزنا وأكل لحم الخنزير بعد شربه لها، فأوبق دنياه وآخرته.

ثانيا: نص الحديث

روى النسائي عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: (اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ، فَإِنَّهَا أُمُّ الْخَبَائِثِ، إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ خَلا قَبْلَكُمْ تَعَبَّدَ، فَعَلِقَتْهُ امْرَأَةٌ غَوِيَّةٌ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ جَارِيَتَهَا، فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّا نَدْعُوكَ لِلشَّهَادَةِ، فَانْطَلَقَ مَعَ جَارِيَتِهَا، فَطَفِقَتْ كُلَّمَا دَخَلَ بَابًا أَغْلَقَتْهُ دُونَهُ، حَتَّى أَفْضَى إِلَى امْرَأَةٍ وَضِيئَةٍ عِنْدَهَا غُلامٌ وَبَاطِيَةُ خَمْرٍ، فَقَالَتْ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا دَعَوْتُكَ لِلشَّهَادَةِ، وَلَكِنْ دَعَوْتُكَ لِتَقَعَ عَلَيَّ، أَوْ تَشْرَبَ مِنْ هَذِهِ الْخَمْرَةِ كَأْسًا، أَوْ تَقْتُلَ هَذَا الْغُلامَ.

قَالَ فَاسْقِينِي مِنْ هَذَا الْخَمْرِ كَأْسًا، فَسَقَتْهُ كَأْسًا، قَالَ: زِيدُونِي، فَلَمْ يَرِمْ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا، وَقَتَلَ النَّفْسَ، فَاجْتَنِبُوا الْخَمْرَ، فَإِنَّهَا وَاللَّهِ لا يَجْتَمِعُ الإِيمَانُ وَإِدْمَانُ الْخَمْرِ إِلا لَيُوشِكُ أَنْ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ) .

أَخْبَرَنَا سُوَيْدٌ، قَالَ: أَنْبَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ الْمُبَارَكِ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرِ ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ أَنَّ أَبَاهُ قَالَ: سَمِعْتُ

عُثْمَانَ يَقُولُ: (اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ، فَإِنَّهَا أُمُّ الْخَبَائِثِ، فَإِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ خَلا قَبْلَكُمْ يَتَعَبَّدُ وَيَعْتَزِلُ النَّاس) . فَذَكَرَ مِثْلَهُ، قَالَ: (فَاجْتَنِبُوا الْخَمْرَ فَإِنَّهُ واللهِ لا يَجْتَمِعُ وَالإِيمَانُ أَبَدًا إِلا يُوشِكُ أَحَدُهُمَا أَنْ يُخْرِجَ صَاحِبَهُ).

وروى الطبراني في الأوسط عن عبدالله بن عمرو، أن أبا بكر الصديق وعمر ابن الخطاب وناساً من أصحاب رسول الله ﷺ جلسوا بعد وفاة رسول الله ﷺ، فذكروا أعظم الكبائر، فلم يكن عندهم فيها علم [ينتهون إليه].

فأرسلوني إلى عبدالله بن عمرو بن العاص أسأله عن ذلك، فأخبرني: أن أعظم الكبائر شرب الخمر.

فأتيتهم فأخبرتهم، فأنكروا ذلك، ووثبوا إليه جميعاً، [حتى أتوه في داره]، فأخبرهم أن رسول الله ﷺ قال: (إن ملكاً من بني إسرائيل أخذ رجلاً، فخيره بين أن يشرب الخمر، أو يقتل صبياً، أو يزني، أو يأكل لحم الخنزير، أو يقتلوه إن أبى، فاختار أن يشرب الخمرَ، وإنه لما شربها لم يمتنع من شيء أرادوه منه) وإن رسول الله ﷺ قال لنا حينئذ: (ما من أحد يشربها فتقبل له صلاة أربعين ليلةً، ولا يموت وفي مثانته منها شيء إلا حُرمت عليه الجنةُ، وإن ماتَ في الأربعين ماتَ ميتةً جاهليةً).

تخريج الحديث

حديث عثمان رواه النسائي في سننه: ٣١٥/٨ موقوفا عليه. وهو في صحيح سنن النسائي: ٤٦/٣. ورقمه: ٥٢٣٦.

وحديث عبدالله بن عمرو بن العاص رواه الطبراني في الأوسط بإسناد صحيح مرفوعا، انظر تخريجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٤٣٨/٦. ورقمه: ٢٦٩٥.

غريب الحديث

علقته: عشقته وأحبته.

باطية خمر: إناء فيه خمر.

لم يرم: لم يبرح.

إدمان الخمر: ملازمتها والدوام عليها.

شرح الحديث

حديث عثمان روي مرفوعا وروي موقوفا عليه[1]، والمحفوظ الثاني، أما القصة الثانية فقد رواها الطبراني في الأوسط بإسناد صحيح مرفوع.

والذي يظهر لي من التأمل والتدبر في الحديثين أنهما واقعة واحدة، وقعت أيام الفساد الذي ساد المجتمع الإسرائيلي، ويبدو أن هذا الرجل الذي تعبد كان رجلا معروفا، إما أن يكون وجيها، أو من أعوان الملك، أو من الذين لهم أتباع في المجتمع، فخشي الملك أن يؤثر تعبده فيمن حوله، وأمثال هذا الملك الفاسد يحرصون على إفساد أمثال هؤلاء الرجال.

ويبدو أن هذا الملك طلب من تلك المرأة الغوية الفاسدة أن تقوم بهذه المهمة، فخيرته بأن يفعل واحدة من الموبقات التي عرضوها عليه، وظاهر من الحديث أن مرادهم هو تحطيم معاني الإيمان في نفسه، وتدنيسه بارتكاب الموبقات، ولا يهمهم أن يفعل موبقة بعينها، المهم هو أن يفعل ما يبعده عن دينه، ويقطع صلته بربه.

وقد استدرجته تلك المرأة إلى منزلها بحيلة، فقد أرسلت إليه تدعوه للشهادة، والأخيار لا يرفضون الاستجابة لتحمل الشهادة، فلهم في ذلك أجر وثواب،

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٦/٤٣٩.

ويبدو أن الرجل كان مغفلا، فلو كان فطنا لاحتاط لأمره، بأن يأخذ معه من يفسد مخطط هذه المرأة ومن وراءها، فلما دخل دارها، أغلقت الأبواب من ورائه، وأصبح أسيرا بين يديها.

ويظهر من الحديث أن هذه المرأة الغوية كانت صاحبة مال، تعيش في بيت مترف، ولم يكن حالها حال المومسات اللواتي يرتزقن بزناهن، فهذه المرأة من الطبقة الراقية القريبة من الأسرة الحاكمة التي تحرص على إشاعة الفاحشة، ولذا فإن هذه المرأة إذ خيرت الرجل بين ارتكاب موبقة من الموبقات اللاتي أعدتهن كانت تضرب بسيف الملك، فقد تهددته بالقتل إن لم يفعل.

يدلك على صحة هذا الاستنتاج أن هذه المرأة لم تكن مغرمة بهذا الرجل، فلو كانت إنما دعته لعشقها إياه، وغرامها به لطلبت منه مواقعتها فحسب، ولكنها لم تقتصر على طلب الفاحشة، وأعلنت له أنها ترضى منه بقتل الصبي، أو أكل الخنزير، أو الزنى بها، أو شرب الخمر، المهم عندها أن تلوثه حتى يذهب عنه صفاؤه، ويغوص مرة أخرى في حمئة الرذيلة.

ولو كان هذا الرجل حصيفا، قوي الإيمان لرفض كل العروض، واختار موت الصالحين على حياة الفاسقين، فالموت غاية كل حي، واختيار الحياة العفنة الفاسدة لا ينجيه من الموت، لقد اختار هذا الرجل ما ظنه أهون الشرور، فإذا به أعظم الشرور، فالخمر مفتاح الإثم، لقد شرب الخمر، فغاب عنه عقله، وفقد إدراكه، وعند ذلك ارتكب كل الموبقات التي عرضت عليه، فقد قتل الصبي، وارتكب الزنا، وأكل لحم الخنزير.

وقد بين الرسول ﷺ في خاتمة حديثه الآثار الخطيرة التي تترتب على شرب الخمر، فشاربها لا تقبل له صلاة أربعين ليلة، وإذا مات وفي جسده منها شيء حرمت عليه الجنة، وإن مات في الأربعين التالية لشربها مات ميتة جاهلية.

عبر الحديث وفوائده

١ - بيان إثم الخمر، وبيان ما يترتب على شربها من مفاسد وشرور.

٢ - حرص الفاسدين على إفساد الصالحين، وإيقاعهم في الموبقات والذنوب، كما فعل الملك وهذه المرأة الغوية بذلك الرجل الذي اتجه إلى الاستقامة.

٣ - على المسلم أن يحتاط لنفسه، كي لا يقع في حبائل الغواة والغاوين، من شياطين الجن والإنس.

٤ - على المسلم أن يعتصم بربه في مثل الحال الذي وقع فيها ذلك الرجل، ولو أدى به إلى الموت، فالموت في هذه الحال خير له من الحياة.

٥- تحريم الخمر والخنزير والزنا والقتل على بني إسرائيل.

القصة الثانية والخمسون

الذين دخلوا القرية يزحفون على أدبارهم

تمهيد

تحكي هذه القصة الجحود والنكران في مقابلة التكريم والإحسان، فقد أمر الله بني إسرائيل أن يدخلوا قرية من قرى الأرض المقدسة فاتحين خاضعين لله، داعينه بالمغفرة والرحمة، فبدلوا قولا غير الذي قيل لهم، دخلوها على أدبارهم يزحفون، منادين فعل السفهاء بألفاظ جوفاء، مبدلين كلام الله، فاستحقوا أن ينزل الله على الظالمين منهم رجزا من السماء.

نص الحديث

روى البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ [البقرة: ٥٨]، فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ).

ورواه مسلم بلفظ: (قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا: حِطَّةٌ يُغْفَرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ، فَبَدَّلُوا فَدَخَلُوا الْبَابَ يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ).

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى: ٤٣٦/٦. ورقمه: ٣٤٠٣. وفي كتاب التفسير، في تفسير سورة البقرة، ١٦٤/٨. ورقمه: ٤٤٧٩، وفي تفسير سورة الأعراف، ٣٠٤/٨. ورقمه: ٤٦٤١ . ورواه مسلم في كتاب التفسير: ٢٣١٢/٤. ورقمه: ٣٠١٥.

غريب الحديث

حطة: أي احطط عنا خطايانا.

فبدلوا: غيروا.

أستاههم: أدبارهم.

شرح الحديث

أخبرنا الله تبارك وتعالى في محكم التنزيل أنه أمر بني إسرائيل أن يدخلوا إحدى مدائن الأرض المقدسة ساجدين، أي خاضعين متذللين لله، من غير كبر ولا استعلاء، وأن يدعوا الله وهم داخلون أن يحط عنهم خطاياهم، ويغفر لهم ذنوبهم، ولكنهم لم يدخلوها كما علمهم ربهم، ولم يقولوا كما أمرهم أن يقولوا، دخلوها يزحفون على أدبارهم، ويقولون: حنطة في شعيره، أو شعرة، فأنزل الله عليهم رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ، فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة : ٥٨ - ٥٩].

لقد واجه هؤلاء الظالمون نعمة الله عليهم بالكفران، فلم يأتمروا بما أمرهم به، ولم يشكروا نعمه عليهم، أين هذا من حال الرسول ﷺ وأصحابه عندما دخلوا مكة فاتحين خاضعين متذللين، حتى أن رأس رسول الله ﷺ كان يمس رحله في دخوله مكة متذللا خاضعا لله.

عبر الحديث وفوائده

١ - بيان عظم وزر المبدلين لأمر الله وشرعه، الكافرين بأنعمه، المحرفين لكلامه، كما فعل هؤلاء الظلمة من بني إسرائيل.

٢ - كان في بني إسرائيل حتى في عهد الرعيل الأول أقوام قساة القلوب، نفوسهم عفنة، وعقولهم منحرفة، ومنهم هؤلاء الذين حدثنا الوحي عن ضلالهم وتمردهم على ربهم.

٣ - التعاليم التي وجهها الله لبني إسرائيل، وحدثنا عنها القرآن والحديث النبوي من دخول الفاتحين المسلمين خاضعين لربهم، داعين الله أن يغفر لهم، تمثل الصورة التي يجب أن يكون عليها الفاتحون المسلمون في كل العصور والأمكنة.

٤ - الغنائم المحرمة على بني إسرائيل كانت مقصورة على الذهب والفضة والأثاث واللباس ونحو ذلك، أما ما يؤكل من الحيوان والنبات فلم يكن محرما عليهم، فقد أباح الله للذين أُمِرُوا بدخول تلك القرية الأكل منها حيث شاءوا ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨] .

القصة الثالثة والخمسون

قصة دس جبريل التراب في فم فرعون

تمهيد

هذه قصة تبين لنا مدى البغض الذي كان يحمله جبريل عليه السلام لفرعون الطاغية، حتى أنه عندما قال ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَاءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، حال غرقه، خشي أن تدركه رحمة الله، فأخذ يدس التراب في فمه، ليمنعه من النطق بكلمة التوحيد.

نص الحديث

روى الترمذي في سننه عن ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (لَمَّا أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ قَالَ: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَاءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، فَلَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ، فَأَدُسُّهُ فِي فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ) .

قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وفي رواية أن النبي ﷺ ذَكَرَ(أَنَّ جِبْرِيلَ ﷺ جَعَلَ يَدُسُّ فِي فِي فِرْعَوْنَ الطِّينَ خَشْيَةَ أَنْ يَقُولَ: لا إِلَهَ إلا اللهُ، فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ أَوْ خَشْيَةَ أَنْ يَرْحَمَهُ اللَّهُ)

قَالَ أَبُو عِيسَى الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

تخريجه

رواه الترمذي في كتاب التفسير، باب من سورة يونس، ٢٨٧/٤ وانظره في صحيح سنن الترمذي: ٦١/٣. ورقمه: ٣٣٢٠، ٣٣٢١. وعزاه محقق جامع الأصول (١٩٢/٢) إلى الترمذي وأحمد وابن جرير وأبي داود الطيالسي.

غريب الحديث

حال البحر: الطين الأسود الذي يكون في أرض البحر.

شرح الحديث

حدثنا القرآن طويلاً عن فرعون وطغيانه وجبروته، وصولته وجولته في وجه الحق، كما أخبرنا عن نزول نقمة الله به وبجنده، عندما أغرقهم فأهلكهم، وقد كان جبريل عليه السلام حاضرا شاهدا، وقد أخبر جبريل رسولنا ﷺ أن فرعون عندما أدركه الغرق، وقال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل أخذ يحشي فمه بطين البحر، حتى لا يمكّنه من النطق بكلمة التوحيد، خشية أن تدركه رحمة الله، ويقبل توبته.

وما فعل جبريل ما فعله إلا من شدة حنقه على ذلك الطاغية الذي أمعن في الكفر والإفساد، ومحاربة الإسلام، وفتنة المؤمنين.

وقد يقال: وما يضير جبريل أن يرحم الله فرعونا، ويغفر له ؟ **والجواب**: أن العبد يصل إلى حالة من الكراهية للظالمين بحيث يدعو الله أن لا يقبل توبتهم، ولا يدخلهم رحمته، وهذا وقع من موسى عليه السلام، فإنه دعى على فرعون وملئه أن يشدّ الله على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ

عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيـمَ﴾ [يونس : ٨٨].

وقد يقال: أليس مقررا أن الله لا يقبل التوبة عند حلول العذاب، وعند الغرغرة، فكيف ظن جبريل أن الله يمكن أن يغفر لفرعون، وهو في هذه الحال ؟
والجواب: أن جبريل عمل بمقتضى ظنه من غير التفات إلى علمه، والله أعلم.

عبر الحديث وفوائده

١ ـ عظم رحمة الله، فقد خشي جبريل وهو أعلم الخلق بالله أن تنال رحمة الله فرعون عندما نطق بكلمة التوحيد في غرقه.

٢ ـ فضل كلمة التوحيد، فإن جبريل خشي أن يرحم الله بها فرعون الكافر، فكيف إذا قالها العبد في حال الصحة والعافية موقنا بها، لا شك أن في ذلك أجر عظيم وثواب جزيل.

٣ ـ شدة بغض الملائكة للكفرة المجرمين، حتى أن جبريل كان يدس التراب في فم فرعون عند نزول العذاب به.

القصة الرابعة والخمسون

المرأة التي اتخذت رجلين من خشب

تمهيد

هذه قصة من قصص بني إسرائيل، وقعت أيام اشتغال بني إسرائيل بالمظاهر الكاذبة، وقد أدى ذلك بهم إلى الدمار والهلاك، فقد قل فيهم التقى والصلاح، وكثر الفساد والاشتغال بسفاسف الأمور، فسلط عليهم أعداءهم فهزموهم وأذلوهم.

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن صورة من صور الفساد والعناية بالمظاهر الكاذبة في المجتمع الإسرائيلي، فقد اتخذت امرأة قصيرة رجلين من خشب لإطالة قامتها، وصنعت خاتما على طريقة تحفظ في جوفه المسك، لتثير بعبيرها شهوة الرجال حين تمر عليهم.

نص الحديث

روى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: (كَانَتِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَصِيرَةٌ، تَمْشِي مَعَ امْرَأَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ، فَاتَّخَذَتْ رِجْلَيْنِ مِنْ خَشَبٍ، وَخَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ مُغْلَقٌ مُطْبَقٌ، ثُمَّ حَشَتْهُ مِسْكًا، وَهُوَ أَطْيَبُ الطِّيبِ، فَمَرَّتْ بَيْنَ الْمَرْأَتَيْنِ فَلَمْ يَعْرِفُوهَا، فَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا) وَنَفَضَ شُعْبَةُ يَدَهُ.

وفي رواية أحمد: (فَكَانَتْ إِذَا مَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ حَرَّكَتْهُ، فَنَفَحَ رِيحُهُ).

ورواه ابن خزيمة في التوحيد عن أبي سعيد أو جابر أن النبي ﷺ خطب

خطبة فأطالها، وذكـر فيهـا أمـر الدنيـا والآخـرة، فذكـر (إِنَّ أَوَّلَ مَـا هَلَـكَ بَنُـو إِسْرائيلَ أَنَّ امرَأَةَ الفَقِيرِ كَانَتْ تُكَلِّفُهُ مِنَ الثِّيابِ أَوْ الصِّيَغِ أَوْ قَالَ: مِن الصِّيغَـةِ مَـا تُكَلِّفُ امْرَأَةَ الغني، فَذَكَرَ امرأةً مِنْ بني إِسْرَائِيلَ كانتَ قَصِيرةً واتَّخذَتْ رِجْلَينِ مِنْ خِشَبَ، وَخَاتَماً لَهُ غَلْقٌ وَطَبَقٌ ، وَحَشَتْهُ مسْكًا، وَخَرجَتْ بَيْنَ امْرَأتيْـنِ طَوِيلَتَـيْنِ، أَوْ جسيمَتَيْنِ، فَبَعَثُوا إنساناً يَتْبَعُهمَ، فَعَرَفَ الطويلتَينِ، وَلَمْ يَعْرِفْ صَاحِبةَ الرِّجْلَـيْنِ مِنْ خَشَبٍ).

تخريج الحديث

رواه مسلم في كتاب الألفـاظ مـن الأدب وغيرهـا، بـاب استعمال المسـك. ١٧٦٥/٤. ورقمه: ٢٢٥٢. وهو في شرح النووي على مسلم: ٤١٠/١٥.

ورواه ابن خزيمة في التوحيد كما يذكر الشيخ ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: ١٤٠/٢، وعزاه أيضا إلى أحمد في مسنده: (٤٦/٣).

شرح الحديث

ذكر الرسول ﷺ هذه القصة في خطبة وعظ فيها أصحابه، ورهبهم من فتنـة الدنيا، ورغبهم في أمر الآخرة، وحذرهم فيها من أن يقعوا في مثل ما وقع فيه بنـو إسرائيل من قبلهم، وبين لنا كيف كانت بداية الفساد الـذي أدى إلى هلاكهـم، فقد أخذ الأغنياء ينفقون الأموال الكثيرة على المظاهر من اللباس والحلي والأطعمة ونحوها، ومن ذلك البذخ في نفقـات الـزواج، وتشبه الفقـراء بالأغنيـاء، فكـانت امرأة الفقير تكلفه أن يشتري لها من الثياب والحلي مثل ما يشتري الغني لزوجته.

ونحن نعلم مدى البلاء الذي يوقعه هذا التصرف في المجتمـع، فـالزوج الفقـير يتكلف التكاليف الباهظة التي ترهقـه، وتجعلـه يعمـل ليـل نهـار، ليهيـيء لزوجتـه مطالبها، وقد لا يستطيع، فيبيع منزله أو أرضه التي يكون منها رزقـه، وقـد تدفعـه

إلى الاستدانة، وتحميل نفسه ذل السؤال، وقد يستدين بالربا، فيكثر دينه، ويعجز عن السداد، إلى غير ذلك من البلايا التي نراها في المجتمعات المعاصرة.

وإذا استشرى هذا المرض في المجتمعات انشغل الرجال والنساء بابتكار ألوان المظاهر الكاذبة التي تكلف المال الكثير، وتأخذ أوقات الناس، ولست بحاجة إلى التوسع في ضرب الأمثلة في هذا المجال، فالحياة اليوم تموج بألوان كثيرة من (الموضات) والمظاهر في الألبسة المتنوعة المختلفة التي تلفت الأنظار، وفي طريقة تسريح الشعور، وفي أنواع الحلي.

ومن ذلك ما قصه علينا الرسول من اختراع هذه المرأة القصيرة التي كان يزيد من احتقارها لنفسها أنها كانت تسير بين امرأتين طويلتين، فتزداد قماءة، فابتكرت طريقة أطالت فيها قامتها، بأن اتخذت رجلين من خشب، واتخذت خاتما مجوفا له غطاء حشته مسكا، فكانت تخرج بين المرأتين الطويلتين فلا تعرف، وكانت تمر بمجامع الرجال فتفتح خاتمها وتنفضه، فيفوح شذا العطر الذي في الخاتم، وقد استطاعت أن تخفي نفسها، فلم يعرفها الذين أرسلوا للتعرف عليها.

ولا شك أن هذه المرأة كانت تبذل جهدا كبيرا لتبدو طويلة القامة، وكان الواجب عليها أن ترضى بقدر الله ﷻ، وكان عليها أن تعلم أن الله لا ينظر إلى صور العباد وألوانهم، ولكنه ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم، وكم من قصار القامة والمعاقين كبروا بأعمالهم في نظر الناس لما تحلوا به من كريم السجايا والصفات، ولما حصلوه من علوم، ولما أتقنوه من أعمال.

وقد تقدمت الطرق التي تخفي النساء عيوبهن بها، فالشعور الصناعية والطبيعية تصنع للقرعاء شعرا جميلا، وتخفي الشعر القبيح، وهناك الرموش الصناعية، والألوان التي تغير معالم الوجه، أضف إلى ذلك الثياب التي تظهر المفاتن، وتخفي العيوب بطرق فنية مدروسة.

لقد وقعنا فيما حذرنا منه الرسول ﷺ، وسرنا في الطريق الذي سلكته الأمم الهالكة من قبلنا، ولذلك حل بنا ما حل بهم من هلاك.

عبر الحديث وفوائده

١ ـ من ألوان الوعظ المؤثرة حكاية أخبار الغابرين وقصصهم تحذيرا من مثل أعمالهم، كما حذرنا الرسول ﷺ في هذا الحديث من أن نسير مسار بني إسرائيل.

٢ ـ مدى اهتمام النساء قديما وحديثا بالمظاهر الكاذبة الخادعة، كما احتالت هذه المرأة لإطالة قامتها باتخاذ رجلين من خشب .

٣ ـ مدى حرص النساء على إثارة اهتمام الرجال وفتنتهم، كما فعلت هذه المرأة، وتأثر الرجال بذلك، فقد أرسل من مرت عليهم المرأة رجلا ليعرف لهم من هي.

٤ ـ قدرة الناس من قديم الزمان على الصناعة، فلا شك أن الذي أبدع الرجلين من الخشب لتلك المرأة بحيث تستطيع السير بهما من غير أن تسقط صناع ماهر.

٥ ـ المسك أطيب الطيب كما أخبر الرسول ﷺ.

القصة الخامسة والخمسون

وافد عاد

تمهيد

يحكي هذا الحديث طرفا من قصة هلاك عاد قوم هود، وكانوا يسكنون جنوب الجزيرة العربية، فكذبوا رسولهم فأصابهم الله بالقحط والجدب، ولكنهم أصروا على كفرهم، وظنوا أن بإمكانهم رفع البلاء الذي أحاط بهم إن هم أرسلوا وافدهم إلى الأرض المباركة ليدعو لهم بالسقيا، وجهلوا أن المغيث هو الله وأن بإمكانهم أن يدعوه في المكان الذي هم فيه، وأن أعظم سبب يغاثون به هو الإيمان برسولهم المبعوث إليهم.

لقد أساء هؤلاء عندما لم يعلموا كيف يرفع البلاء، وأساءوا مرة أخرى بإسناد مهمة طلب السقيا إلى رجل لا يصلح لها، فماذا كانت النتيجة؟ ذهب هذا الوافد ليمكث شهرا يعاقر الخمر، ويشنف آذانه بسماع الغناء عند صديق له ثري ميسور، وبعد الشهر دعا ربه دعاء البطرين الذين لا يحسنون دعاء الله ولا التعامل معه . وخيره الله بين أنواع من السحب، فاختار سحابة فيها عذاب، دمره ودمر قومه.

لقد كان وافد عاد مشؤوما من قوم ظالمين.

نص الحديث

روى الإمام أحمد في مسنده: عَنِ الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدَ الْبَكْرِيِّ قَالَ: «خَرَجْتُ أَشْكُو الْعَلاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَرَرْتُ بِالرَّبَذَةِ، فَإِذَا عَجُوزٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ مُنْقَطِعٌ بِهَا، فَقَالَتْ لِي: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّ لِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَاجَةً، فَهَلْ أَنْتَ مُبَلِّغِي إِلَيْهِ؟ قَالَ: فَحَمَلْتُهَا، فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ، فَإِذَا الْمَسْجِدُ غَاصٌّ بِأَهْلِهِ، وَإِذَا رَايَةٌ سَوْدَاءُ تَخْفِقُ، وَبِلالٌ مُتَقَلِّدٌ السَّيْفَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: مَا شَأْنُ النَّاسِ؟ قَالُوا يُرِيدُ أَنْ يَبْعَثَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَجْهًا.

قَالَ: فَجَلَسْتُ، قَالَ: فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ أَوْ قَالَ رَحْلَهُ، فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لِي، فَدَخَلْتُ فَسَلَّمْتُ، فَقَالَ: (هَلْ كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي تَمِيمٍ شَيْءٌ) . قَالَ: فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ وَكَانَتْ لَنَا الدَّبْرَةُ عَلَيْهِمْ، وَمَرَرْتُ بِعَجُوزٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ مُنْقَطِعٌ بِهَا فَسَأَلَتْنِي أَنْ أَحْمِلَهَا إِلَيْكَ، وَهَا هِيَ بِالْبَابِ، فَأَذِنَ لَهَا، فَدَخَلَتْ.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي تَمِيمٍ حَاجِزًا فَاجْعَلِ الدَّهْنَاءَ، فَحَمِيَتِ الْعَجُوزُ وَاسْتَوْفَزَتْ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِلَى أَيْنَ تَضْطَرُّ مُضَرَكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: إِنَّمَا مَثَلِي مَا قَالَ الأَوَّلُ: مِعْزَاءُ حَمَلَتْ حَتْفَهَا، حَمَلْتُ هَذِهِ، وَلا أَشْعُرُ أَنَّهَا كَانَتْ لِي خَصْمًا، أَعُوذُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَنْ أَكُونَ كَوَافِدِ عَادٍ، قَالَ: (هِيهْ، وَمَا وَافِدُ عَادٍ؟) وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْحَدِيثِ مِنْهُ، وَلَكِنْ يَسْتَطْعِمُهُ.

قُلْتُ: إِنَّ عَادًا قَحَطُوا، فَبَعَثُوا وَافِدًا لَهُمْ يُقَالُ لَهُ: قَيْلٌ، فَمَرَّ بِمُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرٍ، فَأَقَامَ عِنْدَهُ شَهْرًا يَسْقِيهِ الْخَمْرَ، وَتُغَنِّيهِ جَارِيَتَانِ، يُقَالُ لَهُمَا: الْجَرَادَتَانِ، فَلَمَّا مَضَى الشَّهْرُ خَرَجَ جِبَالَ تِهَامَةَ، فَنَادَى، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَجِئْ إِلَى مَرِيضٍ فَأُدَاوِيَهُ، وَلا إِلَى أَسِيرٍ فَأُفَادِيَهُ، اللَّهُمَّ اسْقِ عَادًا مَا كُنْتَ تَسْقِيهِ.

فَمَرَّتْ بِهِ سَحَابَاتٌ سُودٌ، فَنُودِيَ مِنْهَا: اخْتَرْ، فَأَوْمَأَ إِلَى سَحَابَةٍ مِنْهَا سَوْدَاءَ، فَنُودِيَ مِنْهَا: خُذْهَا رَمَادًا، رِمْدِدًا لا تُبْقِي مِنْ عَادٍ أَحَدًا. قَالَ: فَمَا بَلَغَنِي أَنَّهُ بُعِثَ

عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ إلا قَدْرَ مَا يَجْرِي فِي خَاتِمِي هَذَا، حَتَّى هَلَكُوا) .

قَالَ أَبُو وَائِلٍ: وَصَدَقَ، قَالَ: فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ وَالرَّجُلُ إِذَا بَعَثُوا وَافِدًا لَهُمْ، قَالُوا: لا تَكُنْ كَوَافِدِ عَادٍ » .

تخريج الحديث

الحديث رواه أحمد في مسنده: ٤٨٢/٣، وذكر له روايتان متقاربتان في اللفظ.

ورواه الترمذي في كتاب التفسير، باب من سورة يونس، (٣٩١/٥، ٣٩٢) ورقمه: ٣٢٧٣، ٣٢٧٤.

غريب الحديث

الربذة: قرية قريبة من المدينة.

منقطع بها: ليس معها من يحملها إلى الموضع الذي تريده.

الدبرة: الغلبة.

الدهناء: صحراء معروفة في الجزيرة العربية.

معزى حملت حتفها: مثل يضرب لمن يفعل فعلا عاد بالضرر على نفسه.

القيل: لقب كان يطلق على من هو أقل رتبه من الملك في حكام اليمن.

الجرادتان: مغنيتان كانتا بمكة في الزمن الأول مشهورتان بحسن الصوت والغناء.

خفقت الرايات: صوت الراية إذا حركها الهواء.

رمادا رمددا: الرماد معروف، والرمدد: أدق ما يكون من الرماد.

الريح العقيم: هي الريح التي تلقح الشجر، ولا تأتي بالمطر.

الرميم: البالي.

شرح الحديث

هذا صحابي يدعى الحارث بن يزيد، وقيل: الحارث بن حسان، أرسله قومه ربيعة وافدا إلى الرسول ﷺ شاكيا إليه العلاء بن الحضرمي، ومر في طريقه بالربذة، وهي مدينة قريبة من مدينة الرسول ﷺ، فوجد فيها عجوزا انقطعت بها السبل، تريد رسول الله ﷺ، فرجته أن يحملها معه إلى رسول الله ﷺ لما علمت أنه متوجه إليه.

وعندما قدم المدينة، وجد المدينة تموج بالحركة، ووجد جموعا من المقاتلين غص بهم المسجد وما حوله، وبلالاً متقلداً سيفه بين يدي رسول الله ﷺ.

وسأل عن جلية الأمر، فقيل له: إن الرسول ﷺ يريد أن يبعث عمرو بن العاص في سرية إلى بعض الجهات، وفي رواية في مسند أحمد أن عمرو بن العاص قدم من بعث بعثه إليه الرسول ﷺ، ويحتمل أنه قدم من بعث، ويريد أن يبعثه بعثا آخر.

ودخل الحارث على رسول الله ﷺ، وبعد السلام سأله الرسول ﷺ عما بين قومه وبني تميم، فأخبره أن حربا ثارت في الجاهلية بينهم وبين بني تميم، وكان النصر فيها لربيعة، وأخبره بشأن المرأة التي حملها معه من الربذة، وهي من بني تميم، وأنها بالباب تنتظر إذنه لها بالدخول، فأذن لها الرسول ﷺ، وهنا صرح الحارث بطلبته التي حملها إياه قومه، فقد طلب من الرسول ﷺ أن يجعل بين ربيعة وبني تميم حاجزا، وذلك بإعطاء الدهناء لربيعة، فإنها كانت ديارهم في الجاهلية.

فما كادت العجوز التميمية تسمع مقالة الحارث حتى ثارت وغضبت، وقالت للرسول ﷺ منتصرة لقومها: وأين تضطر مضرك ؟ تعني أين تذهب بقبيلة مضر عندما تعطي الدهناء لربيعة ؟

وهنا أدرك الحارث أنه ضر نفسه وقومه بحمل هذه المرأة إلى الرسول ﷺ لتكون له خصما، وقال متمثلا بقول القائل: (معزى حملت حتفها) أي مثلي

ومثل هذه المرأة كمثل معزى، (وهي الغنمة) التي حملت فوق ظهرها حملا كان فيه حتفها أي موتها، ثم قال: حملت هذه المرأة، ولا أدري أنها خصم لي، ثم استعاذ أن يكون في وفادته للرسول ﷺ كوافد عاد.

وهذا مثل آخر تمثل به هذا الرجل، فقد كانت العرب تقول: فلان كوافد عاد، وهو مثل تضربه العرب للرجل المشؤوم الوفادة، يذهب ليطلب الخير لقومه فيأتيهم بالشر.

وعادٌ إحدى القبائل العربية القديمة، أرسل الله إليهم نبيه هود، فكذبوه، فأصابهم بالمحل والقحط، فأرسلوا أحد زعمائهم إلى مكة البلد الحرام ليستسقي لهم في تلك الديار المباركة لعلهم يسقون.

وهؤلاء الذين طمس على قلوبهم يظنون أن التعامل مع الله كالتعامل مع الملوك الظلمة، يحتاج أن يرسل إليه رئيس من الرؤساء أو زعيم من الزعماء، ولو كان غليظ الطباع، فاجر النفس، ممتلأً كبرا وعجبا، كحال هذا الرجل.

إن العباد الذين يعرفون ربهم عندما يدعونه ويبتهلون إليه في المصائب والملمات ـ كما هو الحال في صلاة الاستسقاء ـ يقدمون رجلا صالحا عابدا مخبتا لربه، مستقيما على أمره لا رجلاً فاجراً، غليظ الطباع، لا يحسن دعاء الله، ولا الابتهال إليه.

خرج وافد عاد إلى تهامة يستسقي لقومه، وهم في كرب وبلاء، فمر بمعاوية ابن بكر، فأقام عنده شهرا، يسقيه الخمر، ويستمتع بغناء جاريتين مشهورتين بالغناء، تدعيان الجرادتان.

أرأيت إلى هذا الوافد الذي يلهو ويستمتع بشهواته وملذاته، تاركا ما أرسل به، مشغولا عنه بأهواء نفسه !!

وبعد أن شبع مما كان فيه، خرج إلى جبال تهامة واستسقى استسقاء ينبيك لفظه عن الحالة النفسية التي كان فيها، وقال: « اللهم إنك تعلم أني لم أخرج إلى مريض فأداويه، ولا أسير فأفاديه، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه ».

أهكذا يكون الدعاء ؟ أين الإخبات إلى الله، والتواضع لجنابه ؟ !! أين حمده وتمجيده، والثناء عليه ؟ كأن الذي يخاطبه هذا الرجل ليس بإله عظيم جبار منتقم قوي قاهر !! أهكذا يقول لله، إنه لم يأت في حاجة خاصة به، وكل الذي طلبه أن يسقي عادا ما كان يسقيه، لم يطلب سقيا الرحمة، ولا السقيا المباركة « اسق عادا ما كنت تسقيه » إنه يطلب السقيا كيف كانت، غير مفرق بين سقيا الرحمة وسقيا العذاب.

ومرت به سحابات من فوقه، فنودي من السحاب أن يختار واحدة من السحب التي يراها، فاختار أشدهن سوادا، وكما أساء في الدعاء، أساء في الاختيار، فقد اختار سحابة العذاب.

فقيل له: خذها رمادا رمددا، أي رمادا دقيقا تحمله ريح عاصف يدمر كل شيء أتى عليه، ومنه قوم ذلك المستسقي، فكان من شأن الريح ما أخبر الله عنها في كتابه. وكان من شؤم هذا الرجل أن دعا للرجل الذي أكرم وفادته، ولعله أصابه ما أصاب قوم عاد.

عبر الحديث وفوائده

١ ـ قد يسلم الناس أمرهم إلى من لا يحسن تمثيلهم والقيام بمصالحهم، فيعود عليهم بالوبال كوافد عاد الذي أساء في النهوض إلى المهمة التي أوفد من أجلها، كما أساء في الدعاء، وفي الاختيار، فهلك قومه بدعائه وسوء اختياره.

٢ ـ يجوز التمثل بأحوال الأمم الغابرة والأخبار الماضية كما فعل الحارث عندما وجد نفسه فعل أمرا عاد بالضرر عليه.

٣ ـ حب النفس الإنسانية لاستماع قصص الغابرين، فالرسول ﷺ وهو من هو في علمه ومعرفته، استمع إلى خبر وافد عاد من الحارث، وهو أعلم به منه.

القصة السادسة والخمسون

الرهبانية عند النصارى

تمهيد

يحدثنا ابن عباس في هذا الحديث الموقوف عليه عن الأسباب التي أدت إلى الرهبانية عند النصارى، وكيف أن أوائل الرهبان خرجوا من ديارهم إلى الفيافي والقفار ورؤوس الجبال كي يحفظوا على أنفسهم دينهم الذي يريد قومهم إخراجهم منه.

وجاء بعدهم أقوام لم يدروا بالأسباب التي أدت إلى الرهبنة، فظنوا أن الرهبنة دين شرعه الله لهم، فاقتدى المتأخرون بالأوائل من غير أن يعرفوا الأسباب التي أدت بأوائلهم إلى الرهبنة، أولئك فروا من أقوامهم خوفا من الشرك والكفر، وكثير من الرهبان من بعدهم ترهبنوا وهم على كفرهم وشركهم، إلا أنه بقي بعض الرهبان في الأديرة والصوامع على منهج الأوائل حتى آمن بقاياهم بالرسول ﷺ، وقد كانوا ينتظرون بعثته، لما علموه من أخباره في التوراة والإنجيل.

نص الحديث

روى النسائي في سننه عن ابن عباس بإسناد صحيح موقوف عليه قال: «كَانَتْ مُلُوكٌ بَعْدَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلامُ بَدَّلُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ،وَكَانَ فِيهِمْ مُؤْمِنُونَ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ،قِيلَ لِمُلُوكِهِمْ: مَا نَجِدُ شَتْمًا أَشَدَّ مِنْ شَتْمٍ يَشْتِمُونَّا هَؤُلاءِ إِنَّهُمْ يَقْرَءُونَ (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)، وَهَؤُلاءِ الآيَاتِ مَعَ مَا يَعِيبُونَا بِهِ فِي أَعْمَالِنَا فِي قِرَاءَتِهِمْ، فَادْعُهُمْ

فَلْيَقْرَءُوا كَمَا نَقْرَأُ، وَلْيُؤْمِنُوا كَمَا آمَنَّا، فَدَعَاهُمْ فَجَمَعَهُمْ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ، أَوْ يَتْرُكُوا قِرَاءَةَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ إِلا مَا بَدَّلُوا مِنْهَا.

فَقَالُوا: مَا تُرِيدُونَ إِلَى ذَلِكَ؟ دَعُونَا، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: ابْنُوا لَنَا أُسْطُوَانَةً ثُمَّ ارْفَعُونَا إِلَيْهَا، ثُمَّ اعْطُونَا شَيْئًا نَرْفَعُ بِهِ طَعَامَنَا وَشَرَابَنَا، فَلا نَرِدُ عَلَيْكُمْ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: دَعُونَا نَسِيحُ فِي الأَرْضِ، وَنَهِيمُ وَنَشْرَبُ كَمَا يَشْرَبُ الْوَحْشُ، فَإِنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْنَا فِي أَرْضِكُمْ فَاقْتُلُونَا. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: ابْنُوا لَنَا دُورًا فِي الْفَيَافِي، وَنَحْتَفِرُ الآبَارَ، وَنَحْتَرِثُ الْبُقُولَ، فَلا نَرِدُ عَلَيْكُمْ، وَلا نَمُرُّ بِكُمْ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْقَبَائِلِ إِلا وَلَهُ حَمِيمٌ فِيهِمْ.

قَالَ: فَفَعَلُوا ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد: ٢٧] .

وَالآخَرُونَ قَالُوا: نَتَعَبَّدُ كَمَا تَعَبَّدَ فُلانٌ، وَنَسِيحُ كَمَا سَاحَ فُلانٌ، وَنَتَّخِذُ دُورًا كَمَا اتَّخَذَ فُلانٌ، وَهُمْ عَلَى شِرْكِهِمْ لا عِلْمَ لَهُمْ بِإِيمَانِ الَّذِينَ اقْتَدَوْا بِهِ.

فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلا قَلِيلٌ انْحَطَّ رَجُلٌ مِنْ صَوْمَعَتِهِ، وَجَاءَ سَائِحٌ مِنْ سِيَاحَتِهِ، وَصَاحِبُ الدَّيْرِ مِنْ دَيْرِهِ، فَآمَنُوا بِهِ، وَصَدَّقُوهُ، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الحديد: ٢٨]، أَجْرَيْنِ بِإِيمَانِهِمْ بِعِيسَى وَبِالتَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَبِإِيمَانِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَتَصْدِيقِهِمْ، قَالَ: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ الْقُرْآنَ ﴾ [الحديد: ٢٨]، وَاتِّبَاعَهُمُ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: ﴿ لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ [الحديد: ٢٩]، يَتَشَبَّهُونَ بِكُمْ ﴿ أَنْ لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الحديد: ٢٩]، الآيَةَ».

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه النسائي في سننه عن ابن عباس موقوفا عليه: ٨/ ٢٣١ .
وانظر صحيح سنن النسائي: ١٠٩٤/٣. ورقمه: ٤٩٩٠.

غريب الحديث

أسطوانة: منارة مرتفعة من الأرض.

لا نرد عليكم: أي من ورود الإبل الماء.

نسيح: نسير.

نهيم: من هام في البراري إذا ذهب من غير أن يكون له وجهة أو مقصد.

إلا وله حميم فيهم: الحميم القريب أو الصديق.

شرح الحديث

وكّل الله حفظ التوراة والإنجيل إلى علماء بني إسرائيل ﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [المائدة : ٤٤]، فحرفوه، إما اتباعا لهوى النفوس أو لأهواء الحكام، إما برضاهم وإما بما أصابهم من وعيد الحكام وعذابهم، وحفظ الله القرآن من التحريف لأن الله تكفل بحفظه، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩].

وكان هذا التحريف بعد رفع عيسى عليه السلام، فالتوراة والإنجيل كانا سالمين من التحريف في حياة عيسى.

ولم يصب التحريف كل نسخ التوراة والإنجيل ، فقد بقي بين أيدي بعض

الأحبار والرهبان نسخا من التوراة والإنجيل على الحالة التي أنزلتا عليها، وكان بعض بني إسرائيل يعلمون الكتاب الحق ويتلونه معرضين عن التوراة المحرفة والإنجيل المحرف.

وكان في قراءة التوراة الصحيحة والإنجيل الصحيح من قبل المستمسكين بالدين الحق ما يؤذي المحرفين، فالتوراة الحقة الصحيحة السالمة من التحريف توجب على أتباعها الحكم بما أنزل الله فيها، وتصم الذين لا يحكمون بها بالكفر والظلم، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة : ٤٤].

ووصم الذين لا يحكّمون الإنجيل بالفسق ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة : ٤٧].

فكانت هذه النصوص من التوراة والإنجيل تؤذي أولئك المحرفين للتوراة والإنجيل، لأنها تصمهم بالكفر والظلم والفسق، أضف إلى هذا النصوص التي كانت تذم أعمالا كثيرة كانوا يعملونها، فطلبوا من ملوكهم إلزام هؤلاء بقراءة التوراة المحرفة والإنجيل المحرف، وأن يلتزموا ما التزموه هم من الإيمان المحرف.

فجمعهم الملك، وتهددهم بالقتل إن لم يتركوا ما هم عليه من الحق المخالف لدين الملك والضالين من قومه، فعرضوا على الملك عروضاً مختلفة، ينجون بها من القتل، ولا يفارقون الحق الذي هم عليه، فبعضهم اختار أن يكون في الصوامع أو الأديرة في رؤوس الجبال، يرفع إليهم الطعام والشراب، ولا يخالطون الناس، واختار بعضهم السياحة في الأرض، يهيمون في أرض الله الواسعة كما تهيم الوحوش، ويشربون من العيون والآبار، ويقتاتون مما يحصلونه من ثمار الأرض، وفريق ثالث طلب أن يبنى لهم في الفيافي البعيدة دور، يعيشون فيها، يحتفرون فيها الآبار، ويأكلون البقول، ولا يردون بعد ذلك على قومهم، ولا يخالطونهم.

وقد استجاب أقوامهم لهم، فقد كان بينهم من صلات القربى والصداقـة مـا دعاهم إلى إجابة مطالبهم، وعدم الفتك بهم.

وهذا أصل الرهبانية التي ابتدعهـا النصارى، ولكنهـم ابتدعوهـا لتحقيـق مـا أخبر به ابن عباس، وجاء من بعد الرعيـل الأول مـن لم يعلـم السـبب الـذي دعـا أوائلهم إلى العيش في قمم الجبال، والسياحة في الأرض مع الوحوش، أو السـكنى في الفيافي والقفار، وظنوا أن فعل هؤلاء هو الدين والصلاح، فاقتدوا بهم وتأسـوا بهم، وقالوا: نتعبد كما تعبد فلان الراهب، ونسيح كمـا سـاح فـلان في الأرض، فعلوا ذلك وهم مقيمون على شركهم وكفرهم، والأولون فعلوه فرارا من الكفر.

وعند البعثة النبويـة لم يكـن قـد بقـي علـى الحـق الأول إلا قلائـل مـن أهـل الكتاب، منهم الثلاثة الذين قابلهم سلمان الفارسي عليه السـلام، وقـد جـاء بقيـة هؤلاء المؤمنين إلى الرسول ﷺ بعد بعثته من صوامعهم وأديرتهم وسياحتهم فآمنوا به، فكتب الله لهم أجرين: أجر اتباعهم لعيسى، وأجر متابعتهم للرسول الخاتم ﷺ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ، لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد : ٢٨ - ٢٩].

عبر الحديث وفوائده

١ - بيان السبب الذي أدى بالنصارى الأوائل إلى الرهبنة واعتزال المجتمعات الـتي كانوا فيها، فقد كان مقصدهم الفرار بدينهم، والمحافظة على معتقدهـم و لم يكن مقصدهم الانقطاع عن الحياة وترك متعها .

٢ - بيان عظم كراهيـة أهـل البـاطل لأهـل الحـق، ومـدى ظلمهـم لهـم إذا كـان السلطان بأيديهم.

٣ ـ تحريف بني إسرائيل للتوراة والإنجيل، مع بقاء بعض النصارى على الدين الحق لحين بعثة الرسول ﷺ.

٤ ـ ترهب أقوام في الصوامع والجبال جاهلين بالسبب الذي أدى بأوائلهم إلى الرهبنة، فقد ظنوا أن مراد الذين ترهبوا الانقطاع للعبادة.

القصة السابعة والخمسون

أول قسامة في الجاهلية

تمهيد

تعرفنا هذه القصة بأول واقعة قسامة كـانت في الجاهلية، حيث قتل رجل أجيرا عنده، وانتفى من دمه، وحلف ثمانية وأربعون رجلا من قومه على أن صاحبهم لم يقتل ذلك الرجل، وامتنع اثنان من الحلف، ودفعا ما استحق عليهما من الدية بدل الأيمان، فنجيا، وأهلك الله الحالفين، فلم يمض عليهم عام من يوم حلفوا وفيهم عين تطرف.

نص الحديث

روى البخاري في صحيحه: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: « إِنَّ أَوَّلَ قَسَامَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَفِينَا بَنِي هَاشِمٍ، كَانَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ اسْتَأْجَرَهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ فَخِذٍ أُخْرَى، فَانْطَلَقَ مَعَهُ فِي إِبِلِهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ بِهِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ قَدِ انْقَطَعَتْ عُرْوَةُ جُوَالِقِهِ، فَقَالَ: أَغِثْنِي بِعِقَالٍ أَشُدُّ بِهِ عُرْوَةَ جُوَالِقِي، لا تَنْفِرُ الإِبِلُ، فَأَعْطَاهُ عِقَالا فَشَدَّ بِهِ عُرْوَةَ جُوَالِقِهِ، فَلَمَّا نَزَلُوا عُقِلَتِ الإِبِلُ إِلا بَعِيرًا وَاحِدًا.

فَقَالَ الَّذِي اسْتَأْجَرَهُ: مَا شَأْنُ هَذَا الْبَعِيرِ لَمْ يُعْقَلْ مِنْ بَيْنِ الإِبِلِ؟ قَالَ: لَيْسَ لَهُ عِقَالٌ، قَالَ: فَأَيْنَ عِقَالُهُ؟ قَالَ: فَحَذَفَهُ بِعَصًا كَانَ فِيهَا أَجَلُهُ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: أَتَشْهَدُ الْمَوْسِمَ؟ قَالَ: مَا أَشْهَدُ، وَرُبَّمَا شَهِدْتُهُ. قَالَ: هَلْ أَنْتَ مُبْلِغٌ عَنِّي رِسَالَةً مَرَّةً مِنَ الدَّهْرِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَتَبَ: إِذَا أَنْتَ شَهِدْتَ الْمَوْسِمَ فَنَادِ

يَا آلَ قُرَيْشٍ، فَإِذَا أَجَابُوكَ، فَنَادِ يَا آلَ بَنِي هَاشِمٍ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَسَلْ عَنْ أَبِي طَالِبٍ، فَأَخْبِرْهُ أَنَّ فُلانًا قَتَلَنِي فِي عِقَالٍ.

وَمَاتَ الْمُسْتَأْجَرُ، فَلَمَّا قَدِمَ الَّذِي اسْتَأْجَرَهُ أَتَاهُ أَبُو طَالِبٍ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ صَاحِبُنَا، قَالَ مَرِضَ فَأَحْسَنْتُ الْقِيَامَ عَلَيْهِ، فَوَلِيتُ دَفْنَهُ، قَالَ: قَدْ كَانَ أَهْلَ ذَاكَ مِنْكَ. فَمَكُثَ حِينًا، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي أَوْصَى إِلَيْهِ أَنْ يُبْلِغَ عَنْهُ وَافَى الْمَوْسِمَ، فَقَالَ: يَا آلَ قُرَيْشٍ، قَالُوا: هَذِهِ قُرَيْشٌ، قَالَ: يَا آلَ بَنِي هَاشِمٍ، قَالُوا: هَذِهِ بَنُو هَاشِمٍ، قَالَ: أَيْنَ أَبُو طَالِبٍ؟ قَالُوا: هَذَا أَبُو طَالِبٍ، قَالَ: أَمَرَنِي فُلانٌ أَنْ أُبْلِغَكَ رِسَالَةً، أَنَّ فُلانًا قَتَلَهُ فِي عِقَالٍ، فَأَتَاهُ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ: اخْتَرْ مِنَّا إِحْدَى ثَلاثٍ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تُؤَدِّيَ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ، فَإِنَّكَ قَتَلْتَ صَاحِبَنَا، وَإِنْ شِئْتَ حَلَفَ خَمْسُونَ مِنْ قَوْمِكَ: إِنَّكَ لَمْ تَقْتُلْهُ، فَإِنْ أَبَيْتَ قَتَلْنَاكَ بِهِ، فَأَتَى قَوْمَهُ، فَقَالُوا: نَحْلِفُ.

فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ كَانَتْ تَحْتَ رَجُلٍ مِنْهُمْ قَدْ وَلَدَتْ لَهُ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أُحِبُّ أَنْ تُجِيزَ ابْنِي هَذَا بِرَجُلٍ مِنَ الْخَمْسِينَ، وَلا تُصْبِرْ يَمِينَهُ حَيْثُ تُصْبَرُ الأَيْمَانُ، فَفَعَلَ. فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَالَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَرَدْتَ خَمْسِينَ رَجُلا أَنْ يَحْلِفُوا مَكَانَ مِائَةٍ مِنَ الإِبِلِ، يُصِيبُ كُلَّ رَجُلٍ بَعِيرَانِ هَذَانِ بَعِيرَانِ، فَاقْبَلْهُمَا مِنِّي وَلا تُصْبِرْ يَمِينِي حَيْثُ تُصْبَرُ الأَيْمَانُ، فَقَبِلَهُمَا.

وَجَاءَ ثَمَانِيَةٌ وَأَرْبَعُونَ، فَحَلَفُوا».

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا حَالَ الْحَوْلُ وَمِنَ الثَّمَانِيَةِ وَأَرْبَعِينَ عَيْنٌ تَطْرِفُ».

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه، في كتاب مناقب الأنصار، باب القسامة في الجاهلية، ١٥٥/٧. ورقمه: ٣٨٤٥.

وهو عند النسائي في كتاب القسامة (٢/٨) والسياق للبخاري.

غريب الحديث

القسامة: الأيمان يقسم بها أولياء الدم على استحقاقهم دم صاحبهم، أو يقسم بها المتهمون على نفي القتل عنهم، مأخوذة من القسم، وهي اليمين، أو من قسمة الأيمان على الحالفين.

فخذ: الفخذ دون القبيلة.

جوالق: وعاء يكون من جلود وغيرها، فارسي معرب.

بعقال: حبل.

فحذفه: رماه.

كان فيها أجله: أي أصاب مقتله، أي كانت السبب في موته.

فمات: أي أشرف على الموت.

الموسم: موسم الحج.

المستأجر: بفتح الجيم الأجير.

تجيز ولدي: أي تهبه ما يلزمه من اليمين، وقيل هي: تجير بالراء من الإجارة.

عين تطرف: تتحرك.

ولا تصبر يمينه: أصل الصبر، الحبس والمنع، ومعناه في الأيمان الإلزام، تقول: صبرته أي ألزمته أن يحلف.

حيث تصبر الأيمان: أي في المكان الذي تصبر فيه الإيمان، وموضعه عندهم بين الركن والمقام.

عين تطرف: تتحرك، أي أنهم أخِذُوا بأيمانهم، فأماتهم الله في عام.

شرح الحديث

القسامة التي أقرتها الشريعة الإسلامية يعمل بها عند عدم وجود بينة تدل على القاتل، فإذا اتهم أولياء الدم رجلا بقتل من يلون أمره حلف خمسون منهم كل واحد منهم يمينا على أن فلان هو الذي قتل صاحبهم، فإن أبوا أن يحلفوا حلف أولياء ذلك الرجل خمسين يمينا وأبرأوا من التهمة، كما قال الرسول ﷺ لأولياء القتيل الذين اتهموا اليهود بقتل قريبهم (يقسم خمسون منكم على رجل منهم فيدفع برمته) فلما أبوا الحلف لعدم شهودهم الأمر، قال ﷺ (فتبرئكم يهود بأيمان خمسين منهم) والحديث في البخاري ومسلم وغيرها[1].

والقسامة مما أقره الإسلام من قضاء أهل الجاهلية، ففي صحيح مسلم والسنن للنسائي أن رسول الله ﷺ « أقر القسامة على ما كانت عليه في الجاهلية ».

وفي رواية عن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ « أن القسامة كانت في الجاهلية، فأقرها رسول الله ﷺ على ما كانت عليه في الجاهلية، وقضى بها بين الناس من الأنصار في قتيل ادعوه على يهود خيبر »[2].

وقد أخبر حبر هذه الأمة ابن عباس رضي الله عنهما عن أول واقعة عمل فيها بالقسامة في الجاهلية، وأنها كانت في رجل من بني هاشم، وكان من أمره أن

---

(١) راجع: جامع الأصول: ١٠/٢٨٠.
(٢) جامع الأصول: ١٠/٢٧٩.

استأجره رجل من قريش ليرعى معه إبلا له، فقتله صاحب الإبل بسبب تفريطه في حبل من الحبال التي يعقل بها الإبل، رماه بعصا، فأصاب منه مقتلا، وقبل أن يسلم الروح مر به رجل من أهل اليمن، فحمله رسالة إلى أهله يخبرهم فيها خبره، وزعم قاتله أنه مرض فمات، فصدقوه.

ولما بلغتهم الرسالة التي حملها اليمني خيَّر أبو طالب القاتل بين ثلاث خصال: إما أن يدي قاتلهم بمائة من الإبل، وإما أن يقسم خمسون من قومه على أنه لم يقتله، فإن أبى حل لهم قتله.

فرضي قومه بالحلف، ونكص منهم اثنان، دفع كل واحد منهما بعيرين، ونجيا من حلف الإيمان، في الموضع العظيم الذي تحلف فيه الأيمان بين الركن والمقام.

وحلف الباقون، وما كانوا صادقين في حلفهم، فما مضى عليهم عام من اليوم الذي حلفوا فيه إلا وأهلكهم الله، فلم تبق منهم عين تطرف.

فوائد الحديث وعبره

١ ـ إقرار الإسلام بعض ما كان عليه الحكم في الجاهلية، ومنه القسامة.

٢ ـ جرأة الحالفين على الله بحلفهم كذبا وزورا، وكيف عجل الله العقوبة لمن حلف به كاذبا.

٣ ـ نجاة الذين أبوا الحلف مخافة الله، فقد كان عند بعض أهل الجاهلية شيء من مخافة الله، وإيمان بأن الله يعاقب من يحلف به كاذبا.

٤ ـ جواز التغليظ على الحالف في الأمر العظيم، فإن كان في مكة يحلف في المسجد بين الركن والمقام، وفي غيرها يحلف في المسجد عند المنبر بعد الصلاة، وقد يغلظ عليه في صيغة اليمين.

المراجع

- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم . دار المعرفة . بيروت .
- تفسير ابن جرير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن) شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي. مصر. الثانية. ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م .
- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم). دار الأندلس. بيروت. الأولى. ١٣٨٥هـ ١٩٦٦م.
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن). دار الكتاب العربي. القاهرة. الثانية. ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.
- جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير . تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط. نشرته مكتبة الحلواني وآخرون. ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م .
- سلسلة الأحاديث الصحيحة لناصر الدين الالباني . المكتب الإسلامي . دمشق. الاولى .
- سنن الترمذي. مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي. القاهرة. ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م .
- سنن النسائي. المكتبة التجارية الكبرى. القاهرة .
- السنن لأبي داود . تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد . المطبعة الكبرى. القاهرة . ٢٣٦٩هـ ١٩٥٠م .
- صحيح الجامع الصغير . للألباني . المكتب الإسلامي . بيروت . الثانية. ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .
- صحيح سنن أبي داود . المكتب الإسلامي . بيروت . الأولى . ١٤٠٩هـ . ١٩٨٠م .
- صحيح سنن الترمذي للألباني. نشره مكتب التربية العربي لدول الخليج. الأولى. ١٣٠٨هـ ١٩٨٨م .

- صحيح سنن النسائي . المكتب الإسلامي . بيروت . الأولى . ١٤٠٩هـ . ١٩٨٨م .
- صحيح مسلم (الجامع الصحيح). تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي. طبعة دار إحياء الكتب العربية. مصر. الأولى. ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م.
- صحيح مسلم بشرح النووي . المطبعة المصرية ومكتبتها .
- صحيح مسلم بشرح النووي. دار الخير . بيروت . الأولى. ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري. لابن حجر العسقلاني. المكتبة السلفية. القاهرة.
- الكليات لابي البقاء الكفوي . مؤسسة الرسالة . بيروت . الثانية . ١٤١٣هـ ١٩٩٣م .
- لسان العرب . ترتيب يوسف خياط ونديم مرعشلي . دار لسان العرب . بيروت . الأولى.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . للهيثمي . دار الكتاب العربي بيروت. الثالثة . ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
- مسند الإمام أحمد . تصوير المكتب الإسلامي . بيروت .
- مسند الامام احمد . مؤسسة الرسالة . بيروت . الأولى . ١٤١٣هـ ١٩٩٣م .
- مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي. المكتب الإسلامي. دمشق. الأولى. ١٣٨٠هـ.
- المعجم الوسيط . لإبراهيم أنيس وآخرون . دار إحياء التراث العربي . الثانية.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني. شركة مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي. القاهرة. ١٣٨١هـ ١٩٦١م .
- موطأ للإمام مالك بن أنس. تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي. طبعة كتاب الشعب. القاهرة .

فهرس المحتويات

القسم الأول

قصص الأنبياء والمرسلين

القسم الثاني

القصص الدالة على عجائب قدرة الله

القسم الثالث

القصص الدالة على فضائل الأعمال

القسم الرابع

قصص النماذج الإيمانية الراقية

القسم الخامس

قصص النماذج السيئة